

إذا أعجبك الكتاب، فرجاءً حاول شراء النسخة الورقية
تذكر أن الكتاب العرب معترّون والكل يستولي حيلهم
دعونا لهم بضمن استمرار عطائهم
(أبو عبيد)

يوميات سراب عفاف

أولاً



شعاع دار الآداب

جبرابراهيم جبرا

<http://abuabdoalbagl.blogspot.com>



أبو عبدو البغل

يوميات سراب عفان
جبرا إبراهيم جبرا / كاتب غلصطيني
الطبعة الأولى عام 1992
الطبعة الثانية عام 2006
حقوق الطبع محفوظة

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير - بناية بيهم

ص.ب. 11-4123

بيروت - لبنان

هاتف : 861633 (01) - 861632 (03)

فاكس : 009611861633

e-mail: d_aladab@cyheria.net.lb

Website: www.adahmag.com

والذهن هو مكانه الخاص به، وهو في ذاته يستطيع
أن يجعل سماء من الجحيم، وجحيماً من السماء.
... هنا على الأقل
سنكون أحراراً.

جون ملتون
«الفردوس المفقود»

سراب عَفان

«كان لا بدّ لها ان تخلص بشكل ما، فالخصار يشتدّ .
 «والخلاص أنواع، ويتمّ - إذا تمّ - بطريقة واحدة من طرق شتى .
 «فهو قد يكون هرباً، وقد يكون مجابهة .
 «والمجابهة هي كل شيء، إذا كان المجابهة محدّداً، ثمّ يمكن مواجهته
 رأساً، وضرباً .
 «وإذا لم يكن محدّداً، كما هو في الأغلب، كأنه الهواء الذي يحيط
 بالإنسان أينما التفت، فلا بدّ إذن من حيلة، وتخفّ، والتفاف . لا بدّ
 من قاعدة «اضرب واهرب»، والانزياح، والضرب مرة أخرى .
 «قد تكون المجابهة محسوبة عن طريق المراوغة، إلى أن يتحقّق
 الخلاص بتحقيق الذات ضدّ إرادة الآخر .
 «والخلاص للبعض يتمّ بمحاولة النسيان : هناك من يشرب لينسى،
 وهناك من يضع رأسه في الرمال عن قصد لينسى .
 «هناك من يطلب النسيان باستغلال الحواسّ، أو بالاستسلام
 للحبّ، أو للفجور، أو ربما بالصلاة، أو بابتلاع أقراص
 الفاليوم . . .

«هذه كلها خطرت ببال رندة الجوزي وهي تكتب، كأنها ستعرض تشكيلة من الحاجيات لتختار منها ما يناسبها. ففي الأيام الأخيرة، في كل صباح تذهب فيه رندة إلى مكتبها، تفكر بواحدة منها على الأقل. أو لعلها تفكر بأكثر من واحدة منها، أو بها جميعاً، وتكتب - إذا وابتها القريحة.

«ولعل كتابتها، بعد ذاتها، كانت وسيلة أخرى للنسيان، أو المراوغة. فهي تجلس إلى الآلة الكاتبة، وتخط على المفاتيح، بدون تهيؤ مسبق، فيما عدا حالتها النفسية. ففي لحظات من انعدام العمل، وتراكم الفوضى الجائرة في دماغها، تخط عشوائياً، ولثلاث الكلمات كيفما شاءت...»

بعد أن طبعَتْ هذه الأسطر، توقفت قليلاً وأعدت قراءتها. وقلت: مسكينة رندة الجوزي، ذاتي الأخرى! أحملها همومي اليومية. رندة، يا قناعي المأساوي، يا قناعي الكوميدي، لماذا لا تتمردين علي؟

ثم بدأت أطبع من جديد؛

«من هنا إلى أقاصي الصين، في كل وادٍ وعلى كل جبل، تنفجر عيون الظلام والبؤس والتوق - وكذلك الظلم، من ذوي القربى وذوي البعد على السواء... وربما الهوس، والعشق، ونحس الذات...»

قرأت ما طبعته، ثم عادت أصابعي إلى نقر المفاتيح: «الراكضون عبر السهول، والمنزلقون بين الصخور، والمحشورون في حافلات الظهيرة، إنما يعانون من المحنة نفسها...»

وانتهت إلى كلمة «محنة». أية محنة أعني؟ محنة الحصار، أو، بكلمة أدق، الانحصار، أن يرفض الإنسان ما هو فيه، أن يطلب النجاة إلى منطقة ما من الكينونة يكون له فيها حرية قد لا يستطيع تحديدها ولكنه يشتهيها، مهما تكن. الحرية من الضغوط الآنية، والضغوط الآجلة، من الضغوط المادية والضغوط النفسية - الحرية من وضع العالم المزري. الحرية، ولتكن ما تكون.

وتعود أصابعي لتنفّر على الطابعة: «هناك دائماً موت مؤجل. وفي الظلام المستشري، تتعثر الذات في بحثها عن نقطة الضوء التي قد تؤثر إلى منفذ محتمل، حيث لا بشر، ولا أصوات، سوى أصوات الزيزان في يوم حارّ، وربما صوت الريح الفجائية في عشية باردة.»

وتراءى لي مشهد فسيح من مشاهد ذكرياتي الجبلية: منحدرات خضراء كالشرفات تتوالى نزولاً حتى تغيب في أعماق ضبابية، والأشجار تبدو في السكون الغارق في الشمس كأنها وجدت هناك بخطأ من الطبيعة. الوحشة طاغية. حتى العصافير هجرت الحقول المهملة، والصخور كحيوانات خرافية جمدت مكانها كما بموت باغتها في عزّ الظهيرة. ورنده هناك. وحدها هي هناك. ولا تعرف لماذا هي هناك. كيف وصلت إلى المكان، ومن أين جاءت إليه؟

وعادت أصابعي إلى التنقر على الطابعة: «ولكن قبل أن تهبّ الريح، هناك السكون، وهناك السماء الزرقاء الفسيحة، وهناك الصمت المتلألئ. هل أصيبت الدنيا بالصمم، بالكم؟ أم أن الطبيعة تلعب لعبة مسرحية تعابث فيها نفسها، ريثما ينفجر بركان ما، فترتجف لدوي الانفجار أوصال الجبال والوديان؟ أم أنها في انتظار

تفجّر ذلك الشلال السري من أعالي التلعة، لتهاوى مياهه بهدير
صاحب إلى أعماق الوادي الأسود بخضرة أشجاره الكثيفة؟

قرأت ما طبع، وأنا ما زلت على حالي من عدم القدرة على
متابعة الصور التي تتحلّق على الورق دون إرادة مني. ولكنني أحسست
بصوت الشلال «السري» (وتساءلت: «سري؟ لماذا سري؟») يملأ
رأسي بغثة كدوار لذيد، وبسرعة بدأت نفرة جديدة على الورقة:

«آه، إنه الشلال الذي جاء بها بين تلك الصخور، لا كراعية
تحمل عصا وتركض وراء غماتها السارحات، ولا كقروية في ثيابها
الحمراء والزرقاء والصفراء تجمع أوراق الزعتر وأزهار البابونج - بل
كفتاةٍ عصريةٍ من المدينة، تلبس بنطلون الجينز الأزرق وقميص الجينز
المفتوح عند النحر والصدر، تريد الابتعاد عن الناس والاختلاء
بنفسها مع أصوات المياه الساقطة، في انتظار الريح التي من شأنها أن
تهب قبيل غروب الشمس، بعد أن تكون قد تشبعت هي بأشعتها
وبريقها. إنها تعانق تلك الأشعة وذلك البريق، وهي تجمعها بين
راحتها وتدسّها في فتحة قميصها بين نهديها، وتحسّ بالحرارة تدغدغ
جسمها من الداخل، والشلال لا يكفّ عن صخبه، حتى بات
الصخب طاعياً، كالصمت نفسه عند الموت. إنه الموت المؤقت في
الدوي المتتابع. والمدينة على مرمى حجر منها. المدينة السرية
المفضوحة. المدينة التي تهرب هي منها، فتلاحقها، بشوارعها
المكتظة، وأبواق سياراتها المتصايحة كأنها تريد أن تلعو على أصوات
الزيران والمياه المتهاوية في الوادي السحيق.»

أتوقّف عن ضرب الحروف، وأخرج الورقة من مكانها على الآلة

الكاتبة لألقمها بأخرى بيضاء، وأحذق في الآلة الصماء، وفي قلبي وجيب غريب. ودون أن أقرأ ما طبعت هذه المرة، أبداً فقرة جديدة: «لماذا أراني أتعلق بهذا كله؟ لماذا أغيب عن نفسي، وأصرّ على الغياب، أو الغيبوبة؟ ولكنني لست أغيب عن نفسي بقدر ما أنا أتوهم. إنني ارتدّ إلى المناطق المجهولة التي تسكنني، ولست أدري هل هي التي تدفعني إلى طلب الحرب، أم أنها هي التي أطلبها في حرب ولا أعرف طريقي إليها؟ لعلني أركض في دوائر، أولها آخرها، وآخرها أولها. وساعة يفاجئني العمل بضروراته، أنطلق عند نقطة التماس كصاروخ أطلق في اتجاه السديم، المدوم بالكواكب والشهب التي لا تعرف الأرض شيئاً عنها.»

هنا ضحكت على ما كتبتُ الأحرف التي أضربها، ونقرت:

«أي صاروخ يا امرأة، وأي كواكب وشهب، وأنا بين الناس وكأنني لست منهم، أسمعهم ولا أفهمهم، أكلّمهم ولا يفهموني، والحركة بينهم أشبه بالسير في الوحل اللزج إلى ما لا نهاية؟ كيف الخلاص إذن؟ أغلب الظن: لا خلاص. أسمعهم يا رنده؟»

سحبت الورقة من «رولة» الطابعة، ودون أن أعيد قراءة ما طبعت، أدخلت الورقتين معاً في إضابة بلاستيكية وألقيت بها عني، وانصرفت إلى عملي: كتابة ثلاث رسائل أوصاني المدير بالحواب عنها، على الطريقة المألوفة. وهو يثق بقدرتي على صياغة الجواب الملائم كما يثق بلغتي «الصحيحة» وقدرتي على التعبير - ولو أن معظم ما أكتب من رسائل على لسان المدير، مكرور في صيغته ومحتواه، ونادراً ما يتطلب براعة خاصة.

في اليوم التالي، كنت وحدي في المكتب مرة أخرى، وما زالت تلك الرغبة الغامضة في التفجر باتجاه ما تستبد بي، ولا أعرف ماذا أفعل. ولم يكن لي إلا أن أهتئ لنفسي فنجان القهوة المعهود، وأجلس إلى آلي الكاتبة، والفنجان على يميني أرشف منه قطرات أتلذذ بها، وأدس صفحة جديدة في الآلة، وتنطلق أصابعي في الحبط على المفاتيح:

«أنا هنا مرة أخرى، للمرة المئة، أو للمرة الألف... الجدران تتباعد، تتناهى، وتتسع الغرفة، ثم تزحف الجدران معاً، جداراً باتجاه جدار، تزحف وتتقارب، ورندة بينها قد وقعت كسمكة في شبكة صياد. تحيط الجدران الصماء الأربعة بها أخيراً، حتى تكاد تلامسها: قريبة من كوعها الأيمن، وقريبة من كوعها الأيسر، وتكاد تدق رأسها بالجدار إذا انحنت به إلى الأمام، أو إذا دفعته إلى الوراء. ولكن الجدران، على ضيق الفسحة بينها، عالية، عالية جداً، تمتد وترتفع، ترتفع إلى ما لانهاية، وتبدو كأنها تبلغ السماء التي تغدو لها سقفاً أزرق بعيداً، مضيئاً، ضئيل الرقعة، لكنه يرسل إليها نسيمات طيبة، وأصواتاً مهددة، مغرية. هل تغني الملائكة حتى لو أقفصت في سجاو صغرة حُرمت فيها حريتها؟»

أكف عن الطبع، وأرشف ما تبقى من قهوتي. ويخطر لي ما يجعلني أضحك لنفسي، وأقرر أن قد حان لرندة أن تسحب، مؤقتاً، فأحدث، دون قناعها، عن نفسي. وأستأنف الطبع:

«ترى ما فحوى تلك الأصوات المغرية؟ ما الذي تقول الملائكة في أغنيتهما وقد طوت أجنحتها على أجسامها الأثيرة، وأحلامها

المستحيلة؟ أتقول إن عليّ أن أحبّ، مثلاً؟ ولماذا لا أحبّ؟ ولكن من هو الذي يجب أن أحبّ، أو من هو الذي يجعلني أقطع البراري حافية القدمين لكي أرى وجهه، وأسمع همسه؟ صاحب! سأعلن لنفسي أنني وقعت في هوى لا أعرف دربي ما! سأقول إنني عاشقة! ولئن كنت أريد الخلاص، أو الهرب، أو المجابهة، فلسوف يشحذ هذا الحب من عزمي، كأنني أهرب ممن أعشق، لكي أبلغ من أعشق. تناقض آخر سأتعلم كيف أستخرج جوهره وسحره... هل هذه أنا بين الجدران الأربعة المطبقة، والبالغة في ارتفاعها غيوم السماء، كأنها تعوّض بالبعد والسموّ عن الحصر والقهر؟ حسناً! سأستعرض الرجال الذين أعرفهم، والذين لا أعرفهم إلاّ وجوهاً وأسماء، لعلني أعرّ على ذلك الذي سيصعد بي هذه الجدران الملساء السامقة إلى جنة الربّ الموعودة... أفّ، لا، لا! ما شريط الفيديو هذا الذي راح يقذف بالوجوه بين يديّ، ولا أستطيع أن أوقفه؟ هذه الوجوه كلها أعرفها، واحداً واحداً، ولا تغريني. أنا لا أغرى بالمألوف إلى حدّ السأم. أريد وجهاً لا أعرفه، حتّى أريد صوتاً يبعث الرعدة في جسدي عند أول كلمة يطلقها. عليّ أن أختصره! عليّ أن أوجد من العدم الرجل الذي أحبّ. ولكن من العدم لا يتجّ سوى العدم، إلّا على يد الله. ومن أنا لأحاول تقليد ربي؟

توقّفت عن ضرب الحروف، وقد أوشكت أن أبلغ بالسورقة نهايتها، فسحبته، وألصقت الطابعة ورقة أخرى. وقبل أن تنزلق الصور كالماء من بين أصابعي، استأنفت:

«أجل، من أنا؟ فلنرّ.

«رندة، عزيزتي، اسمحي لي بنزع القناع مرة أخرى، ولو إلى حين».

«أنا فتاة، امرأة، دخلت في السادسة والعشرين من عمرها. قضت أربع سنوات في دراسة جامعية، لا تستفيد الآن من اختصاصها. تعمل في مكتب تجاري لا يمتّ لاهتماماتها بصلة... وماذا يهمّ هذا كله، بالنسبة لسؤالي عن هويتي؟ لا شيء».

«أقول إن هويتي هي اسمي؟ اسمي سراب عفّان. ثم ماذا؟ هويتي هي أنني أريد أن انفجر شظايا أحياناً، لأنني ما عدت أطيع صبراً على نظام حياتي».

«هويتي هي أن أبي يحبني، ويخافني (١)، ويخاف عليّ ولا يفهمني. أمر عاديّ ولا شك. إذن، أنا كغيري من الفتيات، ولكنني، أعرف أنني أختلف عنهن، وهويتي هي في اختلافي. إنني صريحة إلى حدّ الوقاحة أحياناً، وبريئة إلى حدّ السذاجة أحياناً، وأطالب بحقيّ في الحياة الروحية والجسدية بعنف إلى حدّ الجنون أحياناً. وخيالاتي أبعد مدى من كل ما قد تدركه يدي، وتسكنني هذه الخيالات وتبليغي بشقاء الروح وشقاء الجسد إلى حدّ فقدان السيطرة عليها كليها أحياناً. والأفلم لم أقنع بسهولة الراضي «حبيباً» أيام الدراسة، وفسخت الخطبة مع ابن عمي وسام عفّان بعد ذلك - ولكنك لي الآن على الأقل طفل يحبو عند قدميّ؟»

أحسست بأن ما أطبعه على الورقة لا يلاحق بالضبط كل ما يصطبّخ في رأسي، وفي صدري. فالزوبعة عاتية، وخارجة عن سياق الزمن - والزمن لا بدّ منه في محاولة إدراك الزوبعة بالكلمات. ولكنه بضرورته هذه يؤخّرني عن إدراك الزوبعة إلّا في أقلّها. أو لعلّ

الخطأ لا يكمن في الزمن المتكوّن من تتابع الثواني والدقائق، بل في تحويل المطلق الذهني، السائب كالهواء أحياناً، والمتطايّر شظايا أحياناً، إلى كلمات، إلى حروف، إلى نطقٍ صوتيّ صوريّ عاجز عن مواكبة المطلق في حرية انتشاره وتطايّره. فقلت لنفسي: إنها المشكلة الأبدية نفسها. فلا قنع بما أستطيع أن أقبض عليه من كل هذا بالكلمات التي تقذفها طابعتي، والتي مهماً أسرعّت ستبقى أسيرة الزمن... لا بأس. فلا عُدّ.

ورقة بيضاء أخرى ألقيتها الآلة، بعد أن وضعت الورقة المطبوعة جانباً على الملفّ البلاستيكي. وطبعت:

«إذن يا ربّة الخيالات، اسعفيني. عذّبيني كيفما شئت، ولكن حقّقي لي ما أنت بصدهه معي، نسياناً، أو انقذاً إلى لطيب التجربة المدمّرة البانية التي ما انفكّت حتى الآن تراوغني. سراب عَفان، منذ هذا اليوم، بل هذه اللحظة، عاشقة، مجنونة بعشقها. ولسوف تكون أيضاً مقاتلة شجاعة من أجل الوطن، وفي سبيل الحرية، ولسوف تحبّ البشرية، وتضمّد جراح الإنسان في كل مكان. ولكن سراب الصريحة، البريئة، المشاكسة، الصارخة في المطالبة بحصّتها من تجربة الحياة الآن وهنا، عاشقة، موهبة. وهي، بينها وبين نفسها تعلن أن العشق إذا تمكّن من المرأة اخترق الحواجز، وهَدَمَ السدود، ورفض الاعتراف بأيّ وازع أو رادع... ولن تحبّ سراب على مستوى دون ذلك. فإما كل شيء، أو لا شيء..»

وتوقّفت لأكرّر لنفسي: كل شيء، أو لا شيء... وعادتني الضحكة الشامتة من نفسي، حين جعلت الكلمات تتلاعب على

شفني: من كل شيء، لا شيء! مصيبة... ومن لا شيء، كل شيء! مصيبة أخرى... فلأتابع الفكرة إلى حيث تقودني الكلمات.

دق جرس التلفون في تلك اللحظة، وكان علي أن أجيب. ودخل علي مراجعان، واستقبلتهما بالواجب المطلوب. ودخلت على المدير الذي كان في عجلة من أمره مع أحد شركائه، وسلمته إضبارة الكتب الواردة التي قرأها، وعلق على هوامشها، وأخرى من الكتب التي وقّعها وعلي أن أصدرها. انقضى الصباح، وانقضت الظهيرة، وأنا لا أدري. وحين خرجت من المكتب في نهاية الدوام، ودخلت المصعد الضيق، وقد حملت في حقبة يدي الأوراق التي طبعتها كلها، شعرت بأنني أخفّ من المعتاد، بأن حركتي تكاد تكون حركة من لا وزن له. وخشيت لذلك أن يصعد بي المصعد كالسهم ويضرب سقف العمارة! فعدت وتأكدت من أن الزرّ الذي ضغطته بإصبعي هو زرّ الطابق الأرضي. بل إنني أعدت الضغط عليه مرّة أخرى، قبل أن ينغلق الباب، وينزل بي المصعد بطيئاً، وبرجفة الجهاز القديم الذي لا يُعتمد دائماً عليه.

عند خروجي منه، واجهت الحوانيت التجارية الكثيرة التي تملأ الطابق الأرضي من العمارة الكبيرة. أحذية، وحقائب، وملابس نسائية، وملابس رجالية، تتكرّر على جوانب البهو العريض، وتجذب أنماط البشرية كلها. هناك أيضاً من يبيع أسرطة الغناء والموسيقى، والأجهزة الكهربائية، والثلاجات. وبينها جميعاً انحصرت مكتبة أبو حاتم - وهي تعتمد القرطاسية أكثر من الكتب، لعلم صاحبها أن مشتري الدفاتر والأقلام أكبر عدداً بكثير من مشتري

الكتب. وخطر لي أن أدخل المكتبة لشراء مجلة أو اثنتين، التقطتهما بسرعة، ثم نظرت إلى رفوف الكتب القليلة، وكنت أعرف ما عليها من كتب ألقت عناوينها لكثرة ما رأيته مرصوفة عليها، باثرة.

لم أجد عنواناً يثير اهتمامي، لولا أن أبو حاتم لفت نظري إلى كومة صغيرة من نسخ كتاب أقامها أمامه على منضدته، قائلاً: «هل قرأت هذه الرواية الجديدة لنائل عمران؟» ورفع لي نسخة بين يديه لكي أقرأ العنوان: «الدخول في المرايا».

قلت: «نائل عمران؟ أه نائل عمران. لدي بعض كتبه. لم أعلم أنه نشر كتاباً جديداً». «وصلني هذا الصباح»، قال أبو حاتم.

أخذت الكتاب من يده، ونظرت إلى أسفل الغلاف الأخير، لأرى سعره. وأخرجت من حقيبتي يدي ورقة نقدية، وناولتها البائع. فأعاد إليّ الكسور، بعد أن أضاف ثمن المجلتيين.

وحين خرجت إلى الشارع أحسست بضرورة الإسراع إلى المرآب القريب، حيث أوقف سيارتي. وما كدت أستقر وراء المقود حتى انطلقت من المرآب بعجلة زائدة، كأنني تأخرت كثيراً عن موعد في مكان بعيد - وأنا في الواقع لست أكثر من عائدة إلى داري، كما أفعل كل يوم حوالي الساعة الثانية بعد الظهر. كنت أدعي أنني مسرعة، وأن يدي تضغطان على المقود بشيء من العصبية، وتزداد عصبيتي حين أضطر إلى التوقف عند الأحمر من أضواء المرور.

كانت المجلتان على المقعد الجانبي، وفوقهما كتاب نائل عمران، الذي رحلت ألقت نحوه بين لحظة وأخرى، وأعيد قراءة عنوانه:

«الدخول في المرايا». وفجأة، انتهت إلى أن تسرعي الغامض الذي بعث في أعصابي التوتر، له علاقة بالكتاب. إنني أريد أن أصل إلى الدار بسرعة، لأقرأ هذه الرواية الجديدة التي باتت توحى إليّ بأن فيها أمراً يهمني، يهمني شخصياً.

الدخول في المرايا - هل هو طريق آخر للمخلص الذي تحوم أفكاره حولي، وطابعي تعاتبني بشأنه؟... الدخول في المرايا، كما فعلت صاحبتنا أليس بعد أن دخلت بلد العجائب؟ إنها هنا لا تدخل المرأة الواحدة فقط، بل المرايا، ومن ستجد مع العجائب التي في داخلها؟ نائل عمران، ولا شك! لعبة قديمة، يا مؤلفي العزيز. وحتى عنوانك ليس تماماً بالجديد... إنك تستعجلني لكي أدخل في المرايا، في مراياك، انعكاساتك، عجائب أوهامك. ولكن لا، لا بهذه السهولة. عزيزي نائل عمران، نحن في عصر الماسي، حيث ندخل أتون النار لنخرج منه إلى أتون آخر. سراب قد تقع ضحية الإغراء، حين تنساق وراء من يبدو أنه يدعوك للركض في أعقابه إلى حيث تلتصع وعود لذة مجهولة - إلا أنها سرعان ما تنتبه إلى الخديعة، وترفض الإغراء... نائل عمران، أنت تحاول أن تخدعني بعنوان كتابك، ربما لأنك أوحى إليك بأن سراب عفان قررت أن تكون أكبر عاشقة في البلد، في زمن هو زمن الفواجع. وما دخلك أنت؟ لا، لن أسرع بسيارتي أكثر مما أفعل كل يوم، ٦٠ أو ٧٠ كيلومتراً في الساعة، لا ١٠٠ و ١٢٠... هذا جنون محض!

ولكنني حين أبطأت، لا أظني أبطأت كثيراً.

حين بلغت الدار، وجدت أنني سبقت أختي وأبي في الوصول.

حيث أمي، واندفعت إلى غرفة نومي حيث ألقيت عني بالكتاب والمجلتين، وحقية يدي. وألقيت عني ثيابي، وارتديت الروب، وأسرت إلى الحمام، ووقفت عارية تحت الدوش البارد. ولكن الماء لم يكن بارداً بما يكفي. إنه ينزل من الخزّان القائم على سطح الدار، وفي مثل هذه الساعة، والشمس على أقواها، ترتفع درجة حرارته، كأنه قادم من السخان. ومع ذلك، فقد أنعشني برشه القوي الساقط على جسми. وتذكرت الشلال السري الساقط من أعالي الصخور إلى بطن الوادي السحيق، واستضحكت لنفسي: ما ألدّ الماء! الماء! نائل عمران يا صانع الأوهام، لا تدخل المرايا، تعال ادخل الماء، ادخل الشلال، ادخل الأنهر الفائضة، ادخل البحار!.. سراب عفّان، أنت أكبر وأهمّة. ولن يكون موتك إلا غرقاً. غرقاً في اللجج المتواتبة، الزاعقة... سأكتب هذا الكلام - إذا تذكرته. سأضيفه إلى يومياتي.

عندما خرجت من الحمام مرتدية الروب، شعرت بجوع هائل، وانجھت نحو المطبخ وأنا أسأل أمي: «ماذا طبخت لنا اليوم؟» ورفعت أغذية القدور المجمّعة على الطبخ.

«ما فيه النصيب،» قالت أمي، بشيء من التعب.

فضحكت لأسترضيها، كأنني أعوّض بضحكتي عن مللها اليومي في تهيئة ما لا بدّ منه كل صباح، وكل ظهيرة، وكل مساء، رغم كل ما تبديه فتحية من جهد في خدمة العائلة. وقلت: «ماما، أنا راضية. وقد جئت اليوم برواية جديدة سأعطيك إياها لتقرأها حالما أفرغ منها.» وتناولت صحناً أدرت فيه قليلاً من الأرز، وقليلاً من المرق مع قطعة لحم صغيرة. وأخذت صحنى مع شوكة إلى غرفتي،

وأمي تقول مستغربة: «ما هذا؟ لم لا تأكلين هنا - في المطبخ، أو في غرفة الطعام؟»

أجبت: «لأن غرفتي أبرد بكثير. يظهر أنك شغلت التبريد منذ الصباح؟»

أغلقت بابي، ووضعت الصحن على المنضدة الصغيرة قرب رأس فراشي. وجلست جانبياً على الفراش - وكانت فتحة قد رتبته كما أريد - وتناولت الكتاب الملقى عليه، وفتحته في حضني، وبدأت أكل وأقرأ، في آن معاً. وكنت سريعة في الحالتين: التهم ما في الصحن، ومسا في الكتاب. وفرغت من الأكل في دقائق. واستلقيت على الفراش، لأن الكتاب، مهما أسرعت في التهامه، يحتاج إلى وقت أطول بكثير، لسوء الحظ. ورغم أنني اعتدت القيلولة بعد الغداء، فإنني هذه المرة بقيت مستيقظة، وكان ما أقرأه اليوم لن يبعد عني نوم ما بعد الظهر فقط، بل نوم الليل أيضاً، فيما يبدو.

وسمعت جلبة في الدار عرفت منها أن أبي قد وصل، وكذلك اختي شذى. وسمعت أُمِّي تقول: «سراب في غرفتها، نائمة.» وابتسمت لنفسي: أنا نائمة؟ أه لو تعرفين يا ماما! واستأنفت القراءة.

وفجأة انتهت إلى أنني قد التهمت من كتاب «الدخول في المراسم» اثنتين وسبعين صفحة من صفحاته الـ ٣٢٠، شحنت رأسي شحناً جعلني أضعه على المنضدة الجانبية، وأخرجت من درجها الصغير دفتر أوراق الرسائل، ومن حقيبتي أخرجت قلم الحبر الجاف، واتخذت وضعاً مريحاً على الفراش، بالاستناد إلى الوسادتين اللتين رفعتها

عمودياً وراء ظهره، ورفعت ركبتي وأسندت الأوراق عليهما،
ورحت أكتب، وقد انطلق عفرتي الماخن يعبث في داخلي:

كانت دهشته هائلة اليوم عندما اتصلت به تلفونياً. قلت له: «لي
معك كلام كثير، فهل أنت في كامل يقظتك؟» قال: «وفي كامل
قواي العقلية.» قلت له: «هذا المهم. أتعلم أن ما أحبه فيك هو
قواك العقلية؟» قال: «هل تهزأين مني؟ من يحب أحداً لقواه
العقلية؟» قلت: «أنا. ولو أنني قد لا أكون صادقة مثلاً.» قال:
«ربما اثنين بالمثل؟» قلت: «لا، أكثر، قليلاً.» قال: «طيب يا ستي.
وماذا بعد؟» قلت: «وحضورك.» قال: «حضورى؟ على التلفون؟»
قلت: «على صفحات الكتاب.»

قال: «أي كتاب.»

- أي كتاب من كتبك.

- حضوري الشجي! فهمت.

- بل حضورك الجسماني.

- أنت خطرة! هل أعرفك؟

- لا أظن.

- هل تعرفيني؟

- معرفة جيّدة، جيّدة جداً.

- هائل. أمّا أنا فلا. أعرفني معرفة جيّدة - دعي عنك جداً.

- لأنك لا تعيد قراءة ما تكتب.

- من أين لي الوقت لذلك؟ والوقت أقلّ ماعندي.

- لا بأس. دع الأمر لي. سأخبرك بكل شيء.

- لا سمح الله!
- أتعرف أنني دخلت «المرايا»؟
- كان الله في عونك!
- دخلتها، معك.
- ما أسعدني!
- أحسد نفسك!
- مؤقتاً، إلى أن تخرجني؟
- سأخرج منها، ربما الليلة، أو غداً.
- واهمة!
- لا، متأكدة.
- عندما تخرجين منها، أخبريني. أنت لا تعلمين أنك وقعت في فخّ.
- هل كنت أبحث عن هذا الفخّ، فعثرت عليه؟
- عثرت عليه، به، فيه.
- أو لعلّه هو الذي عثر عليّ، بي، في؟
- هل القفص يبحث عن العصفور؟
- يتوقّف الأمر على من هو القفص ومن هو العصفور.
- القضية واضحة، يا آنسة.
- أنت الواهم هذه المرة. أظنّ أنك أنت القفص؟
- واضح جداً. وأنتِ العصفور.
- اضحك على كيفك، إلى أن تدرك حقيقة ما يجري.
- وهل هناك شيء يجري مما يهمني أن أعرفه؟
- الكثير. وإليك الأوليات.

- هاتي يا ستي .
- يظهر أنني، لأسباب خاصة، معقدة، يصعب شرحها الآن .
- نعم ؟
- قرّرت . . .
- نعم . . .
- آ . . .
- لماذا سكّت؟ ما الذي قرّرت؟
- كدت أقول له إنني قرّرت أن أكون أكبر عاشقة في البلد، ولكنني لم أجروء أن أبلغ بالعبث إلى ذلك الحدّ . فقلت:
- قرّرت أن أعلمك، يا صاحب المرايا، أنني أعرفك جيّداً .
- ولكنني أريد أن أعرفك أكثر .
- ولماذا تريد أن أعرفك أكثر؟
- لضرورة فكرية، ذهنية . . .
- بل نفسية، قولها بصراحة .
- إلى حد ما .
- وما الذي بعد هذه الأوليّة؟
- أوليات أخرى .
- إذن تكفيني هذه . مؤقتاً .

عندها شعرت أنني ربّما نجحت في خطّتي معه . فهو لا يقاوم فيما يبدو . . . أستدرجه، فيسايرني . وعلى الآن بالاستمرار على النحو الذي يبقيه على انقياده . لا شك أن شيئاً من الزهو قد أصابه، وأنه، على نهجه، يستجيب للعبة طرفها الآخر امرأة مجهولة . ولكن لا بدّ

من الحذر من أيّ انزلاق ينوب، أوبه، عن تصعيد اللعبة. يجب أن أبقى على عنصر كبير من التجريد واللاشخصانية، وإلاّ انقلبت القضية إلى مجرد مغازلة رخيصة، لا أنا أريدها، ولا أحسب أنه يرضى بها. فقلت: «الحمد لله، لأنك لا تطالب بالمزيد من التبرير.»
- المهم، النتيجة. الفعل.

- الفعل؟ أيّ فعل؟

فوجئت بما لم يكن في حسابي. أجاب: «أليست هذه كلها مقدمات لنوع ما من الدراما؟»

فضحكت بأكثر ما استطعت من رقّة مصطنعة: «إذا كان لا بدّ من الدراما، فهي، على الأرجح، كوميديا.»
- يعني، لا موت فيها لأحد؟ لا قتل، لا انتحار؟ لا غضب يحقّ الدنيا؟

- لا، لا، أبداً، أستاذ نائل. ربّما شيء من الاستفزاز، شيء من الإغاضة البريئة، شيء من الضحك على الدنيا، رغم ظلمها وقسوتها.

- يا آنسة، لا تخيّبي. أنا والمأساة صنوان وفرسا رهان، كما كانوا يقولون أيام زمان.

- ولذلك اقتضى بعض الترويح. شايل السلم بالعرض، وراكض! هل تريد أن تحطّم المرايا؟

هنا ضحك نائل عمران لأول مرّة ضحكة حقيقية. سمعت الفقهة في حلقه. ووددت لو أخذت وجهه بين يديّ وهو يفقهه، لأغلق شفتيه على الضحك بشفتيّ، لعلّه يُعديني... سراب عقان!

انتهي! ستحققين صدق زعمه: ستكونين العصفور يلدس نفسه بإصرار في القفص، متنازلاً عن حق جناحيه في الطيران. لا بهذه السرعة! احذري! افقصيه أنت أولاً... ثم من هو الذي به حاجة للترويح، هو أم أنا؟ هو أم أنا؟

توقفت عن الكتابة. أعدت ترتيب الأوراق الخمس أو الست التي ملأتها، وقراءتها، وعند نهايتها فكرت: ترى لو أنني فعلاً اتصلت بهذا المؤلف تلفونياً، هل كان يجري بيننا حوار كهذا؟ ألا يحتمل أنه سيجيبني باقتضاب، أو يعتذر عن الاستمرار في الكلام، أو «يشخط» بي، ويسدّ التلفون؟ ألا يحتمل أن زوجته، إن كان متزوجاً، هي التي ستجيب، فتريد معرفة من هي التي تتكلم، وماذا تريد «حضرتي» من الأستاذ نائل بالضبط؟ وستسأل: هل يعرفك؟ هل طلب إليك أن تخبريه؟ من أين لك رقم هاتفه؟ إلخ، إلخ.

ثم ابتسمت ابتسامة أحسست بخبثها، لأن الفكرة التي راودتني لم تخل من شيطنة: ألجرب؟ أتلفن له فأرى ما الذي يحدث؟ هل أجد رقمه في الدليل؟ أو عند استعلامات الهاتف؟

ولكنني صرفت ذلك كله عن ذهني بهزة رأس قوية، وألقيت الأوراق عني على الأرض، وأعدت ترتيب الوسادتين، واستلقيت بطول قوامي على الفراش، وقد شعرت أخيراً بتعب يسري في أعضائي جميعاً. وفي أقل من دقيقتين، غرقت في نوم ناعم عميق.

في مكنتي في اليوم التالي، شغلني بريد وارد كثير. كانت هناك رسائل بالإنكليزية عليّ أن أترجمها للمدير الذي بات يعترف بأنه لا يطمئن إلى فهمه الإنكليزية، والذي من عادته أن يقارن بين الترجمة والنص الأجنبي، أملاً في أن يتعلم كلمة جديدة، أو مصطلحاً تجارياً لم يكن واثقاً من معناه. وكان «الدخول في المراسم» على منضدتي، قرب فنجان القهوة، اتحين الفرصة للعودة إليه لأكمل قراءته حالما يخرج المدير بشأن من شؤونه. وعندما انتهت من البريد، وخرج المدير كعادته، كانت الساعة قد تعدت الثانية عشرة. ولكن ما إن فتحت الكتاب عند الصفحة ١٦٩، حيث توقفت في الليلة السابقة، وقرأت سطرين أو ثلاثة، حتى شعرت بذلك الدبيب اللذيذ في أصابعي، الذي يجعلني ألقأ إلى الطابعة قبل أن يفارقني. وألقت الطابعة ورقة جديدة، وأعملت أصابعي على المفاتيح، دون هدي:

عبث وجنون، أدري.

لم يصدق أبي أنني ولدت حيّة يوم ولدت، لكثرة ما طرحت أمي قبل ذلك، وقال: «سموها سراب»، لأنني أعلم أنني ما إن أصل إلى مستشفى الولادة حتى أجد أنني خُدت مرة أخرى...

ولم يُخدع يومئذ، ولكنه بقي يخشى أن ما يراه لن يكون في يوم ما إلا خديعة. وقال لي يوم بلغت العشرين - وقد رُزق بعدي بأربع سنوات بشذى: «لماذا لم أطلق عليك اسماً أنت أحق به؟ مي، مثلاً، أو ريثاً، لأنني أرتوي بك كل يوم، يا حبيبتي، وأنت سراب!» وقلت له: «أليست هذه هي المعجزة التي كنت تحلم بها؟» فهز رأسه ضاحكاً: «نعم، على عكس ما يحلم الناس!» ولم أدرك ما الذي قصد

إليه ساعتئذ. أو لعلّه لم يكن يقصد أمراً محدّداً. ولكنني أدركت فيما بعد الكثير ممّا لم يقله، أو لم يكن بوسعه التعبير عنه.

لماذا كان عليّ أن أولد لأروى ظمأ شخص آخر، حتى ولو كان أبي؟ وهل ارتوى بي فعلاً، كما يزعم؟ من الواضح أن أبي، رغم كل علمه الجراحي، في واد، وأنا في واد. وفي السنوات الأخيرة أخذ الجبل بين الواديين يرتفع بشكل ملحوظ. لا، ما عاد يهّمه ما كان يهّمه قبل ربع قرن من زمن رديء. قذف بي سراياً إلى العالم، وقيت سراياً، رؤيا توحى بما ليس فيها. رؤيا مغربة، ربّما. ولكن لمن؟ ولي أنا، ألم أبق سراياً، أركض في اتجاهه، وابتعد بي، أركض مزيداً، ولا أجد إلا أنني زدت توغلاً في البلقع الذي لن يعرف الماء؟ أيّ مرايا دخلت، لا تؤدّي إلا إلى المزيد من المرايا؟ ويتضاعف الخداع. يتضاعف الكذب. ساكون أكبر عاشقة في الدنيا حالما تتاح لي الفرصة: ولكن أين الطوفان الذي سألقي بنفسي في خضمّه، في صحرائي اليومية العنيدة؟

أحسست أنني استطردت إلى حيث لا أريد. وبسرعة أخرجت الورقة من الآلة الكاتبة، وأنا أفكر: هذا التساؤل فرغت منه، فلماذا أكرّره؟ لقد سبق أن قرّرت الدخول في لعبة كلامية مع الآلة الكاتبة، أو مع أوراقي في البيت. فلاستمرّ في اللعبة، وليتضاعف الكذب - إن كان ما أكتبه كذباً. ولذا، عندما أدخلت ورقة جديدة في الآلة، كان خيالي قد انعطف بي بشكل حادّ وحازم. وأخذت أطبع.

(تنمّة ما كتبت أمس في البيت)

تلفنت له هذا الصباح بعد وصولي إلى المكتب بقليل. بدا لي من

صوته أنه مضطرب، وغير واثق مما يسمعه مرة أخرى من امرأة لا يعرفها، وخشيت أن يقطع المكالمة، وكان عليّ أن أكون مقنعة، وطبيعية، ومغرية بالاستمرار، كلها معاً.

قلت: «هل نمت جيداً البارحة بعد حديثنا؟»

قال: «ولم لا أناام جيداً بعد حديثنا؟»

- ألم أقلقك في شيء؟

- أبداً. ولكنني أفضل لو أنني أعرف من هي التي تخاطبني.

خطر لي أن أدعي أن اسمي رندة الجوزي، ولكنني قرّرت بسرعة أن أحتفظ برندة للعبة أخرى.

قلت: «سأذكر لك اسمي الأول. اسمي سراب.»

ضحك ساخراً: «ها ها! سراب! عرفت لعبتك يا آنسة - أم أنك سيّدة؟»

قلت وأنا أضحك: «آنسة، أو سيّدة غير مهم. المهم هو أنني حقيقية، رغم اسمي.»

- سأطلب البرهان على ذلك.

- كل شيء في وقته.

- هل انتهيت من «المرايا»؟

- ما زالت في وسطها. أعترف أن الفخ الذي نصبته شغال.

- ها! سراب في فخ... أو، الفخ يلتقم السراب...

- أو سراب في المرايا، أو مرايا السراب...

وفجأة قال بشيء من الجذّ: «اسمعي. هل أستطيع أن أراك؟»

فقلت، متسرّعة بعض الشيء كعادتي: «ولم لا؟»

- متى؟ غداً؟ بعد غدا؟

- فيم التأجيل؟ اليوم!

- اليوم؟ بعد الظهر؟

- اليوم، هذا الصباح!

- لا! إنك تعبثين بي.

- أبداً. وهذا هو عنواني.

- لا، لا... هذه مازحات قديمة، معروفة. ستجعليني أقصد

مكاناً ترفيئني فيه دون أن أراك، لتضحكي على رجلٍ أومأت إليه

فجأة راكضاً إلى سراب. وقد يكون معك في التفرّج صديق أو

صديقة، إمعاناً في الضحك. آسف!

- إذن، أعطني عنوانك، فأني أنا إليك بسيارتي.

- هذا الصباح؟

- نعم

- لا، لا. غير ممكن. آسف.

- أنت متزوّج، وتحشي أن تزورك امرأة في بيتك. أليس كذلك؟

وتمنيت لو يقول: أنا لست متزوّجاً. غير أنه راوغ، على طريقي:

«متزوّج أو غير متزوّج، غير مهمّ. المهم...» وسكت.

وبقيت صامته أنتظر انتهاءه من تردّده. وإذا هو يقول: «وما

عنوانك؟ وما رقم تلفونك؟»

فأملت عليه عنوان المكتب ورقم هاتفه. وأفهمته كيف يأتي إلى

العمارة التي أنا فيها، ويصعد إلى الطابق الرابع، ورجوت أن يواتيه

الحظم ويكون المصعد شغلاً، ويتجه نحو الباب الثالث إلى اليسار إلى آخره، إلى آخره.

توقفت عن الطبع، وقرأت ما طبعت على الورقتين، وأنا أتلهذ بشيطة فتاة ترتب مقلباً لا تعرف نتائجها. وسألت نفسي: ولكن هذا الكاتب الكبير، هل يُعقل أنه سيأتي راكضاً إلى سراب، كما قال؟ أنا، كفتاة تريد الخروج من وضعٍ ما، وتجد تسليّة في مكبر بريء؟)، قد أنخيل أن كل شيء ممكن. ولكن، هل كل شيء ممكن فعلاً، وبهذه البساطة؟ فلاصّح الوضع.

أدخلت ورقة أخرى في الطابعة، واستأنفت الدق على المفاتيح. بعد أقل من نصف ساعة، رنّ جرس التلفون. فرفعت الساعة: - هلو.

- الألسة، أو السيدة، سراب؟

- نعم. الأستاذ نائل؟

- عرفني؟

- طبعاً. أنا في الانتظار.

- أردت التأكد من أن الرقم الذي أعطيتني ليس خدعة.

- اطمأنت إذن؟

- نعم، ولكنني آسف. لن أستطيع المجيء.

- أنا آسفة أيضاً. هل الوقت غير ملائم؟

- لا الوقت ملائم، ولا المكان ملائم. ولا الوضع ملائم.

- آسفة، آسفة جداً.

وفي الحال تغيرت نبرة صوته: «هل أنت... جميلة؟»
- أخرجتني، أستاذ. هل وجدت من يقول إن لبنه حامض.
- أو أن زيتة عكر؟
- بالضبط.

- إذن أنت، في ظنك الأقل، جميلة؟
- عليك أن تجازف، فتعرف. ولكن، اسمع... من قال إن كوني
جميلة أو غير جميلة أمر وارد في محاورتي لك؟ كنت أحسب أن الذي
سيهمك هو: هل أنا ذكية، أو مثقفة، أو فنانة، أو شاعرة، أو آية
مزية أخرى. خيبت ظني!

- طيب، طيب. سأجازف. ولكن ليس هذا الصباح.
- عصر اليوم، ربما؟
- سراب، هذا إلحاح ما كنت أتوقعه.
- آسفة. إنني امرأة منهورة. الحق معك. انس كل شيء. سأعود
إلى «المرايا». مع السلامة.

وأقفلت التلفون قبل أن أسمع الجواب. وضحكت. وأخرجت
سيكارة أشعلتها على مهل، ورحت أدخن، وليظن ما شاء له هواه أن
يظن. ولكن قبل أن أنتهي من سيكاري، رنّ التلفون ثانية. فرفعت
السماعة وأنا واثقة من أن المتحدث سيكون هو.

وصدق ظني. لقد أوقعتني في «الفخ»، وسأراه الآن يتلوى فيه. قال
مباثراً: «أريد أن أقول لك إن من عاداتي أن أحكم على الناس من
أصواتهم. ولكنني، حتى الآن، عاجز عن الحكم عليك من
صوتك.»

- أنعني، لم يعجبك صوتي؟
- لا. أعني، لم أسمعك بما يكفي.
- أتريدني أن أتكلّم أكثر مما تكلمت؟
- نعم.

- إذا كان حديثي معك أمس، وحديثي معك مرّتين اليوم، وحديثي الآن للمرّة الرابعة، غير كافٍ لإسعافك في التوصل إلى حكم ما - وأنا لم أقصد في الأصل إلاّ التحدّث إليك عن كتبك، وبخاصّة كتابك الأخير - فأنت لست في الأغلب الرجل الذي تصوّرتَه مما قرأته لك. ألا يكفيك ما سمعت من صوتي؟ أم أنك تتوقّع مني أن أغني أيضاً؟

وإذا هو يجيب: «لا، لا حاجة لذلك. فصوتك أصلاً أشبه بالغناء.»

- صحيح؟ أم أنك تسخر؟
- صوتك غناء صرف. سجّلي هذا الاعتراف عليّ.
- إذن سأكفّ عن الغناء فوراً. باي باي.
ومرّة أخرى فاجأته بإقفال التلفون.

توقّفت عن الطبع، وأعدت قراءة ما طبعت. وفي الحال عادت أصابعي إلى النقر على الطابعة:

(أفتح قوساً هنا لأعترف: يخطر لي أن ما كتبه أمس واليوم ما هو إلاّ سيناريو لعلاقة أتمنى لو تتحقّق. ولماذا لا تتحقّق علاقة كهذه مع رجل كنائيل عمران، وهو البارِع في اختلاق سيناريو بعد آخر لعلاقات معقّدة ومتشابكة بين رجاله ونسائه؟ ولكنه في ما يكتبه

يكثفي بإسقاط خيالاته وتغنياته، أو بإعادة تركيب ذكرياته، ولا يبحث عن تجسيد جديد، أو تجسيد معاد، لما يكتب. لعبته في الأغلب ذهنية صرف، ومتعته كذلك ذهنية صرف. إنه يحلم وهو يقظ، ناسجاً معاً الممكن واللاممكن، المحتمل والمستحيل، على هواه، وقد يعيش زمناً في داخل ما ينسج، كما في داخل «مراياه». ولكنه في النهاية لم يقابل أحداً، ولم تعشقه امرأة، ولم يترصد له قاتل، ولم ينفذ مأرباً في بلد غريب - كما زعم أنه فعل في «المراياه» على لسان راويته. أمّا أنا، فليس هذا ما أريد. واضح أنني لست أكتب رواية، كما حاولت في السابق أكثر من مرة. إنني الآن أضع مخططاً قابلاً للتنفيذ، سواء نُفذ أم لم يُنفذ. أليس الأفضل أن أكتفي بكتابة رواية، أحلم فيها على هواي مثل أي رواي، وأوفر على نفسي إشكالات التعامل الفيزيائي مع الآخرين؟ إذن، هذه الكتابات لا ضرورة لها: ما عليّ إلا أن استسلم لأحلام البقطة كأي فتاة أخرى، فأكون عادية كأي فتاة أخرى، وكأي فتاة أخرى لا أعرف من المعاناة، ولا أذوق من المتعة، إلا ما يعرض طارئاً، سخيلاً، باهتاً، كل يوم. ولتبقِ سراب في محنتها، ولتتحطم تحت الضغوط العاجلة والأجلة التي رضيت بها.

لا! سأستمر في السيناريو... إنني لا أكتب رواية. إنني أضع مخططاً، وقد أبحث عن طريقة لتنفيذه. كل ما أحاجه هو الوقت، والإرادة. شيء من الأنأة، والصبر، والسيطرة على اندفاعاتي، وتساؤلاتي. ولم لا أتساءل، كأني إنسان في هذا العصر، أو، كما يقول نائل عمران في روايته، كأني مخلوق يرى التاريخ حوله يتشكل على نحو لا يستطيع متابعته: ما الذي بإمكانني أن أعرفه؟ ما الذي أرغب فيه؟ ما الذي عليّ أن أفعله؟ وهل بين هذه الأسئلة علاقات أستطيع

تحديد لها وفهمها كامرأة شابة هي جزء من مجتمع معين، في زمن معين، في مناخ معين؟ المعرفة، هل هي تؤدي إلى الرغبة؟ وهل تؤدي المعرفة مع الرغبة إلى الفعل؟ المعرفة، الرغبة، الفعل: هل هذا ثلاث أنوي، أم هو اجتماعي؟ هل توحد الأنا بين المعرفة، مهما بهظ ثمنها، وبين الرغبة، مهما أتت بالألم، وبين الفعل، مهما كان مخاطرة؟ أم أن المجتمع سينظم العلاقات بينها جميعاً، ويدخلها، وربما في النهاية يجمعها، لكي يوحى بتوحيدها، وهو في الواقع يوهنها حتى التلاشي؟ حسبي أن أضع تساؤلاتي في نطاق جماعي حتى أراها تتخذ صيغاً تتبعد عن همّي الحقيقي الأول: المعرفة، عقلاً وبالتجربة؛ الرغبة وهي الترقى إلى التداخل في الآخر؛ الفعل، وهو الحركة التي تكشف الصلة بين حواسي والكون... وهنا أغلق القوس).

انتهت إلى نفسي وأنا أجابه الآلة الكاتبة، وقد تدلّت منها ورقة انحنت إلى الوراء، وما زال فيها بعض الفراغ. فطبعت في سطر جديد مرة أخرى:

«الصلة بين حواسي والكون.»

وتمنّعت في الكلمات. هل عثرت على كشف مهم؟ سحبت الورقة، أضفتها إلى الأوراق الأخرى، ووضعتها جميعاً في الإضبارة البلاستيكية الزرقاء، وقذفت بها في الدرج.

تناولت إضبارة رسائل العمل التي كانت قد عادت إليّ من مكتب المدير، وقد أشرّ بعض أسطرها، وعلّق على هامشها، ورتبت الأوراق بحيث أستطيع أن أركّز ذهني على كتابة الأجوبة المطلوبة

بالعربية، بشكل مسودّة يطلع عليها المدير، ويغير فيها ما يريد،
ليعيدها إليّ، فأضعها في صياغتها العربية النهائية، وأترجم إلى
الإنكليزية منها ما يقتضي إرساله إلى الأقطار غير العربية.

فرغت من قراءة «الدخول في المرايا» بعد يومين أو ثلاثة، ووجدت
نفسي مسكونة بخواطر لا أقوى على إزاحتها من ذهني. لم أعد إلى
أوراقي لبضعة أيام، إذ وجدت أنني لا أستطيع أن أجابه بالكلمات ما
كان يمرق من خلال رأسي مروق خيول هوجاء ما تكاد تُرى حتى
تختفي في زويدة من الغبار. كل شيء غبار. كل ما حولي غبار. كل
ما في داخلي غبار. أمكن لكتاب واحد أن يثير هذا الضجيج كلّ في
نفسي، هذه الدوامات التي لا تستقرّ على معنى أتحكم به؟

شيء واحد كان يتكرّر، ويكاد يظهر، ويؤكد حضوره، ولكنه
ينجرف مع الزويدة والعجيج: وجه نائل عمران، أو يده، أو لعلّه
صوته، كلماته المتساقطة دونما خطة أو نسق. هل وقعت ضحية
لنصيمي، وهو ما عدده أصلاً نكتة، أو على الأكثر لعبة، بيني وبين
نفسي؟

بعد أسبوع عدت إلى أوراقتي، وقرأت «اليوميات»، أو السيناريو
المزعوم. «كل شيء ممكن، كل شيء وارد»، هكذا قلت. ففي أثناء
لقاءاتي مع أصدقائي في غضون ذلك الأسبوع، وفي أثناء زيارات
الأهل هنا وهناك، راح يلزمني إحساس لحوج بأنني للتوجّث من
زيارة صديقي الموهوم، أو أنني سأذهب للتوّ إليه. كأنني في حلم واعٍ.

لا ينقطع . في الليل كنت أرى أحلاماً لا علاقة لها بما أنا فيه . بعضها أحلام مرعبة : أدخل أنفاقاً تنتهي إلى مياه موحلة ؛ أنا في سيارتي أصعد جبلاً يؤدي إلى جبل يؤدي إلى واد ، وإذا أنا في أسواق المدينة المزدهجة بين أناس يدفعونني إلى الحائط ، يجرّون شعري ويختطفون حقيقتي من يدي . ولكنني في اليقظة أفكّر في أمور أخرى : أدخل المرايا ، والتقي رجلاً رأيت صورته في المجلّات ، ولا أعرف له عمراً . ونحن في حوار متواصل . حول الذات ، حول المعرفة ، حول الرغبة ، حول الفعل . ربما حول الحب أيضاً . حوار حول الكينونة . حول الحصار . حول الحرب . المواجهة . الصراع . ثم عودة إلى المعرفة : هل المعرفة حسّية أم عقلية ؟ والرغبة : هل هي في الجسد ، في الأعضاء ، أم هي في القلب ، في الروح ؟ والفعل : كيف يبدأ ، وكيف يجري ، وإلى أين ؟

قرّرت أن أعود إلى كتاباتي مرّة أخرى . وسأحاول السيطرة على ما أكتب هذه المرّة ، بإقحام وعي في كل ما يعنّي لي تلقائياً ، من ناحية ، وفي كل ما يحدث لي فعلاً كل يوم ، من ناحية أخرى .

وتوصّلت إلى أن يومياتي يجب أن تُجمل في صنفين ، سوف أسميهما ، ببساطة ، ألف ، وباء . وخطر لي أن أسميهما خ (خيال) وح (حقيقة) ، ولكن تشابه الحرفين شكلاً جعلني أفضل التسمية الأولى : ألف ، وباء . فتكون يوميات الألف هي ما يقذفه الخيال إلى قلبي ، ويوميات الباء ما أصفه من أحداث تقع لي كل يوم مما يستحق (ولو بمقدار) أن يُسجّل .

وتنبّهت في الحال إلى أن «ألف» ستكون أغزر، وأمتع، بل وأخطر، من «باء». ولذا فإن عليّ ألا أفسد على نفسي في التفريق بين الاثنين، فأمازج بينهما أحياناً. ولكن بحذر. وإلا، فما الفائدة من التصنيف؟ يجب أن أقاوم تزوير تجاربي. ولكن هل أستطيع حقاً أن أقول شيئاً ممتعاً عن الواقع إذا لم أتناوله بشيء من بحبوحة الخيال؟ وهل أستطيع الاستمرار في الخيال دون إدخال شيء من الواقع فيه؟ ما كنت لأحترار في الأمر، وأنا بعد في أول العملية الذهنية. المهم هو أن أبداً.

كنت على وشك الخروج من غرفتي لمجالسة والدي الذي سمعت جلبة دخوله عائداً كمعظم الأمسيات في مثل هذه الساعة من عيادته، فتستقبله أمي، وتحذّثه عن العشاء الذي سيتناوله على مائدة صغيرة أمام التلفزيون في غرفة العائلة المجاورة لغرفة الاستقبال الكبيرة، ويأتي بزجاجة البيرة من الثلاجة، مع كأسه البافارية الخاصة التي لا يستمتع بشرب البيرة إلا منها. غير أنني غيّرت رأيي، وجلست إلى المنضدة البيضاء التي رافقتني طوال سني الدراسة في الثانوية والكلية، وأخرجت مجموعة من الأوراق البيضاء، وأخذت أكتب:

ألف

كل يوم أفكر فيك. كل ليلة أفكر فيك. وأقلق عليك. وأكاد أحياناً أبكي، بدمع وبغير دمع، لأنني أجهل مصيرك. ولسبب ما أخشى عليك. وتأخذني الهواجس والمخاوف. وأراك تتحمّل عذاباً، وقسوة، وأنا التي أنوء بما تتحمّل. وأنساءل، وأنت في غمرة

المجهول، تجابه العنف، وربما الجوع، والإجهاد، هل يحميك الحب، ولو قليلاً، من الداخل؟ هل يمدّك الحب بقدر من الطاقة يسعفك عندما تخذلك قواك الأخرى؟ تصوّر، كنت أخشى أن الحب سيضعف إرادتك، وينال من قوّتك. ولكنك بسحرك حولت كل عاطفة فيك إلى نارٍ توجّع عزمك، وتزيد من دفعك...

بسرعة، ودون أن أقرأ ما كتبت، قذفت بالورقة إلى الأوراق الأخرى، ووضعتها جميعاً في الدّرج، وانطلقت نحو والديّ، وأغنية من التلفزيون تبعث في أرجاء الدار، وقلت: «هلو، بابا... تعشيت؟»

قال: «أنا في انتظارك.»

ضحكت: «إذن سموت من الجوع.»
- أدري. قطعة من الجبن تكفيك، كالعادة. وأنا طلبت إلى أمك أن تقلي لنا، لي ولك، قطعتي ستيك، مع بطاطة وطماطة وبصل. وجبة أناس يعملون ويجمعون، ولا يبخشون أن يسمنوا. أمّا شذى فتركها لمزاجها.

- بابا، أنا لا أشتهي الطعام في المساء.
- يلاً، يلاً، سراب. أعلى أبيك تسوقين هذا الكلام؟ أنت تخافين على قوامك، وستبقين على هذه الحال، إلى أن تتزوّجي.
- وبعد ذلك أنتقم، وأكل، وأكل...
- والعياذ بالله!

ونهض ضاحكاً وانجه نحو المطبخ حيث كانت أمي وشذى تهيّئان له الأكلة التي طلبها.

أنا فعدت مرة أخرى إلى غرفتي، وبى إحساس بأنني تركت فيها أمراً يجب أن أكمله، ولكنني لا أدري ما هو بالضبط. ومرة أخرى جلست إلى منضدتي البيضاء، وأخرجت الأوراق باندفاع عصبي لا أستطيع التحكم به، وكتبت ابتداء من أعلى الورقة:

باء

كل يوم أفكر فيه. كل ليلة أفكر فيه. ما معنى هذا القلق؟ وأكاد أحياناً أبكي، بدمع وبغير دمع. لأنني أجهل كل شيء عنه. ولسبب ما أخشى عليه. أم أنني أخشى منه؟ تأخذني الهواجس. أتخيلة يتعذب، فأتعذب. وأتساءل، هل يعرف الحب كما وصفه أكثر من مرة في كتبه؟ وهل يحبه حب ما من الداخل، حيث يكمن سرّ الصمود في زمن الألم؟ أم أنه مشغول بأفكار أخرى ليس للحب مكان فيها؟ أرجو ذلك! أرجو ألا تشغله أية عاطفة بشأن امرأة، سلباً أو إيجاباً، إلى أن يحين دوري معه. سأفكر فيه كتمثال من رخام لم يكمل النحات صنعه. وماكل هذا الذي أتصوره عنه، مما قرأت له، إلا المادة الخام التي سأشكّلها أنا في النهاية، فأطلق النبض في قلبه، وألهب الحس في جسده، وأعكس بذلك حكاية بغاليون مع التمثال الذي نحتته ثم وقع في غرامه...

فجأة، قلت لنفسي: غريب! أليست هذه «الباء» الحقيقية تشبه كثيراً تلك «الألف» الخيالية؟ ماذا استفدت من التفريق بين الاثنين إذن؟ عبث، عبث... هذه حالة مرضية ولا ريب. ماذا سيقول أبي إن هو علم أنني ما عدت أفرق بين ما هو حقيقي وما هو مجرد وهم؟ يجب أن أشط «بالألف» إلى حيث لا يمكن «للباء» أن تصل. وكم

كنت أتمنى العكس، فأشطّ «بالباء» إلى حيث تعجز «الألف» عن الوصول!



في مكتبي غداة اليوم التالي، شغلتني الرسائل والمراجعات والتلفونات حتى الظهيرة. وعندما خرج المدير الأستاذ شريف الترك بصحبة شريكه الأستاذ عبد الرحمن المولى (هكذا أحاطبهما، كأنهما امتداد للأستاذة الذين درست عليهم في كلية الفنون)، لم يكن قد بقي عليّ إلا ترجمة رسالتين قصيرتين، فرغت منهما على عجل، وجعلتهما في إضبارة وضعتها على مكتب المدير، ورجعت إلى غرفتي التي أحسّ دائماً أنها مملكتي الحميمة، حيث أستطيع أن أناجي نفسي، أوراقي، قهوتي، دون تدخل أو مقاطعة من أحد، فيما عدا الهاتف الذي لا مهرب منه.

وما كدت آخذ من فنجان قهوتي رشفتين حتى عاودني ذلك التفجّر الذي كان قد أصابني منذ حوالي أسبوعين، وأدركت أنني مقبلة على مغامرة جديدة مع الكلمات التي يجب أن أتلقّفها على الآلة الكاتبة وكأنها، إذا لم أفعل ذلك، ستساقط على الأرض، وتضيع. ورحت أطبع:

أمس، في حوالي الحادية عشرة ليلاً، بعد أن مللت انتظار مخابرة منه، وبعد أن غضبت لثمنّعه السخيف - ولو أنني أبرّر إحجامه بأنه خجول، أو بأنه يأبى أن يُقال عنه إنه يتحرّش بامرأة مجهولة سمع صوتهما مرة أو مرتين على الهاتف - تلفنت له - وأنا أقول مرة أخرى: فليظنّ ما شاء له الظنّ.

استمرت رنة التلفون مدة طويلة قبل أن يجيب بصوت لاهث:
«هلو، نعم؟»

قلت بنبرة بادية المرح: «هل جئت تركض إلى التلفون؟»
يبدو أنه لم يكن يتوقع سؤالاً كهذا، إذ قال: «نعم جئت مسرعاً
من غرفة أخرى.»

- ولكنك تأخرت كثيراً.
- لم أكن أريد الجواب. وتأمّلت أن ينقطع الدق. ثم غيرت
فكري... أنت سراب، صح؟ أم أنك شخص آخر؟
- هل كنت تتوقع شخصاً آخر، امرأة أخرى؟
- عندما أكتب، أغرق. وأحياناً لا أنتبه لجرس التلفون حتى
اللحظة الأخيرة.

- إذن كنت نكتب؟

وهنا، على الطرف البعيد من أسلاك طولها عشرات الكيلومترات،
شعرت أنه يريد السيطرة على الموقف قبل أن أتحمّك أنا به. قال:
«نعم، كنت أكتب. وإذا سألتني ما الذي كنت أكتب، أجبت إنني
كنت أكتب عنك، عن فتاة تدّعي أن اسمها سراب. لها شعر أسود
طويل تسدله على كتفها كستارة الليل يسدها الله على النهار مرة كل
اثنتي عشرة ساعة، ولكن سراب تسدها كل ثانية من ثواني الصباح
والظهر والمساء... ما لون شعرك؟ هل هو أسود؟ وهل هو حقاً
طويل، وسابل على كتفك وظهرك، كأغصان الصفصاف المنهمرة
على ضفاف النهر؟»

- رائع! تقول هذا كله وأنت لم ترني بعد.

- أقول هذا كله لأنني بالضغط لم أرك. من قال إنك لست عجوزاً شمطاء تلسين باروكة من باريس؟ أتضحكين؟
- طبعاً أضحك. لأنني فعلاً قد أكون عجوزاً شمطاء، ويدون باروكة أيضاً! تصوّر!
- والعمل؟
- الرؤية أكبر برهان.
- متى؟ متى؟ لا تقولي: هذه الليلة!
- هذه الليلة؟ يا ليت! ولكن يجب أن نكون عمليين.
- غداً صباحاً إذن؟
- غداً صباحاً. تأتي إلى المكتب كما وصفته لك. والمصعد عندنا شغال حتى الطابق الرابع.
- وماذا أفعل في مكتب تجاري لا أفهم شيئاً من معاملاته؟
- بسيطة. سنرتب توزيعاً أفضل لكتبك.
- عال! غداً صباحاً إذن. في العاشرة؟
- في الثانية عشرة، لأنني حينئذ، على الأرجح، أكون وحدي.
- وهل أنت سكرتيرة، أم مديرة، أم ماذا؟
- وماذا يهمك من ذلك؟ المهم، هل أنا عجوز شمطاء، أم فتاة تسدل شعرها كالليل على كتفيها. ألبس هذا ما قلته عني؟
- تقريباً.
- إذن تعال غداً، وتحقق بنفسك.
- اتفقنا.
- وإذا لم تأت؟
- لن يكون ذلك إلا لعائق خطير.

- ها! بدأت تخترع الأعذار منذ الآن! أنا لا أقرّ بأي عائق، خطير أو غير خطير.

- صاراً لن يمنعي عائق عن المجيء. غداً في الساعة الثانية عشرة. على أن تكوني وحدك في المكتب.

- ألا تريدني أن أحضر عدداً من الصديقات والأصدقاء ليشهدوا الحدث العظيم؟

ضحك ناثل، وقال والقهقهة ما تزال تملأ حلقة: «أنت زهية. ألا تعلمين أن أعظم الأحداث لا يشهدها إلا اثنان؟».

- الله! رائع! إذن، ستجديني وحدي في انتظارك، ولن يعرف بلقائنا أحد.

- إلا الله.

- أو الشيطان!

وضحكت معه، وتمازجت، على الأقل، ضحكائنا على الخط التلفوني. ريثما تتمازج مع أنفاسنا ذات يوم؟ لا، لا. غير مهم. غير مهم أبداً.

لم أدرك مبلغ الخطر في لعبتي أول الأمر. تصوّرتها كلعبة الشطرنج التي يلعبها لاعب واحد مع نفسه، يحرك بيادق غريمه المتخيل بأقصى ما يستطيع من براعة، ليردعه بحركة أبرع. وكنت أتذكر العبارة التي أوردتها ناثل عمران في «المرايا»، محوِّراً كلاماً عن «اليس» الأصلية: «أتريد أن تكون الملك الأحمر أم الملك الأبيض؟» سأكون الاثنين معاً، هكذا تقتضي اللعبة، وأسجل النقلات، لعلني أكتشف

إمكانات شطرنجية لم يدركها لاعب بعد، وتدعمني في الوقت نفسه شيطنة «أليس» حين أرعبت مربيتها المعجوز بأن صرخت فجأة في أذنها: «ناني! تعالي ننظahr بأنني ضبعة جائعة، وبأنك عظمة جرداء!»

غير أنني حين وجدتنني في صباح اليوم التالي في المكتب أتوقع أمراً لا أستطيع تبيّنه، ثم تبيّنت في الثانية عشرة أنني في الواقع صدقت أكذوبي، لأنني رحت فعلاً، وقلبي يشتدّ خفقانه، أنتظر مجيء نائل عمران كما حدثت في يومية أمس - فزعت. ارتعبت. كيف لو يدخل فعلاً إلى المكتب ويقول: «هل أنت السيّدة سراب عفّان؟» فأقول له: «نعم، نحن على موعد، أليس كذلك؟» وفي داخلي أقول: أنا الضبعة الجائعة، وأنت العظمة الجرداء. وقد جئت في وقتك بالضبط!

تمنيت لو أن أحداً يجيء للمراجعة أو الزيارة، تبديداً لفزعني. كان الأستاذ شريف قد خرج مبكراً، بعد أن ترك إضبارة أوراقه على منضدتي، وقال إنه سيعود، إذا انتهى من تفقّد حقل الدواجن (الذي كان قد اشتراه مؤخراً مع شريكين آخرين)، بعد الظهر بقليل. بعد الظهر! أمّا الظهر، فهو ساعة مجيء صاحب «المرايا» - الذي لن يجيء. وكان الكتاب ما يزال برافقتي في غدواتي وروحاتي (حين طلبته أُمّي لقراءته، كما وعدتها، زعمت أنني لم أفرغ منه بعد). وقرّرت أن أعود إلى الآلة الكاتبة، لأفرغ بها قلقي، فزعي، رعي. وأخرجت «المرايا» من حقيقتي، وراجعت فيها صفحة كنت قد ثنيت زاوية أعلاها، لأعلّق عليها في إحدى يومياتي. ولم تكن، فيما زعم المؤلف، من كتابته هو، لأنه يقول إنه نقلها نصاً عن كاتبة فرنسية أذهلت

القرءاء بمذكرات (حقيقة أو وهمية، غير مهم)، نسبتها المؤلفة إلى
الامبراطور الروماني هديران. وشعرت حين أعدت قراءتها، أنها تقول
بعضاً مما تمثيت لو أنني أنا التي قلته بعد أن اكتفيت من تجاربي (!) مع
البشر، ومنها سأنتقل إلى المزيد من الرأي والتعليق، قبل أن أعود إلى
يومية أخرى مع هذا الذي لا يجيء:

«... مستقبل العالم ما عاد يقلقني. ما عدت أحاول أن أحسب،
وأنا أتعذب، أطويلاً سيدوم السلام الروماني أم لا. إني أترك ذلك
للآلهة. وأنا لا أزعم أنني ازددت إيماناً بحكمة الإنسان: بل العكس
هو الصحيح. الحياة شنيعة، ونحن أدرى بذلك. ولكن بالضبط
لأنني لا أتوقع الكثير من الوضع البشري، من فترات الهناء لدى
الإنسان، من تقدّمه الجزئي، من جهوده في البدء مجدداً وإعادة
الاستمرار - فإنها كلها تبدو لي أشبه بخوارق فجائية تكاد تعوّض عن
هذه الكتلة الفظيعة من الشرور والهزائم، من الخطأ واللامبالاة.
النكبة والدمار قادمان لا محالة؛ والفوضى ستنصر، ولكن النظام
أيضاً سينصر، من حين لآخر. والكلمات الثلاث: الإنسانية،
والحرية، والعدالة، سوف تستعيد هنا وهناك المعنى الذي سعينا في
إعطائه لها. كُتبتنا لن تفتى كلها؛ ونماثلنا، إذا تحطمت، لن تبقى
ملقاةً كلها بدون ترميم. وسوف ترتفع قباب أخرى وواجهات بنائية
أخرى من حطام قبابنا وواجهاتنا. وسوف تكون هناك قلة من أناسٍ
تفكر وتعمل وتشعر كما فعلنا، وإني لأجازف في الاعتماد على مثل
هؤلاء المستمرين، وقد توزّعوا على غير ما نظام خلال القرون
القادمة، وعلى مثل هذا الضرب من الخلود المتقطع على غير ما
خطة...»

«ولسوف تكون هناك قلة من أناس تفكر وتعمل وتشعر، كما فعلنا، وإنني لأجازف في الاعتماد على مثل هؤلاء المستمرين.» أعدت تلاوة هذه العبارة بصوت عالٍ، موحية لنفسي أن ربما كنت أنا، على طريقي المتواضعة، واحدة من هذه القلة من المستمرين. وجابهت الآلة الكاتبة لأضرب أول حرف اندفعت إليه أصابعي، حين دخلت عليّ سيّدة تقاطعني بقولها:

«العفو، طرقت بابك، ولكنك فيما يبدو كنت غارقة في القراءة. هل أنت سراب؟»

قلت: «نعم». وقبل أن أسيطر على نفسي سألتها: «كم الساعة عندك، رجاء؟»

قالت: «الساعة الآن الثانية عشرة و... سبع دقائق. هل الأستاذ شريف موجود، من فضلك؟»

عندئذ عدت إلى كامل وعيي، وأغلقت الكتاب الذي بين يديّ، وتأمّلت في السيّدة المراجعة، الظاهرة الأناقة، وأجبت: «لا. الأستاذ شريف خرج. هل لديك موعد معه؟»

ويكل بساطة، قالت: «أنا زوجته.»

فأضطربت، ونهضت على قدميّ، وانطلقت نحوها والكتاب في يدي لأصافحها: «أهلاً وسهلاً. أنت السيّدة نالة إذن؟»

- أتعرفين اسمي؟

- طبعاً. فالأستاذ شريف كثيراً ما يذكرك. وأكثر من مرّة بلّغتك رسالة منه بالتلفون.

- صحيح.

- ولكن يبدو أنك نادراً ما تأتين إلى المكتب. مضى عليّ حوالي السنة منذ أن بدأت العمل، وهذه أول مرة أراك فيها. تفضّل استريح.

جلست في أحد المقعدين الوثيرين في غرفتي، وهي تقول: «شريف يذكرك بين حين وآخر. ويعتمد عليك كثيراً.»
- أرجو ألا أحيب رأيي في. فنجان قهوة؟ اسماعيل خرج كالعادة برفقة الأستاذ إلى حقل الدواجن. فاسمحي لي بدقيقتين لأغلي القهوة. و... هذا كتاب تسليّ به في هاتين الدقيقتين.
دفعت لها بكتاب «المرايا»، وأسرعت إلى المطبخ الصغير لأغلي فنجانين من القهوة.

عندما عدت بالقهوة، تناولت تالة فنجانها بيد، والكتاب ما يزال باليد الأخرى، قائلة: «سألتني عن الساعة عند دخولي. هل أنت على موعد مع أحد العملاء؟»

عدت إلى مقعدي خلف المنضدة، والقهوة بيدي. وقلت: «تقريباً... كان أحدهم قد تلفن أمس ليتأكد من عنوان المكتب، وقال إنه سيراجعنا في الساعة الثانية عشرة اليوم. في الواقع، أنا التي حدّدت له الساعة. فلمّا رأيتك تدخلين... العفوا! انتبهت إلى أن الكتاب ما يزال في حضنها، وقمت لأستعيده منها. فقالت وهي تمدّ يدها بالكتاب إليّ: «أيعجبك نائل عمران؟ أعني في رواياته...»

- جدّاً. وهذه الرواية من أجمل ما كتب. هل قرأتها؟

- لم أقرأها بعد. لديّ نسخة مهداة من المؤلّف.

- أتعرفينه؟ أعني، شخصياً؟

صمتت لحظة، بعد أن عدت إلى مقعدي، ورشفت قهوتي،
وقالت: «إنه صديق حميم. من أصدقاء العائلة.»

فهتفت: «معقول؟»

- ولم لا؟

- أقصد، شيء رائع أن يكون هذا الكاتب الكبير صديقكم.

- لكنه شديد العزلة. نكاد لا نراه هذه الأيام، إلا نادراً.

- مشغول بكتاباته؟

- لست أدري. ولكنه صديق عزيز.

- رائع، رائع.

لا شك أنها دهشت لرؤية فعلي القوية. وعدت لأتأمل وجهها:
تقارب الأربعين، خفيفة التظليل الأزرق على الجفنين، ومحددة
الكحل حول العينين، مما يجعلها تبدو كبيرتين ساطعتين. شعرها
كستنائي مسرّج، لا شعرة فيه نابية عن مكانها؛ فجزمت بأنها خرجت
قبل نصف ساعة من عند الحلاق. وهي ترتدي بدلة «كوستوم» من
الكتّان، ممشية اللون، تلبس سترتها على قميص أخضر عميق
العنق، وعلى صدرها يتدلّى من قلادة دقيقة قرآن ذهبي صغير، مع
قلادة ذهبية دقيقة أخرى تحمل حرف T في دائرة. ولاحظت أن كلتا
يديها تتحلّى بالخواتم، وأن أظافرها مصبوغة بالأحمر الوردية. ولما
وضعت ساقاً على ساق، كان واضحاً أن حذاءها إيطالي، ثمين. لقد
كانت بحق «سيّدة»، ليدي، لها حضورها، مليئة بالثقة بنفسها،
ويكونها زوجة ربّ العمل. وإذا ضحكت، كما لاحظت فيما بعد،
افتّرت شفتاها الرقيقتان المحمرّتان بالروج عن أسنان شديدة البريق.

كانت ضحكاتها جميلة بصورة تلفت النظر، عندما علقت: «يبدو أنك
ماخوذة بالأستاذ نائل. هل التقيت به؟»

- أبداً. ولا أظنني سألتقي به.

تمنيت لو تكذب ظني، ولكنها لم تفعل. وكثرت: «إنه شديد
العزلة. لم يكن كذلك حتى ما قبل بضع سنوات.»

وتشاطرت، قائلة: «بسبب حدث جرى له؟ مأساة ما؟»

تجهمت لحظة، وهزت رأسها: «نعم. مأساة...» وصمتت. لم
تشأ أن تستمر في الموضوع، وسألتني: «هل تتوقعين أن يعود شريف
قريباً؟»

- في غضون ساعة، إذا جاء. هكذا قال قبل خروجه. أتودين أن
تنتظريه في غرفته؟

- لا، لا. كنت مارة من هنا، فقلت أزور المكتب.

قامت، فقامت لها، وأقبلت عليّ بلطف لتصافحني مودعة: «أخيراً
رأيتك! وأنا سعيدة بلقائك... تعرفين أن مشروع الدواجن، لي فيه
حصّة لا بأس بها. لعلني أضطرّ إلى المجيء هنا بين حين وآخر،
فلنتقي.»

«رائع، مدام نالة!» قلت ذلك وأنا أرافقها إلى الباب. وخرجت
معهما إلى الرواق، وأنا أنظر في عينيها الواسعتين، عسى أن أرى
صورة نائل عمران فيها. ولكنها كانت حذرة جداً، ولطيفة جداً، وما
وعدت بشيء له علاقة بنائل. وسرت معها حتى باب المصعد
القريب.

قلت، وأنا أضغط الزرّ، مشيرة إلى الأصص البيضاء ومتسلّقاتها التي في البرواق: «ما رأيك بهذه النباتات؟ أدوّخ اسماعيل كل يوم بضرورة سقيها، وتعرضها للشمس بين يوم ويوم.»

وأهدتني ضحككتها البرّاقة مرّة أخرى: «لولاك، لما رأى هذا الرواق غصناً أخضر.»
- شكراً. مع السلامة.
وابتلعها المصعد.

أما أنا فعدت بسرعة إلى طابعتي قبل أن تغادرني انفعالاتي الساخنة، ورحت أنخبط على المفاتيح:

«مع كل احترامي للأمبراطور، فإن مستقبل العالم يقلقني، يقلقني جداً، أكثر مما يقلقني مستقبل حقل الدواجن. لحقل الدواجن من يقلق عليه - ربّ العمل، زوجته، شركاؤه. والريح فيه مضمون لهم جميعاً. أمّا العالم، فإذا لم نقلق نحن عليه، إذا لم أقلق أنا عليه، فمن يقلق؟ أمّا الريح فليس مضموناً لأحد. لا بأس. لكم أنتم حقلكم وأرباحه؛ ولي أنا العالم، مستقبله، وخسائره. سراب! بدأت تغارين من السيّدة تالة، من قوامها، من جاهها، من أناقتها، من كون نائل عمران أحد أصدقائها، من امتلاكها نصف مزرعة كبيرة بطولها وعرضها وآلاف الفراخ التي تفقس فيها كل يوم كالدود... مستقبل العالم؟ تأملي فيه ما شئت. اقلقي عليه ما شئت. سينزلق من بين أصابعك انزلاق هذه الكلمات على الآلة الكاتبة.

«الحياة شنيعة، ونحن أدرى بذلك. ولكن بالضبط لأنني لا أتوقّع الكثير من الوضع البشري، من فترات الهناء لدى الإنسان...» فإن

كل بارقة من تجربة مثيرة هي معجزة صغيرة أخرى في سبيل التعويض
«عن هذه الكتلة الفظيعة من الشرور والمزائم، من الخطأ
واللامبالاة». وذاثرتي جاءتني ببارقة مثيرة: إنها تشع بشيء لا أستطيع
وضع إصبعي عليه، له علاقة بهذا الكاتب الذي يهديها كتابه، ولا
تقرأه. ربما لأنها لا تحتاج إلى قراءته، لأنها تعرف كيف يفكر مؤلفه،
وكيف يتكلم. لم لم تحدّثني عن «مأساة» نائل عمران؟ فيم هذا
التمنّع؟ أنا غريبة، بالطبع، وهي لن تدخلني في النطاق الحميم الذي
ترفض أن تتيحه لامرأة أخرى يجب أن تبقى غريبة... هل أنا التي
أغار، أم هي التي غارت حين استشفّت من حرارة زائدة في ما
قلت، على قلة ما قلت؟... وهل لي أن أتوقع الكثير من الوضع
البشري، من فترات الهناء لدى الإنسان؟ أيّ فترات، وأيّ هناء؟»



رُكِبَت ورقة أخرى في الآلة الكاتبة، واستأنفت الطبع:

عطفاً على ما كتبت أمس. أصابني الملح هذا الصباح من أن نائل
عمران سيأتي فعلاً إلى المكتب حسب الموعد الذي ضربته له. وقرّرت
إرجاء هذا اللقاء الذي بات يشغلني أمره كأنه قضية حياة أو موت -
أراني هذه الأيام أبالغ في كل شيء. فتلفت له حوالي الساعة
التاسعة. لم أجده في مكانه. تلفنت في الحادية عشرة مرّة أخرى.
أردت أن أقول له: لست أعرف شكلك الحقيقي، رغم كل الصور
التي تنشرها لك الصحف والمجلات. ولسوف تكون خيبي قاتلة،
أجل قاتلة، إن أنا وجدتك في واقعك دميماً، أو ثقيلاً، أو صقيعاً،
بحيث لا أريد أن أراك أو أسمعك مرّة أخرى، فتفسد عليّ هذه

«اللقاءات» الهاتفية التي يبدو، حتى الآن، أنها ممتعة، وتكاد توحى إلى بأن ثمة هناءً ممكناً للإنسان ولو على فترات، حسبما أوردت أنت فيما نقلت عن مذكرات هديران. أرجوك، إذن، لا تنجيء إليّ. أرجوك، ابق صوتاً على الهاتف، ولا تتجسّد. وعلى فكرة، أنت الذي تكثّر من استعمال هذه الكلمة، تتجسّد، كأنك تحاول دائماً أن تحوّل الروح إلى لحم ودم، أو أن تنحت من الهواء تمثالاً من حجر...

كنت طوال الليل أهيم نفسي لأحدثه بكلام من هذا القبيل، ولكنني لم أستطع الانصال به. وعلى كل لم أسدل شعري على كتفي، كما كنت نويت. فلعلّه لا يجيء.

وفي الساعة الثانية عشرة بالضبط، جاء.

لا! لم أكن أتوقّع رجلاً بهذه «المهابة» وهذه «الرصانة»! يلبس بدلة صيفية فاقعة اللون، بقميص أزرق فاتح ورباط كحلي، والبياض ظاهر في فؤديه. كدت أكرهه في الثواني الأولى من دخوله. وقرّرت على الفور أن أعقّد عليه الأمر.

بادرته، وقد نهضت إلى لقاءه (مهابته تجبر الإنسان على القيام له، ما العمل؟) وقلت: «الأستاذ نائل عمران، أليس كذلك؟» ومددت له يدي.

أجاب مصافحاً بقبضة لا تخلو من قوّة شعرت أن يدي تلاشت

فيها: «نعم، الأنسة سراب؟»

- أسفة جداً. أنا رندة الجوزي.

- ولكن الأنسة سراب، هل هي موجودة؟

- طبعاً، طبعاً.

- أأستطيع أن أراها؟

- آسفة، أستاذ. خرجت بواجب اضطراري. فأوصتني بالترحيب

بك، ريثما تعود.

وفجأة تساءلت: هل يقدر من مكالماتنا التلفونية أن يحزر أن صوتي هو صوت سراب؟ قطعاً لا. فالأصوات على الهاتف تختلف عنها في الواقع - إذا غضضنا عن طريقة الكلام - إلى أن يتعود عليها المرء. أما الحظائر الأخرى، فأقلقني أكثر: ماذا لو رفض أن يبقى «ريثما تعود» سراب؟ إنه أشدّ وسامة مما توقّعت، وأردت له أن يبقى.

وقد كاد يعود من حيث أتى، لولا أنني تداركت الأمر، حين أدعى أنه مستعجل، وأنه أوقف سيارته في مكان ممنوع سيؤدي به إلى دفع غرامة إن هو لم يرجع إليها في الحال، فقلت: «دقائق، وتأتي سراب. أنا متأكّدة. تفضّل، واجلس. فنجان قهوة؟ دقيقة! وإذا اضطررت إلى دفع غرامة عن وقوف السيارة، سنجعل سراب تدفع نصفها...»

- بل كلّها، بالكامل، ولكن إذا جاءت في مدّة معقولة، غفرت لها. بيني وبينك، أدخلت سيارتي في المرآب.

- إذن، المشكلة حُلّت. والآن، القهوة. عندي هنا «تيرموس» فيه نسكافيه. ما رأيك؟

- موافق.

صببت له كأساً من النسكافيه، والبخار يتصاعد منها، وسألته بمشاكسة: «أخبرتني سراب أنك مؤلّف. هل تريد أن تهجر التأليف

وتدخل مضاربات السوق؟»

دُهِشَ جداً، وقال: «آية مضاربات؟»

- العفو! سراب، كما تعلم، عضو في هذه المؤسسة التجارية.
والذي فهمته منها أنك تريد المساهمة فيها.

- العياذ بالله! أنا في غنى عن مثل هذه التجارة.

- ولكن لعلها أفيدُ من كتابة الكتب؟

- أنا لا تهمني الفائدة التي يبالك، ويبدو أنني لم أصنع لها. أما
متعة الكتابة -

- آه، أنتم الكتاب! تبحثون عن المتعة قبل كل شيء!

- تعويضاً عن الخسائر التي لا مهرب منها، يا آنسة رنده. ثم
أخبريني، هل أنت زميلة سراب؟ لا أرى في هذه الغرفة غير منضدة
واحدة.

- هذه غرفتي أنا. أما سراب فلها غرفتها في الداخل. لك أن
تقول إنني سكرتيرتها.

- يظهر أنها متقدمة في العمر؟

هتفت: «لا، لا، أبدأ!» دُعِرت، وما كنت لأوحي إليه بمثل تلك
الفكرة المخيفة، فأضفت: «هي من عمري بالضبط. ست عشرون
سنة. كنا معاً في الدراسة في الكلية. لكنها أشطر مني.» وهنا
خففت صوتي، كأنني أُسرّ له بما لا يحسن بالشخص أن يكشف عنه
لغريب: «و... أغنى. أغنى مني بكثير. ألم تسمع بأبيها، الحاج علي
عفان؟»

وبكل براءة قال المسكين: لا، فأنا لا علاقة لي بعالم التجارة
والصناعة.

- لعلك تريد أن تتعرف ببعض نواحي هذا العالم الذي يعيش به
اقتصاد البلد، لتكتب عنه؟

فضحك وهو يضع عنه كأس النسكافيه على المائدة الجانبية:
«بصراحة، أنا لا يهمني عالمكم هذا في شيء. لا هو بحاجة إليّ، ولا
أنا بحاجة إليه. ولا يهمني أن أكتب عنه.»

زيادة في المشاكسة، سألته: «إذن، عن ماذا تكتب؟ عن السياسة؟
عن الحب؟ عن الجريمة؟ حدثني سراب عنك، ولكنها لم تعرني كتاباً
من كتبك.»

- يبدو أنك لست من النوع الذي يقرأ الكتب. فقيم العناء؟

- ألا تريد أن تكتسب قارئاً جديداً؟

فقال جازماً: «ما عاد ذلك يهمني.»

- لو كنت كاتبة مثلك لقتلت نفسي استقطاباً للمزيد من القراء.

- لو كنت كاتبة مثلي لما احتجت إلى قتل نفسك استقطاباً
لقارئ، ولكنك قد تحتاجين إلى قتل نفسك بحثاً عن موضوع
يثيرك - يثيرك ذهنًا، وخيالًا، وأكاد أقول جسداً.

- أصبت، أستاذ. الموضوع هو المهم. واليوم، هذا الصباح، بل
قبل أقل من ساعة، حدث شيء في هذه الغرفة بالذات، لو كنت
روائية، لكتبت عنه، مع شيء من توابل الخيال، ما قد توافق عليه حتى
أنت.

لمحت أنه نظر إلى ساعته خلصةً، مستبظاً ولا ريب رجوع سراب
المزعوم، غير أنه - هكذا شعرت - لم يكن رافضاً فرصة المزيد من

مجالستي وحديثي . آه، هؤلاء الرجال! سراب، رنـدة، تالة، ما الفرق إذا كان في كل منهم ما يثير الذهن، والخيال، والجسد؟ فسألني: «ما هذا الشيء الخطير الذي حدث؟»

مكرت معه، مستمتعةً بتكرار المكر معه (لا بد أن هذا النوع من العبث عرض من أعراض الحب؟): «لا أريد أن أؤخرُك. يظهر أن سراب أخطأت في تقدير الوقت. فهي قد تتأخر أكثر مما حسبت.»
- لا بأس، لا بأس. أخبريني عن الشيء الخطير الذي حدث هنا هذا الصباح.

- السيدة تالة شريف الترك، نعرفها ولا شك؟ جاءت لزيارة زوجها هذا الصباح، ولم تجده. فجلسنا معاً نتحدث. وجاء ذكرك. وتحدثتُ عنك بحرارة. قالت إنك صديق حميم.

فاستضحك كأن الأمر أقل من أن يشير فضوله. «صديق، حميم، وقديم. وهل شريف الترك أيضاً من أصحاب هذه المؤسسة؟ أين الموضوع المثير في ذلك؟»

- الثالوث الروائي: الزوج والزوجة والعشيق. وما عليّ إلا أن أدخل فيه عنصراً رابعاً ليبدأ الموضوع بالتحرك: سراب.
تظاهر بالبراءة، سائلاً: «سراب؟ كيف؟»
- العاشقة الجديدة.

استمرّ بتظاهره: «عاشقة من؟ عاشقة الزوج؟»
- لا، عاشقة العشيق. فتصبح اللعبة هكذا: الزوج يغيظ زوجته، حين يكتشف أنها تحب صديقه، فيكشف لها أنه يحب فتاة

شابة في نصف عمرها. لا تهتم الزوجة بالطبع، لأن لها عشيقها، وإذا بها تكتشف أن الفتاة الشابة تعشق عشيقها هي...
وتخذ مشاكل! قد تبلغ حدّ القتل!

- خيالك نشيط، آنسة رنده، وبحرية مفرطة.

- ولكن أين الموهبة، أستاذ نائل؟ ثم إن هذه المواضيع يندر وقوعها في مجتمعنا.

- ولكن النادر هو المثير. إنه أول الدخول في منطقة المحرمات.

- لا، لا. أنا لا أفهم هذه الأمور وخفاياها.

- ولا أنا، والحمد لله... يؤسفني أن عليّ أن أذهب.

نهض، واقترب من متصدي ليودّعي. فنهضت لأرافقه إلى الباب: «هذه سراب! دوّختني بالحديث عنك، بتوقعها زيارتك، وإذا هي تسمح لنفسها بالانشغال في الساعة الغلط! أرجو أن أكون قد عوّضت، ولو قليلاً، عن غيابها، أستاذ نائل؟»

- رنده! هل تريد أن تكوني العنصر الخامس في قصّتك؟

بدأ الموضوع يسرع بالتحرك. لماذا لا تكتين هذا كله؟

- أين الموهبة، كما قلت لك، أين الموهبة؟

حين مدّ يده لمضافتي، كدت أقع بين ذراعيه. هذا الرجل أعجبت به من كتبه، وجاء نزولاً عند إلحاحي، فلماذا تفلسفت ومكرت معه؟ ولكنني خشيت افتضاح المكر، ودست على رغبتني - إلى أن أجد طريقة للخروج مما أوقعت فيه نفسي - وبقيت مكرهة على رزائقي، وأنا أقول عند الباب: «مع السلامة». سأعفّ سراب على تأخرها. ستخابرك لتعتذر، ما من شك. وأرجو أن تتكرم بزيارتنا

مرة ثانية، لعلنا نيسر لك المساهمة في حقل الدواجن الكبير الذي نحن الآن بصدد توسيعه؟

بعد يومين أو ثلاثة عدت إلى ملفي الأزرق، وقرأت الأوراق الأخيرة، وأنا أضحك، وأفكر في التفاصيل الصغيرة التي قد أضيفها هنا وهناك لضبط اللعبة. كان واضحاً أنني ظلمت نائل، وظلمت نفسي معه، بغير ما ضرورة. فهو أصلاً تردّد كثيراً في الموافقة على المجيء إلى المكتب. فلما جاء حرّمته من لذة لقائه بالمرأة التي وقّمتها بها، وأقحمت عليه غربة لست أدري إن كان يهّمه أن يلتقي مثلها وبرزانتها. هل غضب لذلك وقرّر ألاّ يستجيب لأيّ دعوة أخرى أعرضها عليه؟ هل أبدت له رنّدة من الاهتمام ما يكفي لجعله يستجيب لها، بأيّ شكل كان، إن هي اتصلت به؟ والأهم، هل وجد في رنّدة، في ذلك اللقاء القصير، ما يثيره، كما يقول، ذهنًا، وخيالًا، وجسدًا؟ عليّ أن أكتشف ما الذي فكّر فيه بعد مغادرة المكتب، وعليّ كذلك أن أتدارك الموقف لئلاّ تتعثر اللعبة وهي بعد في مطلعها.

حالما فرغت من أوراق المكتب، وخرج الأستاذ شريف والأستاذ عبد الرحمن إلى مكتبهما الآخر، جلست إلى طابعتي، إكمالاً لما سبق: أمهلته حوالي ساعة من الزمن، يكون فيها على الأرجح قد ذهب إلى بيته للغداء، ثم صلّبت أعصابي، وتنحنحت، وتلفنت إليه. ولكي أؤكد لنفسي، وله، أنني الآن سراب، لا رنّدة، أرخيت شعري على كتفيّ وظهري، وقلت حالما رفع السّماءة: «أستاذ نائل،

- أنا سراب عَفان، وصلت في هذه اللحظة. وكلّي عتب عليك. »
- كان البرود ظاهراً في صوته: «أنت تعبتين؟ ماذا أقول أنا إذن؟»
- لماذا لم تنتظري؟ ألم تستطع رنّدة إشغالك ساعةً أخرى لتبقى؟
- أنا جئت لرؤيتك، لا لرؤية سكرتيرتك.
- لا بأس. هذه واحدة احسبها عليّ. ومهما يكن، فقد اكتسبت معجبة جديدة.
- معجبة لا تقرأ؟
- ولكنها خصبة الخيال بشكل مذهل.
- هكذا تبدو. وقد ورّطتنا جميعاً في حبكة خماسيّة ستحدّثك عنها.
- ولكنني في المحصلة الأخيرة، أنا المغبون.
- أنت مغبون؟ أنا المغبونة!
- أتعرفين قصّة ذلك الرجل الذي قضى عمره في التقوى والورع، يصوم ويصلي، لا يرتكب معصية ولا يقترب إثماً؟
- نعم؟
- لم يشرب خمرأ، ولم يدخن سيكارة، ولم يمَس امرأة.
- إرضاءً لربّه؟
- لكي يدخل الجنّة. عندها، في الجنّة، يرتع ويمرح، ويعوّض عن كل ما تركه طائعاً في الدنيا.
- وهل دخل الجنّة؟
- عندما حضره الموت، أصابه فجأةً هلع جديد. وقال لأهله وصحبه الجالسين حول فراشه: «يا جماعة، أنا لا أخشى الموت. ولكن الذي أخشاه هو ما بعد الموت.» فقال له أحدهم: «يا رجل،

- هذا ما يسمونه بالانكليزية «إطراء باليد اليسرى». وهي تريد
جرّ رجلك، بدون شك. ثمّ ما لي وللزواج؟
- ستأتي غداً، إذن؟
- غدائي جاهز على المائدة، وأنا جائع. فلتخاير فيما بعد.
- سأتلّفن هذه الليلة، عسى أن تكون أكثر ليناً في الليل منك في
النهار. مع السلامة.
- لحظة، لحظة...
تغيّر صوته، وكأنه فاجأ نفسه بقرار لم يكن قد فكّر فيه، وأكمل:
«غداً، في العاشرة صباحاً، سأكون في الدار وحدي. أريد منك أن
تأتي إلى الدار. وسأهَيء لك فنجان قهوة بيدي. ما رأيك؟
- إلى الدار؟ وحدك؟ وحدي؟
- وحدك طبعاً.
- بما أنها أول زيارة، وستكون وحدك، هل تمنع في اصطحابي
رندة معي؟
- لا بأس. رندة فقط، لا أعضاء المكتب كلهم.
- في العاشرة؟ وأعمالي في المؤسسة؟
- فلتذهب إلى الجحيم.
- طيّب، أستاذ نائل. سنأتي معاً بسيارتي.
- فلاشرح لك كيف تجددين الدار.
- لا حاجة. أنا أعرف أين تسكن... ماذا تظنّني كنت أفعل في
الأسهر الثلاثة الأخيرة؟
- سراب! إنك تخيفيني.

- لو ترى الملفّ الضخم الذي جمعته عنك!

- غداً إذن؟

- في العاشرة صباحاً.

كيف أذهب بصحبة رنده؟ لماذا بدرت مني هذه الفكرة الشيطانية تلقائياً مرة أخرى؟ عندما يراني غداً وافقة على عتبة داره، سيعرف في رنده: من إذن ستكون سراب؟ بإمكانني أن أصطحب אחتي شذى، وأطلب إليها أن تدعى أنها أنا، وأدخلها في مؤامرتي الصغيرة. ولكن شذى لن تتحدث معه كما اتحدّث، ولا هي تعرف شيئاً عنه، أو عن كتبه، فيما عدا ما أذكره أنا لها بين حين وحين. ثمّ إنني لا أريد كشف علاقتي به، حتى لشذى. قد أفعل ذلك فيما بعد. أمّا الآن؟

وهنا نبتت نفسي مرة أخرى إلى المنزلق الذي يبدو أنني جعلت أقع فيه كلّما جمع بي الخيال. ما عليّ إلا أن أعيد كتابة الصفحة الأخيرة، فأصحح الوضع، وأقول إنني قادمة بمفردي. وعندما أراه، أحذّثه عن المقلب البريء الذي هيّأته له عند زيارته المكتب.

أعدت قراءة ما طبعت، وكانت الساعة قد تخطّت الثانية. فلملمت أوراقى كما هي، وخرجت من المكتب بسرعة إلى المصعد، ثمّ إلى سيارتي، وأسرعت في العودة إلى البيت.

بعد الغداء، في غرفة نومي، وأنا مرتدية بيجامتي، عجزت عن القيلولة، ودماغي في اشتغال مستمرّ. فأخرجت مجموعة جديدة من الأوراق، وأنا جالسة في الفراش، ورحت أكتب.

كانت الساعة العاشرة بالضبط حين أوقفت سيارتي بمحاذاة الرصيف عند منزله الذي كثيراً ما مررت به في الأسابيع المنصرمة مؤملة أن ألقاه وهو يخرج منه، أو جالساً على شرفته - عبثاً. وإذا به هناك، جالساً وحده، ويده مجة. إنه في انتظاري.

لحني أنزل من السيارة فخرج إلى الرصيف مسرعاً في بدلته «السفاري». رأي وأنا أغلق باب السيارة، وقد رفعت شعري كما كنت رفعت يوم أمس في المكتب، ويسادني باستغراب: «رندة؟ وحدك؟ أين سراب؟»

ارتسمت الحية على وجهه، وأنا أضاحكه في محاولة لتفسير الموقف، إذ رافقته في الدخول إلى باحة الدار: «سأشرح لك الأمر، أستاذ نائل. أتدري أن هذه التويوتا التي جثت فيها هي سيارة سراب؟»

- وما الفائدة؟ أنا أريد أن أرى سراب نفسها.

- سترأها هذا الصباح.

قال بشيء من العصبية ونحن ندخل الدار: «لا، رندة. في المسألة سر. إنها لا تريدني أن أراها. ليس هناك من تفسير آخر.»

اقتادني إلى غرفة صغيرة مبطنة برفوف الكتب، وأضاف: «هل هي قبيحة إلى هذا الحد؟» وأشار إليّ بالجلوس في كرسي وثير، وجلس هو قريباً مني على طرف من الكنب المتعامدة مع الكرسي. وقلت لنفسي: خذي استحقاقك يا سراب! قبيحة، ها؟ وماذا بعد؟

افتعلت ضحكة وأنا أبحث في جزداني عن علبة السكاير

والمقدحة، وانتبه هو لذلك فأسرع باستخصار السكاير من على منضدته المكدسة بالكتب والأوراق. ولكنني كنت قد أخرجت سيكارة من علبي وأنا أقول إنني لا أدخن الصنف الذي قدّمه إليّ، لأنه يشحط حنجرتي. ثم قلت، وهو يرفع المقدحة ليشعل لي: «هل قلت قبيحة؟» وأخذت نفساً عميقاً من الدخان نفثته على مهل، وأنا أكمل: «مسيكة سراب! كانت في الكلية تعدّ من أجمل طالبات الجامعة. ويشطّ الآن بك الخيال هذا الشطط الغريب لأنها تأخّرت البارحة عن الموعد، ولأنها ستأخّر اليوم أيضاً، بعض الشيء..»

- لماذا؟

- لكثرة الأعمال، والمسؤوليات المزعجة، قل ما تشاء.

- إذن أعطتك سيارتها؟

- لكي لا أتأخّر عن الموعد. وفهمتي كيف أجعد الدار. وكدت

أتيه مرّتين.

- ما رقم الهاتف في مكتبكم؟ أريد أن أكلّمها شخصياً.

أملت عليه الرقم وهو يدير مزولة الهاتف، وأنا أتساءل في سرّي: من سيحييه؟ الأستاذ شريف، أم الأستاذ عبد الرحمن، أم الفؤاش

اسماعيل؟

قال بالسّاعة بنبرة جافّة: «الآنسة سراب عفّان، من فضلك..» وردّاً على ما سمع من جواب، قال: «غير مهمّ، شكراً. سأتصل فيما بعد..» وضع السّاعة، ووجّه كلامه إليّ: «أترين؟ إنها خرجت في شغل... وأراد الموظف أن يعرف من أنا... وبهذه المناسبة، هل هي آنسة فعلاً؟»

- لك أن تقول ذلك . ولو أن الكثيرين يخاطبونها بالسيدة .

- هل خرجت معك؟

- نعم . أوصلتها إلى مكان كان لها فيه موعد قالت إنه مهم ، وطلبت إلي أن أسبقها إليك .

- أموعد آخر؟

- موعد عمل . ألن تقدّم لي فنجان قهوة؟ أنت وحدك في البيت؟ هل تدلّني على المطبخ فأغلي القهوة لي ولك؟

ونفضت وكليّ فضول لأرى ولو بعضاً من تفاصيل المنزل الذي يقيم فيه ، والذي شغل خيالي أياماً كثيرة . ولم يرفض طلبي ، مضيفي الكريم ، الكسول ! أخذني إلى المطبخ وقال : «هنا السكر ، وهذه علبة القهوة ، وهنا الملاعق ، وهنا الفناجين . آ ، وهنا الغلاية .» وعاد إلى المكتبة .

كنت أضحك في عتي . أضحك لغضبه ، لحيته . ولكنني خُيِّت أنا أيضاً : لم لم يتبه إليّ كامراً ، كشابة ، اقتحمت عليه خلوته ، مهما كانت الأعذار؟ هل هو معصوم إلى هذا الحدّ عن الغواية ، أم أنني أنا التي لا أشعّ غوايةً تغريه؟ أم أنه مخلص لسراب التي يحسب أنه لم يرها حتى الآن ، ويخشى أن يبدي أيّ اهتمام برفيقتها ، أو سكرتيرتها ، رندة؟ هل أقول إنه اجتاز الامتحان الأول؟ ولكن ، ليس بهذه السرعة . . . لنشرب القهوة أولاً ، ثم نرى .

عندما دخلت عليه بالصينية ، وتناول فنجان ، أخذت فنجاني وأنا أقول : «سمعت ما قالته لك سراب بالتلفون» .

كان الآن أكثر هدوءاً ، حين قال : «ماذا سمعت؟ قالت أشياء

كثيرة .»

- ما له علاقة بي، من أنني سأتزوجك لو طلبت أن تتزوجني،
رغم فارق السن؟

- ولكنك لم تسمعي ما قلت لها: إن كلامك إطراء باليد اليسرى.
أي أنك أردت أن تؤكدني الشق الأخير من كلامك.

- أبداً. إنما أردت أن أوكد إعجابي، أم أقول انجذابي؟
- رندة، أنت لا تعرفين شيئاً عني. لعلك مأخوذة بكلام سراب.
والأذن قبل العين...

- محتمل جداً. ولكنها في الواقع قليلاً ما تتحدث عنك. ولو أنها،
بعد خروجك بحوالي الساعة عادت وأرادت أن تعرف مني شكلك،
طولك، لونك، ماذا كنت ترتدي، كيف تتحدث، هل أنت كثير
الجد، أم كثير المزاح... وأجملت لها الوصف بالعبارة الوحيدة التي
تفصح عن أعظم الإعجاب عند أية فتاة - وهي أن تتمناه زوجاً لها.
- كفضية مجازية، بالطبع.

- بالطبع... ها، ما رأيك بقهوتي؟
- ممتازة، رندة. هل تحسنين الطبخ أيضاً؟
- الطبخ؟ لا، آسفة. لا أستطيع أن أطبخ شيئاً. إذا اضطرتت
جداً، قد أتمكن من أن أقلي بيضتين، لا أكثر. أتري؟ كمشروع
زوجة، أنا لا أدعي أنني مشروع ناجح.

وبلمسة أخرى من عفريتي الماجن، أضفت: «وأنا أصلاً امرأة
مطلقة، منذ ثلاث سنوات.»

وأزجيت إليه نظرة امرأة مظلومة في حظيها من الحياة، قائلة: «سنة
واحدة لم يدم زواجي. سبعة أشهر بالتنام. كان خطأ شنيعاً أدركته

منذ أول يوم . ولا بأس من أن أقول لك إنني تنازلت عن صداقي المؤخر لكي استرجع حريتي .»

- وهل تصوّرين أنك حقاً استرجعت حريتك؟

- بقدر ما يمكن للإنسان أن يملك من حرية في مجتمع أسن ،

مقيّد ، لا يبرع إلا في اختراع المزيد من القيود .

- الحرية في النهاية قضية داخلية ، يا رنده . حريتك في داخلك ،

فلا تلومي المجتمع .

- سراب تقول أحياناً إنها تريد أن تطلق حريتها الداخلية . لا بدّ

أنها تأخذ أقوالاً كهذه عنك . أمّا أنا فمن سوء حظّي أنني ما زلت

أبحث عن هذه الحرية التي تتحدّثون عنها ، ولا أجدها . ولكن قل

لي ، أستاذ ناثل ، ما هي المأساة التي في حياتك ، والتي كما فهمت

تجعلك كثير العزلة؟

- مأساة؟ من أين جاءتك هذه الفكرة؟

- أسس حدّثتنا السيدة تالة الترك عن أن في حياتك مأساة

- تالة؟

- نعم .

- في حياة كل إنسان أمور لا يتحدّث عنها ، ولكنها تؤثر في غط

معيشته ، في موافقه ، في آرائه . هل تعرفين إنساناً في هذا العصر

خلت حياته من مأساة ما؟ وتالة نفسها ، لا بدّ أن في حياتها مأساة لا

تريد التحدّث عنها . والأسهل دائماً أن يتحدّث المرء عن مآسي

الآخرين .

- لا ، لا . مآسي الآخرين قلّما تشغلنا بذلك القدر . والأسهل دائماً

أن يتحدّث الإنسان عن مآسيه هو . وأنت روائي ، وأعلم بذلك .

- بالضبط. أنا روائي، وتشغلي مآسي الآخرين، محاولاً تخطي مآسائي الخاصة. ما الذي يهَمُّك أنت من مآسائي الخاصة، أصلاً؟

أحسست عندئذ أنني أعطيت رنّدة دوراً أكبر مما ينبغي. عليّ أنا، سراب عفّان، العاشقة الكبيرة التي تريد تدوين يومياتها بصدق وصراحة، أن أتصدّى لهذا الموضوع، وأنقذ رنّدة، ذاتي الأخرى، من مثل هذا التورّط في أمر لم أشأ أن تتعرّض هي له. ولكن من منّا، نحن الاثنين، هي الجادّة الموضوعية، ومن هي المازحة العابثة مع رجل تعرف أن في حياته مأساة وتريد الآن أن تنسبه إيّاها؟ غير مهم! عليّ أن أدخل على الخطّ هنا، بشكل ما، حتى، لو كان فجائياً.

قلت، خروجاً على الحديث: «أستاذ نائل، هل لي أن أطلب كأساً من الماء؟»

قال: «طبعاً، طبعاً.» ونهض مسرعاً باتجاه المطبخ.

وانطلقت أنا على الفور من المكتبة باتجاه باب مفتوح عبر ردهة المدخل، ووجدتني في غرفة جلوس فسيحة، أنيقة الأثاث، كثيرة رفوف الكتب أيضاً، ولكنها متميّزة بلوحات كبيرة، وتماثيل من خشب وبرونز، ستائر مسدلة، كأنها تصدّ ضوء النهار في الصباح المشرق عن قصد، ولكنها منارة في ركنين منها بضوئين موجّهين نحو السقف. آه، هكذا تصوّرتّه يعيش، وفي مثل هذا الجوّ يستقبل أصدقاءه وزوّاره ومريديه! ولكن عليّ ألاّ أضيّع وقتاً في الدهشة والتأمّل؛ نزعت سترتي النيليّة القصيرة بسرعة، وألقيتها على أحد الكراسي، إبرازاً لقميصي البرتقالي الحاسر عن ذراعيّ، وفككت القرّاصة التي تمسك بشعري مرفوعاً عند مؤخّر رأسي، وأسدلت شعري على كتفيّ

وظهري، مسرّحة إياه بأصابعي على أفضل ما أستطيع من غير مشط. ثمّ التقطت سترتي ورحت أطيل النظر في لوحة زرقاء فسيحة لم أفهم منها شيئاً في اضطرابي ذلك. وسمعت، وقد عاد إلى المكتبة ينادي: «رندة، أنسة رندة! رندة!» وكان ثمة صمت قصير. لعلّه ظنّ أنني ذهبت إلى الحمام، فترّيت، وأنا أنتقل بين اللوحات والكتب، في انتظار أن يبحث عني حتّى يجديني.

بعد ذلك سمعته يتحرّك في أرجاء البيت، ثمّ خيل إليّ أنه سار نحو مدخل الدار، وفتح الباب، وخرج إلى الشرفة. وتصوّرت أنه تأكّد من وجود سيارتي في مكانها، فعاد، وأغلق الباب بخبطة قوية، وصاح مرّة أخرى: «رندة!» وأنا ما زلت أتأمل محتويات صالونه الجميل، وعدت إلى التمعّن في اللوحة الزرقاء، وظهري إلى الباب. وسمعتة يخطو أخيراً نحو مدخل الصالون، ويهتف من ورائي: «الله! ما هذه الروعة السوداء!»

لم أجب، وتقصّدت عندها عدم الحركة، رافعة رأسي نحو أعلى اللوحة، وأحسست به يخطو على مهل، كأنما على رؤوس أصابعه، إلى أن بلغني، وأمسك بي من الخلف، شاداً على ذراعيّ العاريتين، وتمتم وشفته على شعري وعنقي: «من أنت يا امرأة؟»

وما كان مني إلّا أن أسقطت رأسي إلى الخلف بخصلائي المهدّلة، على صدره، ويداه ما زالتا تمسكان بذراعيّ المرتجيتين، وقد سقطت سترتي أرضاً، وأدرت وجهي ما استطعت نحو شفّتي، وهمست: «أنا سراب عقان.»

وقبل أن يفوه بكلمة دهشة أو عدم تصديق، خلّصت نفسي من

قبضتيه لكي أقف أمامه وجهاً لوجه، ناظرة في عينيه، وأنا أكاد
التصق بصدرة. وبصممت أخذ وجهي بين راحتيه، وقبلني على فمي
قبلة طويلة...

ألقيت بأوراقي عني على الأرض، وقد انتابني إعياء شديد. عدلت
من وضع وسادتي وارغمت على الفراش كالقذيفة، منبطحة على
وجهي، كأنني سقطت من سطح عمارة بأربعين طابقاً، وغرقت في
النوم حالاً - على صدره؟ لست أدري. فقد كان نوماً عميقاً، أسود،
من غير حلم. ولم أفق إلا على صوت شذى وهي تقول: «ما هذا
النوم؟ غابت الشمس! بابا خابر من العيادة ليقول إذا كنا نريد أن
نتعشى معه هذه الليلة في النادي، فلنرتب أمرنا أنا وأنت وماما،
لنكون هناك قبل التاسعة والنصف.»

لم أستوضح أين أنا أول الأمر، وشذى تتكلم، ثم أدركت أنني في
غرفة نومي، وقد أظلمت. فقلت: «نتعشى في النادي؟ لا، شذى.
ليس بي حماس للنادي هذه الليلة.»

- إذن آخذ سيارتك لأذهب مع ماما؟

- نعم، خذيها.

- أوراقت سقطت على الأرض.

- لا بأس. سأقوم الآن، والتقطها. اتركيها.

غادرتني شذى لشأنها، واستدرت نحو الوسادة، وأطبقت أجفاني،
مستسلمةً لحدٍ نصفه نوم ونصفه يقظة، محاولة أن أتذكر أين كنت
قبل لحظات. قبل لحظات؟ قبل النوم، قبل ساعتين أو أكثر. أصوات

غريبة كانت تتعالى وتنخفض في رأسي. لم أكن في المكتب. لم أكن في السيارة. لم أكن في البيت. هناك جني في داخلي يعبث بي، وأنا أدري به. حتى رندة الجوزي من اختراعه. وإذا لم أنتبه، فلإنها هي أيضاً ستتحاز إلى جانبه في العبث بي.

تذكرت الآن! كنت في بيت نائل، في صالونه الأزرق، وقد أعلنت له أخيراً أنني سراب عفان. كنت أمثل مونودراما أتلبس فيها على الأقل ثلاثة أدوار، وأتكلم بثلاثة أصوات، وأقع على صدر رجل لا أعرف من وجوده الحقيقي إلا اسمه. كلما اقتربت منه، أو اقترب مني، تدخلت رندة بيننا. إذا لم تكن من اختراع هذا الجني الماكر المزروع في دماغي، فهي إذن من اختراعي في ساعة خوف وتحسب، راضية بها ذاتاً أخرى. لا بأس. هي العاقلة، المترنة، المنطقية، وسراب هي الراضية للعقل والاتزان والمنطق. بعض الناس يطلقون في رندة، وبعضهم يطلق سراب. ويبدو أن نائل عمران يطلق الاثنين معاً - للدخول في المايا. مع نائل أجدني رندة وسراب بتعاقب سريع، وتداخل سريع، وتباعد سريع. سأعود إلى أوراقي.

مددت يدي إلى الأرض، من على فراشي، وتحسست بأطراف أصابعي ملس الأوراق المبعثرة وبرودتها. لماذا لا أكتب عن وقائعي هذه الأيام؟ ولكن أية وقائع؟ ما الذي يمكن أن أكتب، مما لم أكتبه حتى الآن، عن يوم بعد يوم من الوتيرة نفسها، من السأم نفسه، من الغثيان نفسه؟ ولكن الذاكرة والخيال: ما العالم كله إن هو قورن بهما، إذا اجتماعاً؟ فلأجعل الخيال (أ)، ولأجعل الذاكرة (ب)،

كما سبق أن قرّرت، وأكتب عن حياتي كما هي، وكما يمكن أن تكون. عند ذاك سيعني هذا أنني (أ+ ب)، أم أنني (أ×ب)؟ أفضل الأخيرة، لأنها أضعاف الأولى. إذن سأجعل معادلتني: س (ليس المجهول فقط، بل سراب نفسها) = أ×ب، أو:
س = أ ب

خلاصة ما كتبه الإنسان، وما سوف يكتبه.

ولكنني أشعر الآن، فيما كتبه حتى الآن من حكايتي مع نائل، أنني الأشطر، وربما الأذكى، بين البطلين. أنا التي أتحرك وأتكلم، وما نائل إلا «رجل القش» الذي يكتنني من الحركة والكلام. ولم لا؟ إنها قصتي أنا. لو كان كاتبها نائل، لكان هو الأشطر والأذكى، ولكنك أنا «امرأة القش»... فلأنعم بسطوتي، ما دام القلم في يدي.

ولذا، لن يصعب عليّ أن أفهمه السرّ في تحوّل رنّدة إلى سراب، في تحوّل السكرتيرة إلى المدبرة، في تحوّل الصديقة إلى العشيقة. وسندخل معاً من خلال إحدى المرايا إلى مستحيلات لم تخطر حتى على باله، وهو صاحب الخيالات المستحيلة. سنتعشّى على ضوء الشموع، ونذهب معاً إلى حفلات باذخة تضم أجمل نساء المدينة وأشهر رجالها، وسوف يتهاوس الجميع: من تكون هذه المشوقة الطول، المسترسلة الغدائر، الساحرة الضحكة، التي تتشبّث بذراعه؟ ما الذي جرى لزوجته؟ هل طلقها؟ هل هذه زوجته الجديدة، أم عشيقته؟ هل هي روائية أخرى يروّج لها رواياتها؟ وسنرحل معاً إلى باريس، ولندن، ونحضر المسرحيّات وعروض الباليه كل ليلة، وفي

عودتنا نعرّج على روما، ونبحث عن آثار أغسطس وهديان، ولا نزل إلا في فنادق النجوم الخمس - ويا بورجوازيين، طفقوا في غيظكم! وفي القاهرة سيتجمع حولنا الأدباء الشباب المتمردون، وتدنّس السلطات بينهم من يرقب حركاتنا ونزواتنا، لأننا فيما يقال عنا نشجع على الشغب ولا نكتفي برحلات السواح العاديين إلى أسوان والآقصر. وفي بغداد يطلبون إليّ أن أفتح منتدى الأدباء بقراءة إحدى قصصي القصيرة، ويصرّون بعد ذلك على سماع إحدى قصائدي أيضاً. ويلقي نائل محاضرة تسجلها عدسة التلفزيون عن تجربته الطويلة في ما كتب وما لم يكتب. وأتحدّث في عمّان عن القدس كما بتّ أراها وأحيائها من خلال ما كانت تتحدّث عنه دوماً جدّتي خديجة، مضافاً إلى دواوين وروايات أدبائها، ونرى تلال القدس البعيدة. عبر الغمام من على شرفات العمارات البيضاء العالية. وستكون لنا أسفار تتلاحق: من مدن الخليج البيضاء، المترعة بالشمس والبحر والبادية، إلى مدن المحيط البيضاء، المترعة بالشمس والبحر والصخر. وإذا كان لا بدّ من صنعاء وإن طال السفر، فلا بدّ لنا أيضاً من القيروان ووهران والرباط وطنجة وتطوان - آه ما أكثر مدننا، وما أجمل أسماؤها، وما أروع إيجاءاتها، لو أننا فقط أحرار في الترحال فيها بينها، لو أننا فقط غير مكبلين في أحيائها، لا نتحرّك إلا جيئةً وزهاباً كلّ في زقاقه كالجردان... نائل عمران! أين أنت؟ لماذا تجعلني أهذي؟ لماذا تطلق فتزاتي ورغباتي بهذه اللذة، وهذه القسوة؟ سأخونك والله إن أنت عجزت يوماً عن إثارة فتزاتي ورغباتي بهذه اللذة. ولكن بدون قسوة، أرجوك، بدون قسوة. وإلا تركت لك رندة الجوزي، بكل عقلها ومنطقها، وهربت بسرّاب عبر الوديان

السحيفة، وفوق الجبال الوعرة، إلى حيث القمم المغمورة بالضباب
والسحب، المطلّة على مدن تتوهج بين الغابات والصخور وعلى
ضفاف الأنهر الصاخبة. فأنا ما زلت أنا المطالبة بالحرية، الباحثة عن
الانعتاق والخلاص على طريقي، على طريقتك. وأرفض البقاء فأرة
أخرى بين فئران الزقاق الأبديّ نفسه، المتختم بقمامة الدهور...
نائل، اليوم الكلمة، وغداً النار...

نائل عمران

يوم بدأت بكتابة «الدخول في المرايا»، كنت في حالة يائسة من
كآبة أخذت بخناقني أشهراً متتالية بعد موت سهام، وأنا أرقب نفسي
وهي تنخبط في الطين، أريد إنقاذها ولا أستطيع.

وجاءت فجأة الكلمات الأولى من «الدخول في المرايا»، فشعرت
كأنني كنت طوال تلك الأشهر في غرفة مظلمة محكمة الإغلاق، وإذا
بشق يفتح في أعلى الجدار، ويتسرب منه شعاع سأتشبث به، فيرفعني
بشكل ما إلى حيث يتسع الشق ويغدو كوة أستطيع النفاذ منها إلى
الفضاء من جديد.

وكلمًا استمررت بالكتابة استمرّ الشقّ بالاتّسع، ودفق عليّ مزيد
من الشعاع. حتى تنفّسي صار أكثر انتظاماً، وعيناي أحَدَ بصرًا لما
حولي. لعلّني غدوت أيضاً أشدّ نسياناً، أو أن ذاكرتي باتت تنتقي ما
تقذفه إلى وعيي على نحو يقلّل الحزن، ويزيد اللامبالاة، وربما يزيد
التحرّك في اتجاه لذّة لم أستطع تحديدها، بل ما همّني أن أحدها.

وكان الدخول في المرايا «فعلاً» حركياً، حيث الأشكال تتناظر،
وتتكسر، وتساوج، تتلاشى وتتجسّد، وفق إيقاعٍ كانت كلماتي

توجد، أكاد أزعج دون إرادة مني. واتسع الشق في أعلى الحائط، وتهذمت الأجزاء المجاورة له يوماً بعد آخر، ولم يبق لي إلا أن أخطو فوق الحجارة والردم، وأنطلق. وكنت قد كتبت من الرواية عندئذ معظمها، ولم يبق علي إلا أن أنهيها بصورة ما، جاعلاً النهاية «مفتوحة» بالطبع، تأكيداً على انتصاري على تلك الكتابة التي كادت تدمرني وتقطع علاقتي بالناس والأشياء، كما فعلت في فترة عصية من حياتي في مطلع الشباب.

وكنت أعلم أن «الدخول في المرايا»، كرواية، أقرب إلى حلم يفظه فرضته علي قوة كامنة في أغوار وعيي. واتضح لي أنه كان لا بد لي من أن أنسى وفاة زوجتي، أو أن أرضى بوفاتها قضاء لا مرد له. فكأنني طوال تلك الأشهر السوداء الأولى كنت قد دُفنت معها، أو كأنني رحت أرفض الحياة لأكون جديراً بحبها حتى الموت. فإذا كان البعض مسلوب الإرادة في حالة كهذه، فإنني كنت، على العكس، أريد بإصرار أن أكون في حالة أشبه بالموت، مصمماً على رفض الحياة، ما دامت سهام قد حرمت الحق في أن تحظى من الحياة بأكثر من ست وثلاثين سنة، قضت الاثنتين الأخيرتين منها في مجادلة يائسة مع المرض. ورأيتها وهي تفقد وهجها شيئاً فشيئاً، ويتخافت نورها ووعياها، حتى الانطفاء والظلمة الأخيرة.

وغسان، بسنواته السبع عندئذ، لم يفقه ما الذي حصل بالضبط، رغم بكائه الكثير في الأيام الأولى. وكنت مختاراً بين أن أجعله ينسى فجيعة بأمه، وبين التأكيد على ما فقدته من حب وحنان بفقدانها. وحمدت الله على أنني كنت قد أقنعت سهام بالاكتهاف بغسان طفلاً

وحيداً، وإذا هو، بوحدانيته، يصبح ملاذي ومنقذي في ساعات الحزن، وهمتي وقلقي في ساعات التأمل في مصيره بدون أم تعنى به تلك العناية التي ما كنت أستطيع التعويض عنها رغم كل ما حاولت. ولعلّ أختي سالمة، الأصغر مني، وجدت في احتضانه منذ لحظة غياب سهام تعويضاً عن بقائها عانساً تقارب يومئذ الأربعين، فتولّت أمر غسان بحرارة وعطف وتفانٍ جعلت لحياتها ذلك المعنى الإضافي الذي جدّد لها الرونق في أيام كانت ستكون بدون غسان رتيبة كامدة. ورأيت سالمة تنتعش بتربية ولدي وكأنه ولدها، وتأخذه في عطلة المدرسية ليقيم مع أخي وائل وأولاده الكثر في دارنا القديمة، مع بقائها في عملها مديرة في وزارة التربية.

وقد أصرت أختي، في السنتين الأوليين بشكل خاص، على تحريرني من مسؤولية العناية اليومية بشؤون غسان، ولو أنها لم تفلح في إقناعي بترك البيت الذي كنا أنا وسهام قد فرغنا من بنائه قبل وفاتها بأربع سنوات. ولم يكن من السهل عليّ أن أهجر الغرف التي خططناها أنا وسهام معاً، ثم أثّناها على مهل وعلى طريقتنا - على قلة قطع الأثاث التي اخترناها، وفق فلسفتنا الجمالية في عدم ملء فضاء الحجرات بتراكم من الكراسي والكنبات والموائد والخزائن التي من شأن معظم الناس أن يزحموا بيوتهم بها. وفي بقائي وحدي في تلك الغرف، كنت أعايش سهام وكأنها لم تغب عني يوماً، ولن تغيب.

حتى ثيابها أبقيتها في الدولاب الكبير في غرفة نومنا مع ثيابي، وأبقيت زجاجات عطرها وأدوات تجميلها على طاولة التواليت أشهراً عديدة، رغم اعتراض سالمة واحتجاجها على هذه المغالاة في الحزن

والتشبّث بعزیز مضي، قائلة إن في ذلك تمرّداً على مشيئة الله الذي ليس لنا أن نفهم حكمته في ما يريد من مصر. غير أنني آثرت أن أبقى مع سهام في وحدتي، ولم أكتفِ بجعل «البورتريه» الزيتية الكبيرة التي كان رسمها لزوجتي صديقي الفنان ضياء اسماعيل، تحتل الصدر من غرفة الجلوس، بل طلبت إلى النحات نزار حيدر أن يصنع لي تمثالاً لرأسها، اعتماداً على صور فوتوغرافية وضعتها تحت تصرفه، إضافة إلى معرفته الشخصية لها أيام زواجنا الأولى. فنحت لها في الرخام الأبيض رأساً بديعاً، أكبر من الحجم الطبيعي بقليل، وعلى شفيتها ما يشبه الابتسامة، ولكنها ابتسامة تذوب في حزن غامض. وجعلت التمثال على قاعدة عمودية من رخام أسود مقابل فراشي بالضبط؛ فكان وجهها آخر ما أرى قبل أن أطفئ النور عند نومي، وأول ما أرى عندما أستيقظ في الصباح، وقد سقط عليه شيء من النور المتسلّل من بين الستائر المسدلة، فأكاد أحسّ أن سهام تتحرّك، وتقبل عليّ، وتحثني على النهوض إن أنا تأخّرت في الفراش. وأشعر دوماً أن الحوار بيننا مستمرّ: يتجدّد، ويعلو، ويهبط، بأصوات أسمعها في داخل رأسي، ويخيّل إليّ أن الرخام يتأمر معي على قوّة مجهولة حاقة تريد تحطيمي، فيمدّني بالمزيد من قدرة المقاومة. بيد أنني كنت أشعر أيضاً، في بعض الأحيان، مع تلك الابتسامة المخضلة بالحزن، أن الرخام ربّما كان يتأمر عليّ، وأنا لا أفهم. وكثيراً ما قبضت على نفسي متلبساً باستسلام مجنون لصقيع الخنّدين الرخامين وهما بين كفيّ، وشفّتي اللاهبتان تحاولان إشاعة شيء من الحرارة في الشفتين الباردتين القاسيتين.

ومن هنا كان دخولي في المرايا أمراً محتمّاً، بعد مرور أكثر من سنتين

على صدور روايتي الأخيرة. أي أن تجربتي اليومية مع حجر أريد نفخ الحياة فيه، تملأ، حزناً، فرحاً (مهما تكن العواطف التي لم تهجع في صدري، والأخيلة التي لم تستكن في رأسي)، كانت تدفعني دفعاً نحو البعيد، نحو نكران الواقع اليومي الذي بات يثقل صدري ويعوق تنفسي. هل كان ذلك عشقاً للموت، ولجوءاً إلى حلم يخرج بي من الحياة التي أعرفها إلى حياة يصنعها هواي على غير ما يتوقع إنسان؟ هل كانت تلك هزيمة إزاء الحدث الآتي، إزاء الناس الذين أحتك بهم في كل ساعة، كأني أحمل قوقعة أنسحب إليها من ضوضاء البشر، ومطالبهم، وقسوتهم، وفي قوقعتي أعيد تركيب بقائي من خلال الرؤى، ثم من خلال الكلمات التي تأسر تلك الرؤى على طريقي؟

هذا كله خطر بيالي وأنا أقتحم «المرايا». ولكن مع مرور الأيام، تبين لي أنني كنت وأنا أكتب إنما أسير بالضبط على عكس الخط الذي تصوّرت في البداية. فأننا، في كل مرة أدخل فيها طوايا التناظرات والتكسرات، والنقائض والأصداء، واستجلاب البعيد والمستحيل، إنما أخرج من القوقعة البائسة التي أرغمت على السقوط فيها، لكي ألتقي البشر وجهاً لوجه، ألتقي ضوضاءهم، مطالبهم، قسوتهم، وهل أقول أيضاً، بين حين وحين، روعتهم؟ وأعمال القانونية، التي ما كان لي أن أتهاون فيها مهما كانت شواغلي النفسية، كانت تذكّرني بذلك كل يوم. ولقد تأكد لي يومئذ أنني، مهما فعلت وفكرت وكتبت، شئت أم أبيت، جزء من تاريخ ملعون: ملعون بهزائمه ومآسيه، بقدر ما هو ملعون بانتصاراته وأفراحه، بتحقيق منجزاته قسراً عنه، وتحقق تدميراته بإرادته وبرعونة الحمقى. وبقدر ما

يتهل الناس إلى الله قائلين: ربي يسّر ولا تعسر، وجدت أن القاعدة التي رسموها في أذهانهم لمجتمعهم هي بالضبط: العسر، لا اليسر. حتى جاءني لحظات كنت أتحيل فيها أن على كل منعطف في المدينة، وفوق المدخل من كل عمارة، قد كُتب: عسر، لا يسر. أينما تَلَقْتُ بدا لي أنني أسمع: عسر، لا يسر. أسمعها من المؤسسات، من القوانين، من التعليقات، من المسؤولين، من الموظفين، صفارهم وكبارهم، من كل من أحتك به ولا أحتك.

واشتد بي الإحساس بأنني قضيت عمري هباءً بدراسة القانون، ونيل الدكتوراه فيه، وتدريسه لفترة في كلية الحقوق، ثم العمل مستشاراً حقوقياً لأكثر من مؤسسة، وبعد ذلك العمل مستقلاً في المحاماة، لأنني إنما ساهمت بنصيب أيضاً في تبرير المحظورات والزيادة منها، ولم أعمل إلا في أضيق هامش إنساني ممكن، ضمن التركيبة الاجتماعية التي تراض بالمحرمات، لتحقيق النجاة للبعض من ثقلها الساحق. لقد رأيتني، وأنا أتخطى عتبة الخمسين من عمري، دولاباً صغيراً آخر من دواليب التاريخ التي ما زالت دائبة على صنع زمن لا تتناسل فيه إلا الأزمات والفواجع والأحزان.

ولم تكن الدراسات القانونية العديدة التي ألقتها، وكتبت فيها بينها، عبر أكثر من ربع قرن من الزمن، رواياتي الخمس - قبل «المرايا» - إلا محاولات مني تتكرر في استجلاء هذه الناحية من السلوك البشري، سواء من خلال التاريخ كما أفهمه، أو من خلال تنامي المجتمع كما أراه، أو من خلال تداخل التاريخ والمجتمع معاً دون هوادة وباستمرار. وجاءت وفاة غاليتي سهام لتوغل بي بعيداً في

متاهة الشك في قيمة ذلك كله، فأنظر إلى كل ما «أنجزت» من موقع، أدركت أنه موقعي في الطين الذي رحت أنحبّط فيه، غريقاً لا يغرق، وناجياً لا ينجو - اللهم إلا الآن، وباقتحام لا مفرّ منه لعمل فني جديد. وجاءت «المرايا»، فيما راح تمثال سهام الرخامي الأبيض يرمقني من على قاعدته السوداء، مبتسماً، مستفزاً، يحثني وملؤه الحبّ والخبرة، ويحثني وملؤه الخشية عليّ بما قد أضيع فيه من أفكار وأخيلة.

وخطر لي أن أباطرة التواريخ القديمة، إذا فقد أحدهم عزيزاً يعشقه، أقام له ضريحاً فسيحاً، أو بنى مدينة أطلق عليها اسم معشوقه. وهل لي أن أمر بإقامة ضريح فسيح في مدينة تكاد لا تتسع لقبورها البائسة التي تتراحم الأضداد فيها (رحمك الله يا أبا العلاء)، أو أمر ببناء مدينة على الرمال لا تنجب عبقيراً واحداً، ولا تتناسل فيها سوى الضباع؟ أم أخذو حذو الفراعنة القدماء، فأحتفظ في قبو مظلم بجسد حبيتي محنطاً، وأضع على قلب محياها قناعاً من ذهب، أجعله على وجهها، فأخلّد جامها وموتها معاً؟

لا الذهب ضمن طاقتي، ولا إقامة الأضرحة وبناء المدن. وما ضمن طاقتي إلا الكلمات. فلأسخّر الكلمات إذن، ولاكتب لذكرى من أحبّ كتاباً متفرّداً، فذاً، مثلها، كتاباً لم يكتب مثله أحد.

لم يكتب مثله أحد! ما أروع الغرور! ولكنه غرور كان لا بدّ منه ولو في البداية، لكي أضع نصب عيني هدفاً يصعب إدراكه. وعلى أن اتخيل في نفسي قدرات أبعد مما حسبت فيما مضى، عزماً كان ذلك مني أو غروراً. وسرعان ما تبين أنّي، مرة أخرى، إنما أنحرف من فيض إنائي الذي قد طفع. وأن العزم والغرور كليهما لا شأن لهما في

ما يتقاذف داخلي كلَّ يوم، كل ساعة. عليّ أن أتلقّف هذه الشظايا،
ولتكن ما تكون. ولم يكن الدخول في المرايا إلّا الدخول في منطقة
تدوّم فيها صور الوقائع وصور الأحلام معاً، وقد دفعتُ بها إلى حومة
الروح أيام اللذائذ والعذابات بلهفاتِها وخيالاتِها المتلاحقة في زمن
ملعون.

لقد أردت منذ أول كلمة كتبتها أن أرى في نهاية سهام عودةً إلى
بداية في منجى من كلّ هذا الذي تحياه النفس مرغمة ساعة بعد
ساعة، إلى حيث تتحرّر من كل جور، وكل قسوة، وكل قبح،
طوباوية من دون خجل، وإن تكن القيامة منها على مرمى البصر، أو
أقرب:

«وهناك سقطت، وفي سقوطها كان ثمة ما يكاد لا يُسمع من
تغريد طيور نائية، وصوت البحر ناعم غائم كما عرّفته قبل سنين،
ولغظ لا يتضح لسياسيين ووعاظ مزعومين لا يكلّون عن الكلام
بتلاشي في أذنيها. سقطت، واستمرّ سقوطها في نفق عميق هبط بها
إلى قاع حبّها وذكرياتها المعتمة، حيث تتحسّس الرغبة في البقاء إلى
الأبد، واكتشاف معدن حياتها من جديد، لتصنع منه أعجوبةً
جديدة. ما أعذب أن تنتهي هكذا، وبانتهائها تجد طريقاً يعود بها إلى
الحياة، إلى مكان حياتها الذي وحده يسعها في صنع أعجوبتها.
ورأت يديه، بأصابعها الطويلة المرففة، تتحرّكان عبر ذهنها، وشفّيته
تتحرّكان بأيّ جمالٍ من الكلمات! ولكنها ما زالت تسقط على إيقاع
انسيابي لا ينتهي لأصوات كثيرة من الطبيعة والناس. يا الله، من هذا
الذي ينالها من خلال هذه الموسيقى كلها؟ لم تفهم كلمة واحدة مما

سمعت، ولكنها أدركت معاني عديدة متباينة، وبأنت تعلم أن لها هناك لقاء أخيراً، راحة أخيرة، في قلب عاشقها الذي راح ينادي وينادي وهي مستمرة في سقوطها في نفق السنين عودة إلى الحياة، الحياة، الحياة...»

إنني اليوم أرى ما لم أراه يومئذ بهذا الوضوح، وهو الوضوح الذي أتى به ما كتبت لاحقاً من حكايتي مع المرايا. أنا لم أكن أتحدث عن سهام وحدها، رغم ذلك الحب كله، بقدر ما كنت أتحدث عن طيف ما عليّ أن أمسك به وأجعله يتجسد، لأستكنه حقيقته. أردت أن أغرز أظافري في ذراعيه، وأدفن فمي في شعره. أردت أن أراه يتجسد كل يوم في شكل جديد، ويستفزني بانصباعه وتمنعه، بتصرفه معي ملاكاً وشيطاناً، وتكون الأعجوبة التي يصنعها أنه ينشطر ويتعدّد، ثم يلتئم ويتوحد، ويحترق بي الزمن الملعون رغم كل جور، وكل قسوة، وكل قبح. ومن خلال المرايا المحدّبة والمقعّرة، من خلال الوجوه الدميمة والأجسام المستطيلة والمقزّمة، يتسلّل الطيف المجسّد معي بقّده الذي لا يمسه تنسويه، ووجهه الناضح دوماً بروعته، ليبلغ بي ما لم يكن لولاه ليتحقّق لي من تراكيب ونهاويل.

الرجل الذي يسافر في أقاليم الليل حتى الأبد

كانت الشمس قد غاصت في الأفق بحقد متعمّد، وتركتني في الظلام. ولم تكن ثمة دقيقة واحدة من أصيل، كأنّ قوّة ما أطفأت النور في غرفة دخلتها للتوّ، بعد أن ربّبت الأمر بحيث لا يكون

للغرفة أية نافذة. وخيل إليّ أن قفلاً بعد قفل راح يطقّ وهو ينفلق داخل دماغي.

ولكنني كنت أعلم أنني تحت شجرة. وبوسعي أن أستشعر الأوراق اليابسة وقد انتثرت حولي، وتحت قدمي. ولعلّ الأشجار كانت كثيرة حولي. وحواشيّ تستجيب للمس أوراق تتهاوج وتتصّف. وعندما مددت ذراعي لأتبيّن إن كان الذي بجواري هو جذع شجرة، أحسست كأنني أخرجت ذراعي من نافذة مفتوحة إلى الهواء البارد، ثم سقطت مرتجئة على ركाम من الأوراق اليابسة. وخيل إليّ أن المزيد من الأقفال راح يطقّ وينفلق في رأسي.

وفي حلقة الظلام، كان صوت يقول: «في أيام شبابك أثمت مع فتيات عذارى، ثم هجرتهنّ أو هجرنك لكل مستطرق قادم. منهنّ من تزوّجت وأنجبت ونسيتك، ومنهنّ من لم تتزوّج وبقيت تلاحق ظلال أهوائها إلى أن ذبلت وهرمت، ومنهنّ من عاشت ولا عيش الأميرات، وتحاول كل يوم أن تخلّص جسدها من ذكراك، وتحفّق... أتذكر هذه؟ وهذه... وهذه؟...»

امرأة بعد أخرى كانت تتقدّم وتتضح صورتها، ثم تتلاشي في الظلام. ولم أكن واثقاً من أنني أعرفهن، أو أنني من قبل رأيتهن. ولكن كل واحدة منهن تتقدّم نحوي كأنها تعرفني، ثم يغيم وجهها وقوامها، وتخفي لتحلّ أخرى مكانها.

وتقدّمت امرأة نحيفة هيفاء طويلة الشعر، يزيد إرسال شعرها من الإيجاء بامتداد قوامها، وبانت عيناها، وهما تنوّدان بجمال وحشيّ، وهما في حالة ضراعة، أو ألم. وقفت لحظة أو لحظتين، مرتجئة

الذراعين، وبغنة انطلقت في حركة مضطربة، مذعورة، كأنها تبحث عن مهرب، طريدة أطبق عليها المطاردون. ثم ركضت، واختفت.

ولم يكن ثمة إلا الظلام، وخشخشة الأوراق الميتة كلما تحركت يدي، أو قدمي. وجاءني الصوت من جديد، هامساً هذه المرة: «لديّ هنا عصفور صغير، لك أن تقول إنه بلبل، سمعتَ تغريده ذات يوم وضحكت، نعم، ضحكت. ولماذا ضحكت؟ لأنه أراد أن يعبر عن عاطفة أكبر من تجربته. هكذا أنت ظننت. ولم تعلم أنه لم يكن يروي إلا عن مصيرك أنت، وحزنك. ولكنك حسبت أنه إنما يغني عن حزنه الصغير هو... أتذكر؟»

قلت: «لا أذكر، لا أذكر.»

وإذا فضاء أزرق ينشق عنه الظلام، فضاء تملأه الطيور، وهي تنصايح وتنغ، وتتحق الجوّ بأسرابها، وتهبط كالسهام المارقة إلى ما فوق رأسي، ثم ترتفع وتخلق متناثية وتتناهى معها ضوضاؤها حتى تكاد لا تسمع، وإذا هي تهبط بقوة مرة واحدة، بقصف كقصف الصنوج، وتحطّ على الأشجار، فتحنّي الأشجار تحت وقرها ونمّس فروعها الأرض، ثم ترتفع مرة أخرى، وتتهاطل عنها أوراقها كالطرر. وحلقت الطيور بعيداً، حتى تلاشت، وتلاشت أصواتها. وهبط صمت عميق ثقيل على الغابة المظلمة.

أردت أن أسمع صوتاً. أردت أن أرى شيئاً. ولكن الصمت والظلام كانا كئيفين، قاتلين. وتحركت بجسمي كيفما اتفق، نفضت ذراعي، التهيت بجذعي، أدت وجهي يمينا وشمالاً، وظننت أنني أسمع لهاثاً صادراً عن حنجرتي، لهاثاً خنيقاً، متقطعاً، أردت أن

أَكْفَتْ عَنْهُ، وَلَكِنِّي أَحْسَسْتُ أَنَّهُ لَا يَصْدُرُ عَنِّي، بَلْ عَنْ مَكَانٍ مَا فِي الظَّلَامِ. إِنَّهُ لَهَاتُ أَذْكَرُهُ، أَذْكَرُهُ جَيِّدًا، يَصْدُرُ عَنْ حَنْجَرَةٍ أَعْرَفُهَا. كُنْتُ فِي زَمَنِ مَضَى أَمْرُغُ فَمَيَّ عَلَى تِلْكَ الْحَنْجَرَةِ، وَأَشْعُرُ بِشَفَتِي ذَبْذَبَاتٍ مَا تَنْدُّ عَنْهُ مِنْ تَأْوِهِ خَافِقٍ - إِنَّهُ تَأْوِهِ حَبِّ، لَهَاتُ عَشَقٍ.

وَوَقَعَ فَمَيَّ عَلَى الْفَمِ اللَّاهُثُ، وَأَدْرَكْتُ أَنَّهَا آخِرًا، آخِرًا، قَدْ عَادَتْ مِنْ قَلْبِ الظَّلَامِ. فَأَمْسَكْتُ بِكَتْفَيْهَا، وَهَزَزْتُهَا بَعْفَ قَائِلًا: «لَنْ تَتَلَاشِي هَذِهِ الْمَرَّةَ! لَنْ تَتَلَاشِي! هَلْ نَحْنُ فِي الْجَحِيمِ، أَمْ مَاذَا؟»

وَتَوَقَّفَ لَهَا نَظْمُهَا لِحَظَةً، ثُمَّ قَالَتْ: «بَلْ نَحْنُ فِي غُرْفَتِكَ. أَلَا تَرَى ذَلِكَ التَّمْثَالَ الَّذِي يَتَسَمَّى لَكَ؟ أَلَا تَرَى الْمَرَايَا حَوْلَكَ؟ أَلَا تَرَانِي فِي كُلِّ مِنْهَا أَوْمِيءٌ إِلَيْكَ؟»

وَرَأَيْتُ ذَلِكَ كُلَّهُ حَقًّا. فَهَضُنَا مَعًا، وَاقْتَادَتْنِي إِلَى إِحْدَى الْمَرَايَا، وَخَطُونَا مِنْ خِلَالِهَا كَأَنَّهَا الْفَضَاءُ، لِنَرَى أَمَامَنَا دَرْبًا مَعْبَدًا بِالْحَصَى، يَتَلَوَّى مِنْ خِلَالِ التَّلَالِ الْخَضِرِ، هَابِطًا بِاتِّجَاهِ الْبَحْرِ.

وَنَزَلْنَا نَحْوَ الصَّخُورِ وَهِيَ تَتَلَوَّى انْقِذَافَاتِ الْبَحْرِ وَزَيْدُهُ، وَقَدْ رَكْنَ فِي مَضِيقٍ مِنْهَا قَارِبٌ يعلو وينخفض مع خفقان الموج. زُورِقٌ لَهُ مَحْرَكٌ، وَلَكِنَّهُ يَكَادُ يَغُوصُ فِي مَكَانِهِ لِكَثْرَةِ مَا حَطَّ فِيهِ مِنْ مَاءٍ...

وَمِنْ كَهْفٍ قَرِيبٍ خَرَجَ رَجُلٌ أَسْوَدَ طَوِيلِ الْقَامَةِ، يَتَمَشَّى عَلَى مَهْلٍ، عَارِيًّا إِلَّا مِنْ وَزَرَةٍ حُمْرَاءٍ حَوْلَ وَسْطِهِ، وَقَالَ، مُشِيرًا إِلَى الزُّورِقِ: «إِنْ كُنْتُمْ مُسْتَعِدِّينَ لِلْإِبْحَارِ، هَيَّاتِهِ لَكُمْ فِي نِصْفِ سَاعَةٍ. نِصْفِ سَاعَةٍ فَقَطْ.»



كان نهراً شتائياً، غير أنه مليء بالشمس، بعد أن توقفت أمطار الليلة السابقة. وقد جاءت الأمطار مصحوبة بمواسم الروعة والمهابة التي تليق بأمطار طال ترقبها بعد أسابيع من الجفاف. جاءت مع البروق والرعود التي هزت المدينة هزاً. وكنت واثقاً من أننا في الصباح، إذا توقفت الأمطار، سنسمع أخباراً عن رجال فاجأهم عشق الطبيعة الحارق وهم يبدلون في أرباض المدينة، وحوطهم بصواعقه إلى أشكال من الفحم.

جاء النهار صاحياً، يتلألاً، وقد نضت كل شجرة عنها غبارها، وراحت خضرتها تتألق. وبدت حتى البيوت العتيقة وكأنها قد استعادت نضارة مفقودة، وتجددت.

عدت من مكتبي إلى الدار حوالي الثانية بعد الظهر، ولي شهية هائلة للطعام. وتقصدت أن أتناول غدائي وأنا أواجه نافذة تطل على حديقة الدار التي تتميز بكثرة ما فيها من أشجار النارج، والعديد من حبات النارج ما زال يتوهج بين أوراقها القشبية الآن، كقناديل من ذهب.

قبل الرابعة خرجت إلى الطريق، وبني نشاط غريب، وإحساس يوحي إليّ بأن أسير ساعات طويلة، مع أنني أعلم أن الشمس ستغيب بعد ساعة أو أكثر بقليل. أردت أن أعانق الفضاء، أن أشرب الضوء المزروع المشعشع كما لو أنني أشرب خمرًا من كأس يفيض منها الحب. كانت تلك إحدى اللحظات القليلة التي نسيت فيها كل شيء، كل ماضٍ وحاضر، فيما عدا ذلك الوهج الأنبيء اللذيذ الذي لا ينبىء إلا عن نفسه - وربما ينبىء أيضاً عن انعكاس

في داخلي يحترني لا من ذوات الآخرين فحسب، بل من ذاتي أنا أيضاً.

كانت السماء صاحبةً لا حدود لأبعادها، والشمس تتقافز على أعالي الأشجار والمنازل، وانعكاساتها - وقد جنحت إلى الغروب - تتواتر في برك الماء المتجمّع هنا وهناك طوال الطريق، كالشرارات الحمراء الصغيرة.

والسيارات تمرّ بي ولكنها، على عكس عاداتها، لا تسرع كثيراً. وهناك فتيان وفتيات يسرعون أو يتباطأون، ولكنهم دائماً يتصاحجون، وشيء كالضحك يملأ الجو. حتى الكلب السائب الذي مرّ بي بدا وكأنه يستمتع بمراى الدنيا، ولن ينبح على أحد.

سيارة قادمة من خلفي توقفت بجانبني، لم أعرها اهتماماً، واستمررت في السير. غير أن من فيها زمراً قليلاً، فانتبهت. ونظرت إلى الخلف فرأيت من خلال الزجاج الأمامي وجهاً جميلاً يضحك لي، ولم أكن قد رأيته منذ زمن - منذ سنة أو أكثر. فاقتربت من جانب السيارة، وأنزلت صاحبة الوجه الجميل زجاج النافذة بسرعة، وهي تصيح: «ناثل! سارح، سارح كالعادة!»

انحنيت لأكون على مستوى وجهها، ووجه زوجها الجالس على الجانب الآخر منها وراء المقود، وقلت: «وأنت رائعة، رائعة كالعادة!»

في تلك اللحظة الفائضة بنشوة الطبيعة، كنت سأقول ذلك لأية امرأة توقفتني في الطريق. فكيف إذا كانت المرأة هي تالة، تالة الظاهر، دون غيرها؟

قال شريف الترك من الجانب الآخر: «هيا اصعد، فنوصلك أينما تريد.»

قلت: «لا، شكراً. أنا طالع أتمشي. من يركب سيارة في مثل هذه الساعة الرائعة؟»

أجابت تالة مستضحكة: «أنا وشريف، ألا ترى؟»

فاقترحت: «لماذا لا تتركان السيارة هنا، وتتمشيان معي؟»

ونمتيت فعلاً لو أنها يترجلان. غير أن شريف قال: «مع الأسف، نحن على موعد. لماذا لا نراك هذه الأيام؟»

- يظهر أننا صرنا لا نلتقي إلا في الأماكن المستحيلة!

فقالت تالة، وضحكتها تتجدد: «الحق عليك. تلفن لنا، ولو مرة في العمر...»
- سأفعل.

وهتف شريف: «سبعة سبعة، واحد واحد، أربعة ستة صفر. تذكر ٤٦٠، والبقية سهلة.»

وضحكت من أعماق حنجرتي: «سأذكرك! طبعاً سأذكرك!» كأنني لم أكن أعرف الرقم منذ ما قبل زواجهما، وانتقال شريف للسكنى مع أهل تالة بسبب ظروفه الاقتصادية يومئذ. حتى السيارة كانت في الأصل سيارة تالة. ورغماً عن مشييتي فإني أتذكر الكثير مما يعرفه شريف، ومما قد لا يعرفه، عن تالة صديقة سهام ورفيقة عمرها. وعندما تحرّكت السيارة وابتعدت، تخيلت تالة كحمامة حملتها ذات يوم بين يدي، ثم رفعها بأعلى ما تستطيع ذراعاي، وأطلقتها في

الفضاء، لكي أتزوج صديقتها، وتحرّر هي في خياراتها.

في تلك البرهة لمحت على الرصيف المقابل رجلاً يلبس معطفاً طويلاً أسود، يمشي على مهل وقد انحنت كتفاه، رغم انتصاب جسمه. وعرفته في الحال. إنه رئيس وزراء سابق، ما خرجت يوماً في مثل هذا الوقت إلى هذا الطريق، إلا ورأيت يترئّض وحده بالسير على مهل، تحت أشجار الصنوبر المتلاصقة، ناظراً أمامه إلى الأرض، يكاد لا يرى أحداً حوله. أية خواطر تملاً صدره، يستعيدها أو تفرض نفسها عليه، في تلك المشاور؟ رئيس وزراء سابق - ولولسنة أو أقل... كم رئيساً من هذا القبيل استطاع أن يبقى حياً، ليرئّض وحده في العصاري الطويلة، دوغما حراسة من أحد، ويعيد تركيب الماضي على رسله، وعلى هواه؟ أم أنه لا يعيد تركيب أيّ ماضٍ، بل يتجنّب كشيء يؤذيه إذا مدّ يده إليه؟ وإلا لما اعتاد الناس رؤيته يتمشي عصر كل يوم، وقد قطع كل صلة ظاهرة له بهم، كأنهم كانوا السبب في رفعه إلى أسمى المناصب، لكيما يوقعوه بعد ذلك في تلك الوحشة الغريبة التي ربّما عذّبتّه زمناً، ولكنه بات الآن لا يقوى على الحياة بدونها. أمّا أنا فكلّما رأيته وهو يتابع مشواره، والزمن يضيف كل يوم شيئاً إلى انحناء ظهره، تذكّرت قصيدة لشاعر انكليزي (كينس؟ شلي؟) يقول فيها ما معناه:

«أين أغاني الأمس؟

آه، أينها؟»

واختلطت في ذهني أغاني الأمس الضائعة ورؤساء الوزراء الضائعون بذكريات تالّة وسهام - رغم أن الذكريات كانت أشبه

بالعصافير التي تهاجر أسراباً في الشتاء وتختفي، لتعود مع الصيف إلى أوكارها العتيدة في النفس. تعود وقد فرّخت عصافير كثيرة أخرى.

قفزت فوق بركة من ماء المطر، وتأملت امتداد الطريق المستقيم، وأشجار الصنوبر على جانبيه ما زالت تتألق، وقد احمرت السماء عند الأفق حيث انتشرت سحب خفيفة أمام الشمس فتأججت حواشيها كالجمر بأشعة الغروب الوشيك. ولذا فإنني لم أنتبه أول الأمر للشاب الذي أوقفني بمدّ يده إلى ذراعي لأتوقّف عن السير. فاعتذرت له: «العفو!»

لمحت أن عينيه حمراوان، دامعتان. وقال بحزن: «أما عرفتني، دكتور نائل؟»

عرفت وجهه، ولكنني لم أتذكر اسمه في تلك اللحظة. فهو رجل أراه مرة كل شهرين أو ثلاثة، فيحيي كلانا الآخر عن بعد، ويمشي. قلت: «كيف لا أعرفك؟ .. أنت ...»
- حماد.

- طبعاً! أراك مضطرباً؟

اختنق صوته بشهقة فجائية، وأخرج منديله بسرعة من جيبه ليمسح دموعه، ثم قال: «أبي ...»
- ما به؟

- جاءني قبل قليل نبأ يقول إنه أعطاك عمره.

- كيف؟ أين؟

- في عمان. استلمت البرقية الآن من أبو حسين، صاحب الدكان ... سكتة قلبية، تقول البرقية. سقط ميتاً، في الطريق.

ووضع يده في جيب صدره، وأخرج البرقية، كأنه يخشى أن لا
أصدقه إذا لم يقيم الدليل على ما يقول. فقلت له، وأنا أصافحه:
«رحمه الله. والبقاء في حياتك يا حماد. كلنا لها...»

فانفجر بكأوه مجدداً وهو يقول: «نعم، نعم». وتركني، وانصرف
في الاتجاه المعاكس.

بعد ذلك، وقد وقعت عيني على بناية «الساحة» على بعد خمسمئة
متر مني، قرّرت بدافع فجائي أن أتجه نحوها لزيارة طلال صالح في
مكتبه في الطابق الأعلى من البناية، ولم أكن قد رأيت له لأكثر من
أسبوعين، وكان من شأنه أن يداوم مساءً في مكتبه، وعنده فراش يتقن
صنع القهوة التركية التي أحسست في تلك اللحظة أن موعدها قد
آن، ولا بدّ منها.

في الظاهر، وفي ذلك السياق العشوائي، ما أبسط ما حدث...
فلو كانت هناك عين تتابعني من مكان ما من الفضاء، لما دُهِشت لما
رأت، بل لنسبت إلى الأمر تلك الدوافع العادية التي تملأ كل ساعة
من تحركاتنا اليومية: رجل يسير في شارع بشيء من السرعة، كأنه
على موعد في مكان قريب. تراه عن بُعد امرأة، وقد خرجت من
دكان أرادت أن تشتري منه فستاناً، ثم غيّرت فكرها. تباغت المرأة،
رغم بعدها، لرؤية الرجل. والرجل مستمرّ في سيره. تسرع المرأة في
إثره، وهو لا يدري بها. ولكن كعبها العالي لا يتيح لها ما يكفي من
سرعة لاختصار المسافة بينها بدقة على الأقل. يدخل الرجل مبنى
من سبعة طوابق، ولا بدّ أنه سيختفي في غرفة ما في أحد هذه
الطوابق السبعة. هذا ما خطر للمرأة بلمح البرق. فتركض. تركض

رغم كعبها العالي، قبل أن يضيع الرجل عنها. وتذكر مدخل العمارة وهو واقف عند باب المصعد، بعد أن ضغط على زرّ استحضاره. ينزل المصعد إلى الطابق الأرضي، ويفتح بابه، ويدخل فيه الرجل. وقبل أن يضغط على أحد الأزرار، تندفع المرأة نحو المصعد، وتفتحه، ويد الرجل مرفوعة باتجاه لوحة الأزرار، وهي تلهث، تلهث بشدة، وقد أحمرّ وجهها، وانفجرت شفتاها عن تنفّسها العنيف، وصدرها يعلو ويهبط بشكل واضح. فييدي الرجل ما وسعه من لطف لسيّدة مستعجلة كادت أن تسقط على وجهها لتسرّعها، ويسألها: «أي طابق؟» وتجيّب: «الطابق الذي أنت صاعد إليه!» فبسألها، ليتأكّد: «السابع؟» فتجيّب وهي تهزّ رأسها: «السابع».

يضغط الرجل على زرّ الرقم ٧، وينغلق المصعد، ويتحرّك، والمرأة تنظر إلى شريكها فيه بعينين مفتوحتين واسعتين، ولهاثها مستمرّ بين شفتيها المنفرجتين، ولا تقول شيئاً. ويخرج الرجل من تركيز عينيها عليه، ويتّجه ببصره نحو الباب، في انتظار انفتاحه عند الطابق السابع. وحين يتوقّف المصعد، ويفتح الباب، يفسح الرجل الطريق لخروج السيّدة أولاً، فتخرج، وتقف عند الباب. ويخرج هو أيضاً، وهو يعلم بالضبط أنه سينعطف إلى اليسار نحو مكتب طلال صالح. غير أنه لا يكاد ينعطف، متوقّعاً من المرأة أن تنعطف في الاتجاه الآخر، حتى يجد أنها تسير إلى جانبه.

فيسألها: «إلى مكتب الأستاذ طلال صالح المحامي، أنت أيضاً؟» وإذا بها تجيب: «لا، لا، أبداً. أنا مجنونة!»
يتوقّف مشدوهاً: «نعم؟»

فتكرّر: «أنا مجنونة، مجنونة، أستاذ ناثل.»

- أتعرفيني؟

- جداً، جداً...

هكذا كانت البداية، كما رأتها وسجلتها العين التي تابعتني، أو تابعتنا كلياً، كعين كاميرا خفية تنفذ إلى ما وراء الأبواب والجدران، ولكنها تعجز عن النفاذ إلى ما يجري في دواخل الناس.

أو هكذا تخيلت الحادث، عندما استرجعته فيها بعد.

لم أدر عند تلك اللحظة كيف أنصرف بالضبط. ولكنني حاولت أن أحافظ على كياستي مع هذه الشابة الغريبة. وخطر لي: ألعها فعلاً مضطربة عقلاً؟ ولكن العاقل فقط يستطيع أن يسمي نفسه مجنوناً.

قلت بجملاً: «شيء رائع أن تعرفيني، وتعرفيني جداً... هل لي أن أساعدك في شيء؟»

- لا، لا، أبداً. أردت فقط أن أتحدث إليك.

- إذن، أنت لا تعرفين أحداً في الطابق السابع هذا؟

- لا في السابع، ولا غير السابع. ركضت كالمجنونة لكي أدركك.

وأنت مبال إلى السرعة في السير.

- كان عليك أن تناديني في الشارع، فأنتبه إليك.

- وماذا كنت ستظن عندما تسمع امرأة لا تعرفها تناديك أمام المازة

كلهم؟

- كنت سأظن أنني واهم . أو أنني أنا المجنون .

فقلت بشيء من الجذث : «يكفينا الآن مجنون واحد .»

فضحكت : «عندما تطلع الشمس بهذه الزوغة بعد المطر، يحقّ لنا كلنا أن نتمتع بشيء من الجنون . هكذا شعرت اليوم وأنا في طريقي إلى هنا .»

وانتهت إلى أننا واقفان في الدهليز على مقربة من باب مغلق يؤدّي إلى مكتب صديقي .

أجابت : «غريب! الشمس هي التي جعلتني أترك الدار اليوم، هذا العصر . ولكن مع هاجس قويّ، غامض، ألحّ عليّ بأن أخرج .»

- لكي ترييني؟

- لعلني أراك .

- هل أنت جادّة؟

- جدّاً .

- القدر، ها؟

- أيّ قدر، أستاذ نائل؟ جنون . هل كان لديك هاجس، عندما

خرجت من الدار، بأنك ستلقى امرأة لا تعرفها؟

- أتريدني الصدق؟ كلّما خرجت لأتمنّى، ساورني إحساس بأنني

سألقى امرأة لا أعرفها . ولكنني مع الزمن بتّ أعلم أنه إحساس

كاذب، لا يُعتمد عليه . والآن، ماذا تقولين : أندخل على صديقي

هنا، ونسلّم عليه؟

- كما تشاء . أنا لا أريد أن أغيّر خططك .

- المسألة لا علاقة لها بأية خطة . في الواقع ، أنا ما جئت هنا إلا بدافع فجائي ، اعتباطي . لأشرب عند صديقي فنجان قهوة .
- أترى ؟ كنت مدفوعاً بهاجس لا يختلف كثيراً عن هاجسي .

- طيب ، يا سيدي . كان القدر ينفذ مآربه . . . ما رأيك الآن في فنجان قهوة عند طلال صالح ؟

وهممت باقتياد محدثي ، ولم أعرف بعد اسمها ، نحو مكتب صديقي . غير أنها وضعت يدها على ذراعي ، وأوقفتني عن السير ، وقالت ، مركزة عينيها في عيني : «لماذا لا نشرب القهوة في مكان لا يعرفك أحد فيه ، ولا يعرفني ؟»

ترددت ، وقد تجددت دهشتي . ما الذي تريده هذه الفتاة مني ؟ وسألتها : «هل لديك شيء معين تريد أن تحدّثني عنه ؟»

أجابت بلهجة يائسة : «أشياء ! أشياء كثيرة !»

وعندها تمعنت في وجهها ، وانتبهت إلى شعرها المشدود إلى مؤخر رأسها ، وشفتيها الرئائتين ، وسألتها : «ما اسمك ؟»

ضحكت ، وتحولت لهجتها من اليأس إلى العبث : «أنتسجوبيني الآن ؟»

- أريد أن أعرف اسمك ، لا أكثر .

فأجابت باقتضاب : «سراب .»

- ماذا ؟

- اسمي سراب . سراب عفان .

فابتسمت ، وأمسكت بذراعها ، مستديراً بها في الرواق : «كيف لي

أن أقاوم فكرة شرب القهوة مع سيّدة ندعى سراب؟ وسأبقى
عطشاناً، ولا شك؟
- لا شك!

وسارت معي باتجاه المصعد.

غير أنني توقفت، وقد عاد إليّ بعض عنادي، وقلت: «ولكن بعد
أن قطعت هذه المسافة كلها لأسلم على طلال، يجب أن أراه، ولو
للحظتين..»

أسقط في يدها، وقالت بشيء من الخيبة: «كما ترى. أنتظرك
هنا؟»

- تتظرينني؟ بل ترافقينني. وتسلمين عليه أنت أيضاً. إنه رجل
لطيف جداً. قد نراه غارقاً في كتابة قصيدة جديدة.

ودونما تردّد - ولا أدري من أين أتتني الجرأة - أمسكت بيدها،
وأسرعت بها نحو باب المكتب، وضغطت على الجرس. وفتح
الفرّاش الباب.

قلت: «مساء الخير، عباس. الأستاذ طلال موجود؟»

ولمّا قال نعم، سرت باتجاه غرفته، وسراب تكاد تتعثّر في رفقتي.
وحالما رأنا طلال، هبّ واقفاً وانطلق من خلف منضدته الكبيرة،
ليرحّب بي، وهو ينظر متسائلاً إلى السيّدة التي معي.

قلت معرفاً وبدون مقدّمات: «الأستاذ المحامي طلال صالح.
السيّدة سراب عفّان..»

وأدركت من نظرة طلال أنه حسب أنني جئت بموكلة ليس لديّ

الوقت لأن تعهد قضيتها. وصافحها. وأشار إلينا، بتكلف رسمي، بالجلوس. فتمتعت سراب: «شكراً، أستاذ»، ونظرت إلى شيء من الحيرة، لأنها لا تريد الجلوس.

فقلت: «طلال، نحن مستعجلان. خطر لي أن نسلّم عليك، ثم نراك في يوم آخر.»

لم يفهم طلال: «ولكن...»

- لا، نحن مستعجلان.

- فنجان قهوة على الأقل؟ عباس!

- لا، لا. القهوة معناها أننا يجب أن نجلس، والسيدة سراب لديها موعد آخر.

فهزت سراب برأسها: «نعم، لديّ موعد آخر.» وتحرّكت كأنها تنوي الخروج. ولكنني أوقفتها بلطف، مرّة أخرى، وسألت طلال: «هل من قصيدة جديدة؟»

عندها ضحك، وقال: «وأنتما مستعجلان هكذا؟ الشعر بحاجة إلى جلسة، وقهوة، ووقت...»

وإذا بسراب تسأله بدهشة عفوية: «أنت محام وتكتب الشعر؟»

- ألا تعرفين أن ثلاثة أرباع المحامين يكتبون الشعر؟»

وأصفت أنا: «والأ كيف لهم أن يقضوا الساعات الطويلة في مكاتبهم بلا عمل؟»

فقال طلال: «أسأليه هو. الأستاذ نائل لا يكتب مجرد قصائد. إنه يكتب روايات... روايات طويلة.»

وابتسمت سراب: «أدري. كتب ست روايات. قرأتها كلها.»

- ها! أنت إذن من عشيرة المعجبات بنائل عمران؟

- يعني... فرصة سعيدة، أستاذ.

ومدّت يدها لتصافحه، وأضافت: «أرجو أن أسمع إحدى قصائدك، في زيارة قادمة.»

وتدخلت بينهما: «زيارة قادمة! أترى؟ هذا موعد. موعد لا ريب فيه!»

وقال طلال وهو يصافحني مودّعاً: «إذن سأكون في الانتظار. وقريباً إن شاء الله؟»

عند خروجنا من العمارة، قلت: «والآن، إلى القهوة. ولكن أين؟»
نظرت إليّ بعينين محترتين: «لا أدري. أنا نادراً ما آتي إلى هذه المنطقة.»

- هل عندك سيارة؟

- نعم، ولكنها في البيت. جئت في سيارة أجرة لكي أستطيع التجول بين الدكاكين هنا بسهولة. وأنت؟

- في البيت أيضاً. جئت أتمشي. فالمشي رياستي الوحيدة. أترين ذلك الفندق الصغير هناك؟ فيه كافيتريا لابأس بها. ما رأيك؟

كان فندق «الأنسام» على بعد مئتي متر أو أقل، وكنت أرتاد مطعمه ومقهاه كلما احتجت إلى أخذ ضيف يزورني فجأة إلى مكان نأكل فيه، لقربه نسبياً من منزلي. ما كنت أخشاه هو أن تعترض السيدة على مرافقتي إلى مكان عام، والليل الشتائي قد هبط بسرعة.

ولكن، ألم تكن هي التي اقترحت أن نشرب القهوة في مكان لا يعرفنا فيه أحد؟ قد يعرفني نادل أو أثنان في المقهى، ولكن ما هم.

أسرعنا السير، وأنا لا أعرف أين أبدأ الكلام مع الفتاة الغريبة، رغم ادّعائها بأنها تعرفني، وبأنها قرأت رواياتي كلها. وخطر لي فجأة أنها صحفية، أو مراسلة إحدى المجلات، وأنها تريد مقابلة معي لجريدتها أو مجلّتها. وكنت قد اعتدت ذلك الأمر في الستين أو الثلاث الأخيرة، وأدهشني عدد النساء اللواتي يقمن بهذا النوع من العمل الصحفي، ومعظمهن شابات، حديثات التخرج من الجامعة، ويغلب عليهن اهتمام بالشعر لأنهن، فيما يبدو، يكتبنه، ويردن أن يعرفن «سره» من ذوي الشهرة الأدبية، أملاً منهن في اختصار الطريق إلى تحقيق المعجزات.

وصدق حدسي. وحال جلوسنا إلى مائدة قرب النافذة الكبيرة، سألتها مباشرة: «لأي مجلة تكتبين؟»

أجابت: «مجلة «الأسبوع». أنقراها؟»

- نادراً. أهي التي تصدر في باريس؟

- نعم.

- وتجربين لها حوارات مع الأدباء؟

- الأدباء، المفكرين، الممثلين، الفنانين... كله ماشي.

وضحكت.

فسألتها: «ولكن أين المسجل؟»

بدت كمن فوجيء، وأجابت: «المسجل؟ آ، تقصد المسجل لتسجيل الحوار. أنا لا أستعمل المسجل كثيراً، أفضل كتابة الأجوبة

بخط يدي . ثم إنني اليوم لم يكن يخطر ببالي أنني سألتفكك ، هكذا ، فجأة ، دون سابق إنذار .

جاء النادل ، وطلبت قهوة تركية «مضبوطة» لكلينا ، وقلت لها : «على كل ، لن نجعل هذه جلسة لقاء صحفي ، بل جلسة فنجان قهوة ، و... » لم تواتني الكلمة الصحيحة .

فأسعفتني : «و... تعارف . أليست هذه هي الكلمة التي تبحث عنها؟»

أجبت مازحاً : «تمنيت لو أن لديك كلمة أكثر... دفئاً من مجرد تعارف..»

وخيل إليّ لحظة أن حمرة شاعت في خديها الشفافين ، وانفرجت شفاتها العريضتان كأن نفسها انقطع في صدرها . وانتبهت إلى عينيها الواسعتين ، وأهدأها الطويلة . كان وجهها يضاوياً ، ترتفع فيه عظمتا الخدين بشكل واضح ، فتؤكدان سعة العينين ، وعمقها ، كما تؤكدان فمها الممتلئ . وكان شعرها مسحوباً إلى الوراء يكشف عن أذنيها ، وكلتاها محلاة بقرط ذهبي بسيط ، كما يكشف عن عنق طويل أحسست أنها تبغي التأكيد عليه ، لأنه كان حقاً عنقاً جميلاً ، تمنيت لو أن قلادة ما تتدلى منه على كتفها الصوفية الخضراء - وحيداً لو كانت القلادة ذات خرزات كبيرة ، حمراء أو سوداء .

في لحظة الصمت تلك ، وأنا أتأمل وجهها ، وقلة حليها ، تخيلتها تستغيث بي لأمر لا أعرفه ، أو لا حيلة لي به . غير أنني أسرع وقلت ، وأنا أخرج علبة السكاير من جيبي : «فلنبداً بالتعارف إذن ... أتدخين؟» وفتحت لها العلبة .

بحياء أجابت: «نعم، قليلاً». وتناولت سيكارة، وتناولت أنا أخرى، وأشعلت السيكارتين بمقدحتي التي وضعتها مع العلبة على المائدة، كأنني أوحى إليها، وإلى أيضاً، بأن جلسة فنجان القهوة أن تطول، إذا اقتضى الأمر ذلك.

قالت، وهي تنفث الدخان: «هل أدهشك أنني قرأت رواياتك كلها؟»

- إلى حد ما. فالمعتاد عندي أن أرى من يقول إنه قرأ كتابي هذا أو ذاك، أو أنه قرأ اثنين منهما، وفضل السابق على اللاحق، أو العكس. ومن المعتاد عندي أيضاً أن ينتهي الكلام إلى طلب نسخة من روايتي الأولى، أو الأخيرة. هدية، طبعاً.

- وماذا تقول عندئذ؟

- أقول: أهلاً وسهلاً. ولكنني في الأغلب الأعمّ أعتذر، إذ قلما تبقى لديّ نسخ من كتبي.

قهقهت، والنادل يضع فنجاني القهوة أمامنا: «إذن لا أستطيع أن أطلب منك نسخة من «الدخول في المرايا»؟

- ولكنك تقولين إنك قرأتها؟

- النسخة التي قرأتها لا تحمل إهداء منك ولا توقيعك.

- سراب، أنت الآن تحاولين الحصول على نسخة منها، لأنك في الواقع لم تقرأها بعد.

- أبداً. وسترى، حين نبدأ جلسة الحوار، أنني سأناقشك فيها.

وهي آخر ما كتبت، أليست كذلك؟

- هي آخر ما نشرت.

- وهل لديك عمل جديد؟
- لديّ دائماً عمل جديد. ولكن ليس هذا المهمّ. المهمّ، من أنت بالضبط؟
- أنا، كما قلت لك، سُرّاب عفّان. وكما قلت لك أيضاً، أنا مجنونة.

- لا، لا. أنت عاقلة جدّاً.
- إذن، أنا عاقلة جدّاً، وأصاب أحياناً بالجنون.
ثم استضحكت، واستدركت: «أو أنا مجنونة، يعود إليّ أحياناً شيء من العقل.»
- وفي هذه اللحظة، أيها أنت؟
- كلتاهما معاً!

أطفأت سيكارتها بعصبية في المنفضة، وهي ما تزال تضحك ضحكتها الخفيفة. ولم أعرف كيف أعاملها، رغم ما اعتدت عليه من مثل هذه اللقاءات مع غرباء لا يشيرون في أكثر من الرغبة في إعطاء إجابات قصيرة عن أسئلتهم، وأبقى، نفسياً وذهنياً، في معزل عنهم - دفاعاً عن دخليتي. ودخليتي التي يتصوّرون أنهم يحاولون النفاذ إليها بحوارهم، أصونها على طريقي الخاصة بكثير من التجاهل، والمداورة، والمزاح.

رفعت عينيها إليّ فجأة. فدُعرت لما بدا لي فيهما من يأس، رغم الابتسامة الباهتة على الشفتين. وتذكّرت سهام في تلك اللحظة. تذكّرتها وهي تجالّد المرض وتحاول إخفاء آلامها عني، وتذكّرت وجهها الرمري وهو يرنو إليّ في أول الصبح بمزيج من البسمة

والبكاء. وأحسست كأن نظرة سراب نفذت إلى حيث لا أريد من دخيلتي، بحيث تقصّدت، واعياً، أن أرفض لنفسي الانزلاق إلى ما هو وهم من أوهامها - أو وهم من أوهامي أنا. هذه شابة مدلّلة، ولا شك، أتيج لها أن تعبت، ولو ببراءة، مع رجل يكبرها كثيراً، وقرأت له أو عنه كثيراً، فراحت تمثل أمامه دور العاقلة المجنونة، الضاحكة اليائسة، كأنها تصلح نموذجاً لشخصية يدخلها في إحدى رواياته. وما من ريب في أنها بعد قليل ستحدثني عن صدمة عاطفية، وأزمة عاتية تدفع بها إلى التفكير في الانتحار. ألا ترى كم أنا معذّبة، كم أنا تعيسة، وما رأيك فيّ، أيها الكاتب الباحث عن مواضيع تصبّها في قوالبك القصصية؟

ولم يكن لي إلا أن ألجأ إلى طريقي المجربة في مثل هذه الحالات، فسألتها، مستمراً بالمزاح: «هل أنت حزينة؟ يائسة؟ تفكرين أرفع الأفكار؟»

بقيت عيناها طافحتين ببؤسها المجهول، وهي تجيب بما لا يتفق ونظرتها: «أبدأ، أستاذ ناثل، أبدأ. . . هل تراني حزينة ويائسة؟ كل ما هناك هو أنني منذ أشهر، كنت أتمنى لو ألتقيك. ولا أكتحك أنني لم أفكر أول الأمر ببقائك صحفياً. بل كمعجبة. نعم، كمعجبة - كما نحن صديقك طلال. وكنت أتصور أن لقائي بك أمر مستحيل، أعني، الجلوس معك هكذا، والحديث إليك رأساً لرأس. أترى كيف تكون المرافقة المتأخرة؟»

- ها ها! إذن أنت لم تسعي للقاءني كصحفية تكتب لمجلة «الأسبوع».

- في البداية، قطعاً لا. ولكن تغيّر الأمر معي حين خطر لي فيما بعد أن أتصل بك لمقابلتك كجزء من عملي، لا غير.

- ولكنك لم تتصلي.

- أوه... الملاحظة التي تعرفها، حين تتصوّر أن الشخص الذي تريده سيكون هناك، ولن يهرب، وسيأتي الدور للاتصال به وفق ما تخطّط من عمل.

غير أن نظرتها المتوتّرة بقيت مركّزة في عينيّ على نحو يناقض كلامها. ومدّت يدها إلى علبة السكاير، وقالت: «أسمح لي بسيكارة أخرى؟» وسحبت واحدة، أشعلتها لها، وخيّل إليّ أن يدها رجفت قليلاً وهي تمسك بالسيكارة بين إصبعيها. غير أنني استمررت مازحاً بتجاهلي ما تبديه: «إذن، لك أن تقولي، سبق السيف العذل».

- وأتي سيف، أستاذ نائل! قل لي، من كان أبوك؟ أين ولدت؟ لماذا درست القانون؟ ما الذي يدفعك إلى الكتابة؟ هل لك إخوة؟ وأخوات؟ بمن تأثرت في صباك؟ لماذا أمضيت خمس سنوات على الأقل بين «جزيرة السمندر» و«المرايا» بدون نشر؟ كم مرّة تزوّجت؟

قاطعتها: «سراب، ارحمني، أرجوك، واعفني من قائمة أسئلتك الصحفية. ألم نتفق أن هذه جلسة فنجان قهوة؟
- وتعارف.

- تعارف، لا بأس، لكن بدون تفاصيل حياتيّة لا تميّز الصادق فيها من الكاذب. ثم أنا الذي أريد أن أعرف عنك شيئاً ما: ألم تقولي إنك تعرفيني جدّاً، جدّاً؟ بالمقابل، أتحيي لي أن أعرفك أنا، ولو قليلاً، قليلاً. ولأسألك من هو أبوك؟ أين ولدت؟ ومتى؟ وماذا

درست؟ ولماذا تقرأين كتيبي الواحد بعد الآخر، وتحاسبيني على السنوات الضائعة؟

- السنوات الضائعة! أجل السنوات؟ أم أربعها؟ انظري! إنها غطر من جديد، وبشدة!

كان المطر يضرب زجاج النافذة التي جلسنا قريبا، ولم أكن قد انتهت لذلك، وأنوار الشارع وواجهات الحوانيت ولافتاتها المضاءة تضيف لآلاء كثير الألوان على الغيث المنهمر. وقلت: «مهرجان المطر!»

- نعم. ولكن انظر إلى الزجاج، تجري عليه السيول على غير هدى.

ثم أضافت بصوت منخفض: «كالدموع..»

وقبل أن أرد، رفعت يدها عن المائدة باتجاه النافذة، وأتت بإيماء معبرة، وهي تحديق في الزجاج، قائلة: «سيول هنا، وسيول هناك، وقطرات توقفت في منتصف الطريق، وأخرى تنزاح ببطء نحو قطرات بجوارها...»

وتابعت بعيني السيول والمطر وإيماءات يدها: «هل ترين في ذلك شيئا لا أراه؟ كقارئة الفنجان؟»
- بالضبط.

- ولكن الخطوط والرموز المتشكلة في الفنجان يفترض أنها تتصل بمن شرب القهوة من ذلك الفنجان. أما هنا؟ بمن تتصل هذه الخطوط والرموز على زجاج نافذة لمهى عام؟
- آ، أستاذ ناثل، ألا تعرف؟ إنها تتصل بالاثنتين الجالسين قريبا.

- تتصل بنا، أنت وأنا؟

- طبعاً.

- إذن هاتي، اقرايها.

وبكل جدية، أو بجدية الهازل الذي يزعم أنه ينطق بما لا يعنيه شخصياً، قالت، وأصابها الطويلة العاطلة عن أية حلية تتابع حركة السيول قبل أن يتداخل بعضها في بعض نهائياً: «خريطة هائلة لطرق متشابكة، لن يعرف أحد السير فيها حتى النهاية. أترى؟ كلها طرق مسدودة، أو منحدرية نحو الهاويات. ولكن...»

قاطعتها، منسجماً مع لهجتها الجادة الهازلة، وقد بدأت أحب يديها وأرى في تماوج إيماءاتها الرشيقة تناغماً موسيقياً، كما في لقطة مكبرة من فيلم بارع التصوير: «أما من بارقة أمل؟»

فأشارت بسبابتها إلى بقعة انعكست فيها ألوان الأضواء لنيونات الدكاكين المقابلة: «نعم... هناك بحيرة صغيرة من... من نعيم مغلق على من فيه...»

وما كدت أركّز على هذا «النعيم المغلق»، حتى اخترقه سيل كثيف، وسراب تهتف: «لا، لا! حتى هذا النعيم الصغير جرفه الطوفان!»

- إذن سيجرفنا الطوفان؟

- هذا ما يبدو.

- لا تستعجلي الكارثة، أرجوك. لعل في هذه المساحة الشاسعة

بحيرة صغيرة أخرى نلجأ إليها؟

- أين، أين؟

وبمزيد من جذها المازل رفعت رأسها، ومدّت عنقها، وهي تبحث بعينها في أرجاء الزجاجة الكبيرة. بل إنها نهضت عن كرسيها لترسل بصرها إلى أقصى زوايا النافذة، وأنا أقرب عبثاً بمتعة تمازجها الدهشة من قدرة هذه الغريبة على رفع الكلفة بيننا بهذه السرعة، وبهذه البساطة. وراق لي، حين وقفت، ومدّت قامتها من وراء الطاولة، أن ألحظ نفور نهديا الصغيرين من وراء الكنزة الخضراء الطويلة، وضمور خصرها المحاط بحزام أسود عريض يشدّ الكنزة المستمرة بحاشيتها السفلى لتكسو أعلى تنورتها «التارتن» (الاسكوتلندية)

عادت وجلست، وهي تهزّ رأسها يميناً وشمالاً، وتكوّر شفتيها، تقول: «ولا بحيرة واحدة... الطوفان عام، أستاذ ناثل.»
«ووجدتني أقول: «أتعرفين؟ أنت مش قليلة، مش قليلة أبداً.»
وبخبت جميل سألت: «صحيح؟ هل اكتشفت في مزية تستحق الذكر؟»

اجبتها ضاحكاً: «قارئة فنجان من الطراز الأول! ولو أنني كنت أتمنى لو أنك كشفت لنا عن «نعيم مغلق» آخر، مهما صغر.»
وما كان منها إلا أن ضحكت ملء فمها وقالت: «في المطرعة القادمة، إن شاء الله!»

سألتها: «ومن قال إننا سنلتقي مرة أخرى؟»
أجابت بثقة الجادة المازلة: «أنا أقول. وهذه السيول كلها تؤيدني.»

- ولكن، قبل ذلك، كيف ستعودين إلى البيت في هذا المطر؟
نظرت إلى ساعتها، وهتفت: «أوه، تأخرت، تأخرت جداً.
ونسيت أن سيارتي ليست معي.»

- ولا سيارتي.

- ما العمل؟

- تكسي.

- آه، صحيح. مش مشكلة.

- أتعرفين؟ إلى ما قبل عشر سنوات، كانت الكلمة الوحيدة الأكثر
ترداداً على ألسنة الناس هي: «مشكلة»، كل شيء كان مشكلة. إذا
تأخر النادل قلنا: مشكلة. إذا لم نجد سيارة تنقلنا قلنا: مشكلة.
إذا أمطرت الدنيا، قلنا: مشكلة. إذا لم تمطر قلنا: مشكلة، أما
اليوم، فكل شيء أصبح «مش مشكلة»، نوپروليم. ينقطع الماء في
البيت فنقول: مش مشكلة. لا تشتغل السيارة في الصباح البارد
فنقول: مش مشكلة. نقف أنا وأنت تحت المطر المنهمر، ونقول -

فقاطعتني: «مش مشكلة. ولكن إذا تأخرت عن الساعة الثامنة في
وصولي إلى البيت، مشكلة، وقد تجرّ إلى مشكلة ومشكلة! هل
لاحظت، أستاذ نائل، أن المشكلة هي في أنها لا تُحلّ إلّا بمشكلة
أخرى؟ ستقول لي هذه جدلية هيغل، وتنسيني ما أنا فيه.»
- أنا أصلاً نسيت ما أنا فيه.

- جيد. إذن كلانا نسينا ما نحن فيه.

وشعرت عندئذ بانجذاب عنيف نحو هذه الغريبة المرحّة التي أتنني
مع الشمس الغاربة في يوم شتائي، وانحنيت باتجاهها بقدر ما

أستطيع دون لفت أنظار جلساء المقهى الآخرين، وقلت: «من أنت بالضبط؟ هل أنت حقاً سراب؟»

رفعت فنجانها الذي ربما كانت قد بقيت في ثمالة بضع قطرات من القهوة، رفعته إلى فمها ورشفت القطرات الأخيرة، وجعلت تلحس بلسانها الأثر البنيّ من على شفيتها، وأجابت: «أنا سراب. ولكنني أتمنى أحياناً لو كنت بحيرة. في الواقع، أتمنى لو كنت بحراً، ولكن البحر مالح، فأتمنى لو كنت بحيرة.»

صمتت، وأنا أتمنّى في وجهها، وفي شفيتها العريضتين، ثم أضافت، ضاحكة: «ومن كل بحيرات العالم، أتمنى لو كنت بحيرة طبرياً... أتصدق؟»

- بحيرة طبرياً؟ يقال إنها بحيرة جميلة جداً ومدهشة.

- اسمها يروق لي.

- هذه البحيرة تستطيع أن تكون وادعة كالحمامة، وفجأة، على غير عادة البحيرات، تصطبّخ كالمجانين.

- صحيح؟ ماذا قلت لك عني منذ البداية؟

- أنت لست مشكلة، سراب. أنت مشاكل!

كان المطر قد خفّ عندما خرجنا، بحيث يمكن تحمّل نثيشه وقد وقفنا تحت سقيفة المدخل، وأنا أجيل البصر بحثاً عن سيارة أجرة. اقترحت أن أرافقها في السيارة إلى بيتها، اطمئناناً عليها. ولكنها رفضت بإصرار. وعندما ركبت، وقد فتحت لها الباب وأغلقت وراءها مودعاً، تذكرت - والسيارة تنطلق - أنني لم أعطيها رقم هاتفها، ولم أأخذ رقم هاتفها.

ورحت مرة أخرى أجيل البصر في الشارع المتلألئ بالبلل والأنوار، بحثاً عن سيارة أجرة تحملني إلى البيت. وعندما توقفت لي سيارة وصعدت إليها، شعرت بوحشة لم أكن أتوقعها. لقد تمنيت لو أن هذه الصحفية الحسنة رافقتني. وبقيت أذكر ضحكتها، وعطرها الذي فوجئت به متضوئاً من شعرها عندما فتحت لها باب السيارة. وحاولت أن أتذكر بحيرة رأيتها، أو شاهدتها في فيلم سينمائي. وتساءلت: هل كنت صادقاً في وصفي لبحيرة طبرياً؟



حوالي منتصف الليل، وأنا على وشك إطفاء النور في مكتبي في طريقي إلى غرفة النوم، وقد أوت أختي سالمة إلى فراشها بعد أن اطمأنت إلى نوم غسان، دق جرس الهاتف. ففكرت أن من يتلفن في مثل هذه الساعة لا بد أن لديه أمراً مهماً لا يمكن إرجاؤه حتى الصباح:

- هلو.

- أستاذ نائل؟ أسفة لإزعاجك في ساعة متأخرة كهذه.

- من يتكلم، من فضلك؟

- سراب عفان

- الصحفية الحسنة؟

- لا أشك في أنك معتاد على الصحفيات الحسان؟

- وغير الحسان أيضاً... خير؟

وقبل أن تحيب، أضفت: «بعد أن افترقنا، خطرت لي أنك لم تطلبي

رقم هاتفي، على عادة أهل الصحافة. ولم تعطيني رقم هاتفك.»

- رقم هاتفي؟ غير مهم. أمّا رقمك فهو عندي منذ زمان.
- أولاً، طمئنني، هل وصلت إلى البيت بسلام؟
- نعم، وتذكّرت أنني لم أتفق معك على موعد لإجراء الحوار.
- ربّما فقدت الحماس، بعد فئجان القهوة والتعارف.
- بالعكس. تركتك وأنا واثقة من أنني سأراك غداً. ولا أدري من أين جاءتني هذه الثقة.
- من سيول المطر، ولا شك. هل قلت غداً؟
- نعم، غداً.
- متى؟
- ما عليك إلّا أن تعيّن لي الوقت، والمكان.
- سراب، أنا رجل كثير الأشغال، ولا سيّما في الصباح.
- حالما عدت إلى البيت، تأكّدت من أن المسجّل الذي عندي يعمل، وأن عندي شريطاً أو اثنين جديدين. أريد حديثاً طويلاً، لساعة، أو ساعتين إذا أمكن. وأنا أعلم أنك في الصباح مشغول في مكتبك. هل عندك موظفون وكتاب كثيرون؟
- ثلاثة أو أربعة، كأي مكتب محاماة.
- وفي المساء؟
- المكتب مفتوح، ولكنني لا أميل إلى الدوام في المساء.
- هلاً خرجت على عادتك هذه المرّة، غداً؟
- لا، لا أحبّ اللقاءات الصحفية في مكتبي. ما رأيك في المكان الذي شربنا فيه القهوة اليوم؟
- ممتاز. في السادسة مساءً؟
- في السادسة مساءً، لا بأس.

طوال السنوات الأخيرة كنت أتعهد، حين يطلب أحدهم موعداً معي، أن أجعل الموعد بعد يومين أو ثلاثة. وما أنا الليلة أكسر القاعدة - وربما قواعد غيرها - لمجرد أن اقترحت هذه الفتاة عليّ ذلك.

ولأول مرة منذ سنوات، وجدتني أنطلق إلى الموعد بمتعة، وأترقبه. ولأول مرة أيضاً، أجعل اللقاء في مكان عام، وأخشى - وأنا المطلوب - ألا يأتي الطالب في حينه، أو ألا يأتي أبداً.

وفي اليوم التالي، عندما وصلت إلى كافيتريا «الأنسام» في السادسة مساءً، أو بعدها بدقيقتين أو ثلاث، خشيت أن تكون صحفيي الحسنة قد سبقوني، فلم تجدني، فخرجت... كانت المائدة التي جلسنا إليها في الليلة السابقة خالية. أسرعت إليها قبل أن يحتلها أناس آخرون، وجعلت أتمن من خلال زجاج النافذة في المارين، رغم الإضاءة القليلة التي في الشارع، عسى أن أراها قادمة، وأعيد النظر في الوقت نفسه باتجاه المدخل. وعندما دخلت، بعد بضع دقائق، كدت لا أعرفها، لولا أنها سارت في خط مستقيم باتجاهي. قوام فارغ، وشعر طويل مرسل على الكتفين، وعينان باتساع الدنيا برحابها. ومع كل ما حاولت أن أتبدى به من وقار فقد استقبلتها استقبالاً كان سيعدّه أيّ إنسان يرانا استقبالاً «حافلاً»، لا مجرد لقاء صحفية بكاتب. وكان أول ما نطقتُ، ولنا أضافتها: «ما هذا الشعر الرائع!» وأحسست أنها أطلقت من يدها الباردة ليدي إشارة غامضة أجفلت لها، وأنا أنظر إلى عينيها، وفمها الضاحك. كانت ترتدي معطفاً طويلاً، زيتوني اللون، مفكوك الأزرار. فلما جلست

على الكرسي المقابل، نزعته عنها دون أن تقوم، بأن أخرجت ذراعيها من الردينين الواسعين، واستقرّ المعطف حولها، وبعض شعرها السابل تائه على ياقته. وكان حول عنقها هذه المرة عقد من حجر «الجاد» الأخضر يتدلّى على صدر فستانها الصوفي «البيج». ما أقلّ ما انتبهت في الماضي إلى ما تلبسه امرأة، وكان هذا نقداً تكررّه غاليتي سهام أيام زواجنا، فأدعيت أنني قد لا أنتبه إلى ما تلبسه النساء الأخريات، أمّا ما ترتديه هي، فلنني أنأمل في «قصّته»، وطرزها، وألوانه، وأستمع بها جميعاً استمتاعاً صامتاً. فتقول: لا أصدقك! وها هي سراب، في المرة الثانية التي أراها فيها، أدقّق في لون فستانها ومعطفها، كما دققت البارحة في لون كترتها وتنورتها. . . وقلت لها، وأنا أنظر ملياً في عينيها: «لست أدري، هل عيناك سوداوان أم خضراوان؟ هل هما سوداوان باخضرار، أم خضراوان باسوداد؟»

هزّت رأسها ضاحكة، وهي تقول: «لن أقول لك. ومن العبث أن تطيل النظر إليهما.»

- في هذا الضوء الخافت، لا شكّ أنها تتلوّنان بلون معطفك، زائداً عتمة المكان. أين المسجّل؟

وقبل أن تحيب كان النادل قد أقبل، وطلبنا، كما فعلنا أمس، قهوة مضبوطة.

ثم أعدت السؤال: «أين المسجّل؟»

زمت بشفتيها، وقالت: «آسفة، أستاذ نائل. لم أحضره.»

- نسيته؟ أهكذا ينزل الجندي إلى المعركة دون سلاحه؟

- نعم. أنا جنديّ بلا سلاح. ولكن (وهنا فتحت حقيبة يدها الكبيرة، وأخرجت منها كتاباً) أحضرت معي سلاحك أنت، «الدخول في المايا». هلاً أهديتي إياه بتوقيعك؟
- أهديه، وأنت اشترته بنقودك؟

تناولته من يدها، وفتحته على الصفحة الأولى الخالية وتردّدت فيما أكتب: هل أخطأ لها ما قد يفضح مشاعري الفجائية في تلك اللحظة؟ طبعاً لا - أو، بمقدار فقط. فكتبت: «إلى سرايٍ أشدّ بريقاً من المايا». ووقّعت.

تسلّمت الكتاب مني بلهفة، وقرأت ما كتبت. «الله!» هتفت، ثم ... ثم قرّبت الكتاب من شفّتيها، وأغمضت عينيها، وقبّلت توقيعِي.

وشعرت عندها بحرج شديد. أتمنّيني؟ أتمنّيني هذا الحبّ كله حتى تقبل اسمي؟ أم أنها تمثّل؟ ولماذا تمثّل؟ وعندما رفعت عينيها إليّ، والصفحة المفتوحة ما زالت لصق شفّتيها، كانت في عينيها ضراعة غريبة، أو لعلّه ذلك اليأس الذي لمحته فيها ليلة البارحة. ما الذي أنا مقبلٌ عليه مع هذه الفتاة الغريبة؟

في تلك اللحظة، لحسن الحظ، جاءنا النادل بالقهوة ليبدّد الشحنة التي انشحن بها الجوّ بانجماه غير متوقّع. وقلت وأنا أرفع الفنجان: «ما زلت أعتقد أنك لم تأتي بدون مسجّل. إنه في حقيقتك اليدوية الكبيرة هذه.»

- أبداً. هاك، انظر.

وفتحت الحقيبة أمامي، ولم يكن لي إلا أن أتناصح معها، وقلت:

«إذن، حسناً فعلت.»

وقبل أن تَمَسَّ قهوتها، ارتفعت يدها إلى صدرها، وجعلت تعبت بالعقد الأخضر، كأنما تتلمس به قوّة خاصّة، وقالت: «عندي اعتراف، أستاذ نائل.»

فبازحتها: «سراب، هل ارتكبت خطيئة بين الأمس واليوم، فأردت الاعتراف؟»

هزّت رأسها أن نعم: «خطيئة، أرجو ألا تعتبرها خطيئة مميتة.»
- يتوقّف الأمر على مدى خطورتها.
- إذن، فهي مميتة، لأنها خطيرة.

طاب لي نزوعها إلى الاستمرار بالمزاح وهي تتظاهر بالجد.
- اعترفي إذن، وأريحي ضميرك، ولو مؤقتاً.

أخذت رشفة من فنجانها وقالت ببطء: «أستاذ نائل، أنا كذبت عليك.»

صمتت هنيهة، ثم نظرت في عيني مباشرة، لتؤكد أن لا موارد في ما ستقول، وأنها جاذبة هذه المرّة: «أنا لست صحفية.»

- ولا تكتنين لمجلة «الأسبوع»؟
- ولا أجري حوارات مع الأدباء.
- ولا الفنانين ولا الممثلين ومن لفّ لفهم؟
- والمسجّل الذي أملكه في البيت من النوع الكبير، ولا أستعمله إلا لعزف الأشرطة الموسيقية.
- إذن، سراب، فرحتني.

- صحيح؟

- طبعاً. لأنك أردت لقائي لمجرد اللقاء بي، لشخصي.

- أردت أن أسمع صوتك، أن أراك تتكلم.

- ولكن هذا يخيفني. أن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه.

- هذا ما قالته صديقتي رندة الجوزي، التي حذرتني أكثر من مرة

من لقائك. أتعرف رندة الجوزي؟

- لا. من هي؟

- كاتبة مغمورة، مثلي. تطلعي على ما تكتب، وأطلعها على ما

أكتب. ولا ترضي إحداها عن الأخرى. أتعرف ماذا قالت عنك؟

قالت إنك قمعتني.

- أنا قمعتك؟ أنا الذي لم أكن أعلم بوجودك حتى البارحة؟

- قمعتني بكتابك الأخير هذا. . . ما كدت أنتهي من قراءته

حتى رحلت أمزق مخطوط رواية كنت على وشك الفراغ منها. ورأيتني

رندة أفعل ذلك، فراحت تكرر، وكانت هي أيضاً قد قرأت

كتابك. وقالت: «أرهبك نائل عمران! قمعك! إياك أن تكتبي بعد

اليوم!..»

- كلام فارغ. بل ستكتين. ستكتبين رغماً عن نائل عمران.

وأتمنى لو أقول: ستكتين بسبب نائل عمران. أخبري صديقتك - ما

اسمها؟ - أن هذا ما يقوله نائل.

- ولكنك لم تقرأ شيئاً مما كتبت. من أين لك هذه الثقة بي؟ أمن

سيول مطر البارحة أيضاً؟

- طبعاً. . . انظري إلى النافذة الآن: ما أصفأها!

- ولكن لا أرى من خلالها إلا الظلام .
- لا تشاءمي . أنت الآن ترين من خلالها الظلام وقد هُشمت
الأضواء .

- هل الظلام جسد يتهشم؟
- بل هو روح ، والنور هو الجسد .
- لست أدري إن كنت أتفق معك . أتصور أن الظلام هو الجسد ،
والروح ، إن وجدت ، هي النور الذي يهشمه أو ، على الأقل ، يعيد
تركيبه ، ويوجهه .

- قد تكونين على حق . ولكنني ، على عكس المفهوم السائد ،
أتصور أن الجسد هو النور الذي ، إذا أُبْطِلَ بروح مظلمة ، انطفأ .
وإذا انطفأ الجسد ، كان مجرد مادة ميتة . ولكنه قد يضرم الروح بنوره
ويلهب فيها النار ، ويبقى الاثنان مشتعلين .

- أظن أننا ، جوهرياً ، متفقان .

- ولماذا لا نختلف؟

- فلنختلف إذن .

- ما لون عينيك؟

ووجدتني دوغماً تفكير مسبق أمدّ يدي إلي يدها المستقرّة قرب
فجبانها ، وأضغط عليها . فقلبت يدها لتمسك بكفّي وتضغطها
لثانيتين بأصابعها الطرية ، ثم سحبتها ، وأخذت رشفة أخرى من
قهوتها .

أمكن هذا؟ أمكن أن يأتي الحب مرةً أخرى كالصاعقة؟ أم أنني
بُتُّ عديم المقاومة ، وسقطت عند أول إغراء؟ وجاءتني ذكرى رشاً

منصور في بيروت قبل أكثر من عشر سنوات، قبل انفجار مأساتها الماحقة. جاءني ذكرى تلك الليلة التي وجدتني فيها أعانق تلك الطالبة الجامعية، وكانت تلك أول مرة ألتقيها فيها، بعد محاضرة ألقيتها في الجامعة الأمريكية. وشعرت أن الدنيا ما عادت تعني فجأة إلا هذا الوجه الهارب من إحدى لوحات بوتيشلي بظالبي بما نسيته منذ عهد بعيد. وفي المساء التالي سألت سيّدة جلييلة كنت ضيفاً على مأدنتها: «أيمكن أن تحبّ فتاة في الحادية والعشرين رجلاً في الخامسة والأربعين؟» فضحكت وقالت، ناظرة في عينيّ نظرة العارف: «عندما تحبّ المرأة رجلاً لا تسأل عن عمره.» لا أدري إن كنت اقتنعت بجوابها، غير أنني لم أسألهما عن حالي أنا، وأنا أدري بها: فقد كنت قضيت النهار كالماخوذ مع رشاً، نتقل من مقهى إلى مقهى، ونتأمل البحر من على صخور الروشة، ونتحدّث عن انتحار العشاق... صاعقاً جاءني ذلك الحب، وكنت أحسب أن مثله لا يحدث إلا للذين هم في مطلع العشرينات من عمرهم. صاعقاً جاءني، وكنت أحسب أنني انتهيت من مثله بعد أن تزوّجت من سهام خير الدين عن حب جامع سبّب لي ولها إشكالات مؤلمة مع أهلها وأهلي، وقد مرّت سبع سنوات على زواجنا لم يتسلّل بيننا في أنثائها دخیل يفسد علينا يوماً واحداً من حبنا. تالة الظاهر وحدها كانت في أول الأمر تحوم حولنا كطيف قد يداهنا في ساعة من الغفلة محملاً بالخطر، غير أن زواجها فيما بعد من شريف الترك أقصى ذلك الطيف عني. وكان أسبوعي الأول مع رشاً في بيروت وبرمانا وجونية أسبوعاً خارجاً عن الزمن: أسبوعاً كل ساعة فيه بدهر كامل من الإنارة والعنفوان. وعدت إلى سهام لأجد أنني ما زلت أحبّها، بل لعلني ازدددت حباً لها، وازددت

شهوة في تملكها، مع كلّ تشبّي برشا. وعشت التناقض اللذيذ الممزّق ساعة بعد ساعة. وكانت الأشهر القليلة التالية، وأنا أكتب إلى رشا، ونجيني، أشهر البحران الصوفي، كأني في دوران لا ينتهي من رقصة الدرويش. وكانت سفرتي إلى بيروت، كل خمسة أسابيع أو ستة، بحجة قضية في المحاكم اخترعتها تستدعي حضوري الشخصي هناك، عودة كل مرة إلى المزيد من البحران الجنوني. إلى أن فرغت رشا من كتابة وتقديم رسالتها للماجستير (بالانكليزية) عن «جلال الدين الرومي والقديسة تيريزا»، وعادت إلى رام الله في الضفة الغربية، حيث استحال عليّ الذهاب تحت ظلّ البنادق الإسرائيلية.

أمرة أخرى تمزّق البروق سواد الليل، وتصيني الصاعقة؟ وإذا راحت سراب تتكلّم المزيد عن الجسد والروح، كما تراها، كان بي ما يكفي من الوعي لأتساءل: أيمن أن أعود فأعرف نشوة الدرويش في دورانه الراقص؟ أمي لمسة يدها؟ أمي ألوان عينيها؟ أمي ضحكة أسنانها؟ هذه عابثة شهية انبثقت بين الباردة والليلة من العدم، وفي شعرها المنسرح تهاويل شيطانية.

رأني سراب ساهماً، أصغي ولا أجيب. فقالت: «هل سمعت شيئاً مما قلت؟»

أجبت: «لم أسمع شيئاً، وفهمت كل شيء.»

فكركرت: «بل سمعت كل شيء، ولم تفهم شيئاً.»

فقلت بكل ما استطعت من جدّ: «أتذكرين ليلة أمس لأول؟
أتذكرين الرعد المتواصل، والصواعق؟»

- أموت خوفاً من الرعد. لم أستطع النوم طوال الليل، كأن السماء
ستهيار فوق رأسي وتحطمني. ولكنني فتحت الستائر لأرى الوميض
الهائل يتكرر وكأنه هو الذي يزجر ويهدد الكون بالويل.

- سراب، أنا أعشق البروق الصاعقة. ويبدو أنني قد صُعقت.
- بُعد عنك الشر، دكتور نائل! لو صُعقت، لكنت الآن فحمة
كبيرة.

- أنا فحمة كبيرة، ولكن متأججة... سراب، من أنت؟ لماذا لا
تجيبيني؟ من أين أتيت؟ من أرسلك إلي؟ لماذا لم تسمعي نصيحة
صديقتك - ما اسمها... .

- رندة الجوزي؟

- نعم، رندة. اسمها جميل. ولا أشك في أنها ذكية كذلك.
- جذباً. وهي مثلي تموت خوفاً من الرعد، وتحب متابعة البرق.
كنا معاً ليلة أسس الأول.
- ليتني أنا كنت معك.

- لتحميني؟

- لنصعق معاً، أنا وانت!

ومددت يدي وأمسكت يدها بقوة، وأردت لأصابعي أن تتحاور
مع أصابعها، وأحسست بالفعل أن أصابعنا نداخلت وراحت
تتحاور، وما عادت بنا لحوالي دقيقة حاجة إلى الكلام، لئلا أنها
التفتت حولها بفزع، والمقهى يكاد يمتلئ بروآده، وسحبت يدها
لتمسك بها فنجانها الذي لم تبق فيه إلا بقايا القهوة الكثيفة، وترفعه
إلى شفيتها دون أن يصيبها منه شيء، وعيناها السوداودن الخضراوان
مرفوعتان إليّ.

وبقيت صامتاً أتأمل وجهها. وقَدّمت لها سيكارة، وعندما أشعلتها لها، تمعّنت في الضوء الذي أنار شفّتها أسفل أنفها لبرهتين - وتذكّرت وجه سهام المنحوت في الرخام: هنا أيضاً رخام يريد من يتحسّس صفله الأملس. وكدت بعد أن وضعت المقدحة على المائدة أن أرفع أصابعي إلى شفّتها وأنفها لأطمئنّ إلى أن هذا الرخام المصقول يستجيب للمس. وخيلَ إليّ أنها علمت بما يدور في ذهني، فرفعت رأسها، ثم أدارته قليلاً، وهي تنفث الدخان، كأنها تريدني أن أتعلّم منها جيداً.

وفجأة قلت: «بروفيلك يُظهر كيف تتصل أرنبه أنفك بجبينك، وكأنك تمشال إغريقي. وجهك رأيت مثله في تمائيل الآلهة في الأكروبوليس بأثينا.»

- هذا إطرء جميل، أحبه. ما من امرأة إلّا وتحبّ الإطرء.

- هذا ليس إطرء. إنه محاولة لتحديد شيء أراه أمامي.

- جعلتني «شيئاً»، دكتور ناثل؟

- شيئاً يتصل بأعظم ما صنع الإنسان. إنه حضور، حضور

قويّ، رائع.

- وجهي فقط؟ أرنبه أنفي؟

- كلّك، كلّك... سراب، كيف لم تتزوّجي حتى الآن؟ كيف لم

يخطفك أحد؟

- بل تزوّجت. وكانت تجربة مرّة خلّصت نفسي منها بسرعة،

وبصعوبة.

- حدّثني عنها.

- الآن؟ أتريدني أن أعكّر هذا الينبوع العذب الذي جعلتني
أستحمّ فيه؟

- وفي هذا البرد؟

- في هذا البرد الجميل، المطعون بالصواعق.

- سراب، بعبارتين اثنتين خلقت صورة كاملة، صورة غير عادية.
أكاد أرى إله الصواعق - جوبيتر، أليس كذلك - يرمي بقذائفه النارية
حول حورية جُنت من الحب في يوم بارد، وراحت تستحمّ في مياه
ينبوع تجمّعت بين الصخور... وجوبيتر عاشق ماهر. إنه يغازل
الحورية على طريقته.

ضحكت سراب ملء فمها، وهزّت خصلات شعرها بمنّة ويسرة،
ودنت مني بوجهها بقدر ما تستطيع، قائلة: «أتدري؟ إنك تذكّرني
بدروس الدراما الكلاسيكية في كلية الفنون. أنا لم أخبرك أنني درست
الفن المسرحي في كلية الفنون. وكان أستاذنا منذر فاضل خريج أحد
معاهد فرنسا، ويعشق كورني وراسين، ويصرّ على أن نتعرّن بتمثيل
مقاطع طويلة من مآسيهما، على غرار الكوميدي فرانسيز أيام زمان.
وكان علينا أن ندرس الإشارات الأسطورية اليونانية والرومانية التي
تملأ تلك النصوص.

- ولكن دراستي أنا كانت شيئاً آخر بالمرّة.

- فلا أعترف لك مرّة أخرى: رغم كل ما قرأته لك، كنت أخشى
أنك عندما نلتقي ستحدّثني بلغة قانون العقوبات، وذيل قانون
الشركات، وتعديل ذيل قانون الجُنح، وتعديل الذيل، وتنازع
القوانين...

- اختصاصي الحقيقي هو القانون الدولي، الذي درسته في جنيف، ولكنني مرغم على العمل كمحام. وهو ليس إلا وسيلة رزق. أما هواي الفعلي فشيء آخر تماماً.

- دعني أسألك: لو خيرت بين الخبز والحب، أيها تختار.

- أنا يا سيدي رجل عملي: أختار الخبز.

- يا خيبي! أما أنا فأقول: أعطني حباً، وعيشي على الماء.

قابلتني بوجهها وعينها الواسعتين وشفتيها الأشبه بمرمر وردي، واجتاحتني رغبة هائلة في أن أحتوي خديها بين راحتي وأقبليها عبر المائدة، عبر بقايا القهوة، وأعقاب السكاير. ولم يكن مني إلا أن صحت صيحة مكتومة: «آه، وقليل من الخمر!»

وتجمد وجهها على ابتسامتها. أم أن ذلك كان يأسها القديم يأتيها بين لحظة ولحظة؟ ثم دنت من وجهي وهمست: «ألم أقبل لك إنني مجنونة؟»

وانتابني حزن غريب وأنا أرنو إلى عينيها. وتمتمت: «تبين لي أنني أنا المجنون.»

- أتدري كم الساعة؟ تخطت الثامنة. حصّتي من الليل نفذت. سندريلاً يجب أن تعود راكضة إلى موقدها.

- أعطيك حصّتي من الليل، وهي لا حد لها. فابقي.

- يا ليت! عليّ أن أكون في البيت قبل عودة أبي من العيادة.

- من أنا حتى أناقشك في أمور كهذه؟

- أنت حرك؟

قالت ذلك، ودفعت بكتاب «المرايا» في حقيبتها.

- يلاً. معك سيارة اليوم؟ سأرافقك إليها.

كانت سيارتها في نفس الفرع الضيق المعتم الذي أوقفت فيه سيارتي. بل لم يكن يفصل بين السيارتين إلا سيارة واحدة.

فتحت باب سيارتها، ومدت يدها لتصافحني، غير أنني رفعتها إلى شفتي ولثمتها. وقبل أن أنظر حولي لأتأكد من خلو المكان من عابري السبيل، أمسكت بوجهها بين يدي، وقبّلت فمها، ولم أطل القبلية الشهية تحسباً للمكان العام، ولكنني رأيت في عينيها وشفتيها، رغم قلة النور، ياساً وألماً مريعين، وقدمت لي شفيتها بضراعة هائلة مرة أخرى. فأطبقت فمي على فمها بضراوة، وكأنني لم أقبل امرأة منذ عشر سنين. ولهثت على خدي: «أوه، نائل...»

قلت لها وهي تستقر على مقعدها: «غداً؟ ولكن لا. غداً عندي دعوة عشاء.»

قالت وهي تشغل المحرك: «سأخبرك الليلة ونتفق. هه؟»

عند عودتي إلى البيت، كانت سائلة قد هيأت عشاء لها ولغسان، وأسرعت بإضافة صحن آخر لي، قائلة إنها لم تكن تعلم متى سأعود. وبعد العشاء، أطلعني غسان على دفاتر القراءة والحساب والمعلومات الحياتية، والتمارين التي انتهت منها. ثم رافقناه أنا وعمته إلى فراشه، وهو يمانع ويطالب بالتفرّج على سهرة التلفزيون، ونحن نصرّ على ضرورة نومه في تلك الساعة، لكي ينهض في الصباح مليئاً بالحيوية، ويبدأ أقرانه في الدرس واللعب في المدرسة، إلخ.

في منتصف الليل ذهبت إلى غرفة نومي، ونقلت إليها أحد جهازي الهاتف اللذين في البيت، ووضعتهم على «الكومود» قرب رأس

فراشي، على غير عادتي. كنت في انتظار مخابرة من سراب، وبى إحساس عميق بأنها لن تنام قبل أن تتصل بى. حاولت أن أقرأ في الفراش، على غير عادتي أيضاً، فلم أفقه كلمة مما قرأت. وما كاد جرس التلفون يرنّ أول رنة حتى رفعت الساعة. وجاء صوتها همساً، كأنها تخشى أن يسمعها أحد وهي تتلفن.

- ألم تنم بعد؟

- وعدتني بالمخابرة، فكيف أنا؟

- أنا متعبة بشكل بديع، وأريد الآن النوم.

- وما الذي أتعبك بهذا الشكل البديع؟

- كتابة المزيد من يومياتي.

- نعم؟

- منذ مدة وأنا أكتب ما يحدث لي كل يوم - ما يحدث، وما لا

يحدث.

- وما لا يحدث أيضاً؟

- إلى حدّ ما.

- يبدو أنك اليوم كتبت عما حدث - عن جلستنا هذا المساء؟

- صفحات وصفحات.

- بحرارة؟

- وبعمق.

- هل ستسمحين لي بقراءتها؟

- مستحيل! أفضح لك أسرارى؟

- وهل معرفة أسرارك فضيحة؟

- وأبي فضيحة... هل قلت إن لديك دعوة عشاء غداً؟
 - لسوء الحظ. مع طلال صالح، وآخرين لم أرهم منذ زمان.
 أتذكرين طلال؟
 - وكيف أنساه؟ وعدنا بقصيدة، وعلينا أن نطالبه بإنجاز الوعد.
 - سأذكر له ذلك. وبعد غد...
 - نائل! لا أستطيع أن أفكر في ما بعد غد...
 - ستخبر.
 - تصبح على خير. ولكن، قبل أن تنصرف، قل لي: إن أنا
 لسبب ما لم أستطع النوم، أتأذن لي بإيقاظك للحديث معك؟ هل في
 البيت من يزعج من جرس التلفون في آخر الليل؟
 - لك أن توقظني في أية ساعة شئت. ولكن افرضي أن أباك
 سمعك يتحدث بالتلفون في الثالثة صباحاً؟
 - سيدبحني. ولكن ما هم... ثم إن أبي ثقيل النوم... أوه،
 أريد أن أنام الآن... مرة أخرى، تصبح على خير.



فرحت جداً بلقاء صديقي القديم عبد الله الرامي بعد انقطاع
 طويل بيننا. فأننا لم أره منذ مطلع السبعينات، بعد تلك الصيفية
 الغنية بالنقاشات التي قضينا معظمها في سوق الغرب بלבان. كان
 عمله السياسي، منذ منتصف السبعينات، يقتضي منه التكتّم الشديد
 في حركاته، وأغلب الظن أنه كان يتنقل من بلد إلى آخر باسم
 مستعار، أو بأكثر من اسم. وكان معظم نشاطه الفدائي فيما فهمت
 في أقطار أوروبا الغربية. أدهشني أن أراه، وهو الآن على مشارف

الخمسين، وكان يد السنين تعجز عن أن تطوله. أسود الشعر، عالي الضحكة، متوقّد العينين، يمشي بظهر منتصب وكان مآسي الدنيا - والله يعلم أنه عرف الكثير منها في السنين الخمس عشرة الأخيرة - لا تستطيع أن تحني كتفيه.

سألني في الحال عن سهام: فهو لم ينسَ إعجابها بكتاباته في إحدى المجلّات اللبنانية يومئذ، وكيف كانت لا تضيّع فرصة لمرافقتنا في جلساتنا وأحاديثنا لإعجابها الصريح بحمّاساته التي يشتعل بها ولكنها لا تحجب أبداً خفّة ظلّه ودعابته.

وقد صُدم بشكل لم أتوقّعه عندما أخبرته بوفاتها، وقال بصوت يهزه الحزن: «كنت أعتبرها من أروع من لقيت من النساء.» وحدّثنا فيما بعد عن زوجته الدانمركية التي تركها في كوبنهاغن، وقال بصراحته المحبّة، إن انجذابه إليها «بدأ سياسياً، وتحوّل إلى جنسي، وهو الآن في حالة ما بين بين...»

كانت سهرتنا معه في فندق «هوليداي». وكان طلال، صديقه القديم الآخر، في حالة تجلّ شعري، كدأبه كلّما تحطّى بالويسكي الكأس الثانية. وكان معنا سلمان أبو عوف الذي يدعوا نفسه «الأديب الذي ضرب على نفسه الصمت»، رغم شهرته طوال السبعينات بما كان يكتب من عمود أسبوعي في جريدة «الرقيب»، بالإضافة إلى روايتين اثنتين حظيتا آنئذٍ باهتمام واسع هنا وفي عدة أقطار عربية، أصرّ بعدهما على أنه، بعد أن قال ما قال لحوالي عشرين سنة، «لم يبق ما يستحقّ عناء القول». وينخزني بين حين وحين، قائلاً: «وهذا نائل، رغم كل نجاحه في استغلال تناقضات الشرائع

والقوانين، لا يكف عن القول، روايةً بعد رواية بعد رواية... والله لو كنت شهريار لأمرت مسرور بضرب عنق شهرزاد قبل أن يدركها الصباح، لكي تمسك عن الكلام المباح! فعلى الطيب الهادي، ونحن نضحك، بأن شهرزاد كانت ستجمد ذراع مسرور وهي مرفوعة بسيفها في الفضاء، بقولها له، وكلها إغراء: «بلغني أيها السيف السعيد...» وأين السيف من الكلمة؟

والطيب الهادي، صديقي القديم أيضاً، كان في زيارة نادرة بشأن دراسة يكتبها للمجلة التي يعمل فيها في باريس. وهو يراوح في إقامته بين باريس والرباط، وذلك منذ أن خرج من بيروت مع المقاتلين الفلسطينيين في السفينة التي حملت أعداداً كبيرة منهم إلى تونس في أوائل الثمانينات. وكان من الأدباء المغاربة القلائل الذين وجدوا مستقراً في بيروت في السبعينات، حيث عمل في الصحافة، على هامش النشاط الفلسطيني فيها أول الأمر، ثم منخرطاً في الثورة بقلبه وكيانه جميعاً، حتى غداً من أعلام تلك الشلة المدهشة التي، في بيروت، غيرت وجه الصحافة العربية في كل مكان، وساهمت، بانطلاقها من واقع النضال الفلسطيني، في تغيير مسارات الشعر والرواية والنقد في الوطن العربي بأجمعه.

وكنت أكنّ للطيب حباً لأنه، عدا كل شيء آخر، عاصر أيامي السحرية مع رشاً منصور، وكثيراً ما التقينا ثلاثتنا معاً في مقاهي ومطاعم بيروت في سهرات تستمر حتى الفجر... إلى جانب شجاعته الفكرية، تعجبي ذاكرته الفذة: فهو يحفظ القرآن الكريم حفظاً مدهشاً. فإذا ذكر أحدهم آية، وقام حولها خلاف أو جدل،

ذكر الطيّب في آية سورة بالضبط وردت، والسياق الذي وردت فيه. وإذا قرأ شيئاً راق له، انطبع نصّه في دماغه! وفي تعلّقه بالشعر، كان القديم والحديث يتمازجان على لسانه دونما جهد، من امرئ القيس والشنفرى إلى أحمد شوقي وإبراهيم طوقان، فضلاً عن معاصريه وزملائه الكثيرين من الشعراء.

وهكذا كان اجتماعنا في تلك الليلة حدثاً رائعاً لنا جميعاً. واختلطت مواضيع حديثنا اختلاطاً هائلاً، من الحميم والخاص، إلى ذكرياتنا المشتركة، إلى مواضيع الساعة العامة، العربية منها وغير العربية. ويبدو أن الطيّب قد اكتشف مؤخراً الكاتب النرويجي كنوت همسون الذي قرأه بالفرنسية، ورأى في تأثيره بنيتشه تلك النوازع التي توجد أبطالاً متفردين في شعوب هي، كما قال الطيّب، لسوء حظها، بحاجة إلى أبطال، وإذا البطل يرقى قمم المأساة لا وحده فحسب، بل بشعبه جميعاً، وعندها هاتي يا مآسي وهاتي يا مذابح! واستشهد بقول إحدى شخصيات همسون المهمة، بطل ثلاثيته «كارينو» الذي يقول ما معناه: «إني أؤمن بذلك الذي يولد زعيماً، ذلك المستبد الذي توجده الطبيعة، ذلك السيّد القائد، لا الرجل الذي يختاره الآخرون، بل الرجل الذي يختار نفسه ليكون حاكم الجماهير. إني أؤمن بشيء واحد، وأمل أن أراه يتحقّق: وهو عودة الإرهابي الأعظم، الخلاصة الحيّة للسطوة الإنسانية، القيصر...»

ثم أضاف الطيّب: «هل كان همسون يتنبأ، قبل ثمانين سنة أو أكثر، بما راح يتدافع نحوه العرب، وشعوب العالم الثالث، باحثين عن الإرهابي الأعظم قيصراً لهم، ولكن دون أن يحقّق القيصر المزعوم

إلا كل ما هو النقيض من أحلام نيتشيه؟... قبل شهرين كتبت مقالاً عن بطل كنوت همسون هذا، وحاولت أن أرى كيف يتحقق، أو لا يتحقق، في الأنظمة العربية المعاصرة. أتدرون ما حدث؟ منع عدد المجلة الذي ظهر فيه المقال في معظم الأقطار العربية! وكانت تلك المرة الثالثة التي يمنع فيها عدد من المجلة بسبب مقال لي، فعاتبني رئيس التحرير بقوله: دخيئك يا أبو محمد، أنا كلّي احترام لأرائك، ولكن لا تسبّب لي منع المجلة في العالم العربي كل أسبوع. بدنا ناكل خبز... ومنذ ذلك اليوم يصّر العمّ أبو حسن على قراءة كل مقال أكتبه قبل أن ينزله في المجلة!

في أثناء ذلك الكلام الكثير، المتراشق في كل صوب، لم تغب سراب عن ذهني لحظة واحدة. وعلّلت نفسي بأن السهرة قد تنتهي حوالي منتصف الليل فيتاح لي الحديث معها هاتفياً قبل النوم. ولكن السهرة التي جمعتنا بعد غياب السنين الطويلة لم تكن لتنتهي بهذه السرعة. واستمرّت حتى ما بعد الواحدة بعد منتصف الليل.

في البيت وجدت أخي في المكتبة، تراجع مجموعة من الأوراق، والقلم بيدها. فسألتها: «ما هذا يا سائلة! أما غت حتى الآن؟»

قالت وهي ترفع النظارة عن عينيها، بادية الإعياء: «عندي تقرير سنوي أقدمه غداً للمدير العام، لم أستطع إتمامه إلا قبل ساعة. وها أنا أراجعه وأصحّحه التصحيح الأخير. كيف كانت سهرتك؟»

- ممتعة جداً. هل خابرتني أحد؟

- نعم. سيّدة خابرتك مرّتين. أتصوّر أن لها قضية عندك.

- هل ذكرت اسمها؟

- كتبت اسمها على ورقة، هنا، لئلا أنساه.

وناولتني الورقة. فلما قرأت الاسم، دُهِشت جداً «رندة الجوزي؟ متأكدة».

- متأكدة. لماذا تسمح لعملائك بالاتصال بك في البيت؟ يجب أن تعطيههم رقم هاتفك في المكتب فقط.

- هذه سيّدة لم أعطها رقماً قط. بل لم أرها قط أصلاً. ألم تترك رسالة؟ ألم تترك رقمها؟

- لا. سألت عنك بعد العاشرة بقليل، ثم أعادت الكرة عند منتصف الليل. كيف يخطر لأحد أن يتلفن في مثل هذه الساعة؟ عندما أخبرتها أنك لم تعد بعد، قالت إنها ستتصل بك غداً في المكتب.

- لا بدّ أن لديها قضية مهمّة. بلّا، عزيزي، قومي نامي. غسان نائم؟

- سهر قليلاً، ثم أقنعتة بالنوم.

- طيّب. تصبحين على خير.

انجھت نحو غرفتي وأنا أتساءل: ما الذي تريده صديقة سراب بهذا الإلحاح؟ أرجو ألا يكون قد وقع مكروه لسراب... ووقفت أمام تمثال سهام، أطبل النظر في العينين، في الأنف، في الشفتين. ما الذي تفكرين، آيتها الغالية؟ أحزينة أنت؟ أغاضبة؟ أساخرة؟ واقتربت منها، وتحسّست وجهها البارد وجبينها، ومررت بأصابعي على فمها، وعنقها. «أمرّة أخرى، أمرّة أخرى؟» هذا ما تقولين يا سهام، أدري، أكاد أسمعك...

في ظهيرة اليوم التالي، وأنا أراجع الصيغة النهائية للنصوص العربية والإنكليزية لاتفاقية مقالة هيأها معاوني الأستاذ عبد الخالق شعيب، حوّل عليّ رزوقي مكالمة هاتفية (بعد أن سألتني على الخط الخاص: «سيدة اسمها رندة الجوزي تريد مكالمتك. هل أحوّل عليك الخط؟» فقلت نعم).

ما كادت تقول هلو، حتى شعرت أنني، رغم فضولي الشديد، يجب أن أتحفظ في ما أقول بشأن سراب - وهل لديها ما تحدّثني فيه غير موضوعها؟

«أولاً»، هكذا بدأت، رأساً، «أرجو أن تعذرني لهذه اللجاجة مني. أمس اضطررت إلى الاتصال بك في منزلك، فلمّا أجابتنى زوجتك -

قاطعتها: «السيدة التي أجابتك ليست زوجتي، إنها أختي. من أين حصلت على رقم هاتفي؟»
- من صديقتي سراب. وأنا في الواقع أريد الحديث إليك بما يخصّ سراب.

- هكذا توقّعت.

- كنّا معاً معظم نهار أمس، وتحدّثنا طويلاً عنك. لست أدري لماذا أصغي إلى قصصها التي لا نهاية لها، مع أنها نادراً ما تصغي إلى تعليقاتي ونصائحي. أو، إن هي أصغت، فإنها لا تلتزم بها.

- وماذا أردت أن تخبرني أمس، عند منتصف الليل؟
- رسالة وعدتُ بإيصالها إليك، لأن سراب اكتشفت أمس عصراً أن تليفونها في المنزل معطوب، أو مقطوع. فطلبت إليّ أن أتصل بك

من منزلنا أن تكون - ربّما - قد عدت من حفلة عشائك، لأخبرك بأنها في انتظار كلمة منك عن لقائكما اليوم. وهذا هو السبب في أنني عدت واتصلت في منتصف الليل.

- شكراً، أنسة رنّدة، على اهتمامك.

- ماذا أقول لها؟ لأننا بعد ساعة سنلتقي للغداء معاً.

- قولي لها: المكان نفسه، الوقت نفسه.

- في «الأنسام»، في السادسة مساءً؟

- يظهر أنك تعرفين التفاصيل.

- كلّها. ولو أنني أخشى عليها اندفاعها الزائد.

- نعم؟

- اسمح لي أن أقول لك إنها كانت تتحدّث وكأنها لم تر رجلاً في حياتها من قبل. وقلت لها بصريح العبارة: اعقلي يا امرأة، وابتعدي عن المشاكل.

- أنا لا أرى أية مشاكل. كل ما في الأمر أنها أرادت لقاء صحفياً معي، رغم أنها أنكرت ذلك فيما بعد. أكاد أجزم أن الذي يهتمها هو مقال تريد أن تكتبه.

- ألسن تبسّط الأمر أكثر مما يجب، أستاذ نائل؟

- هل ترين أنت من كلامها ما هو أكثر من ذلك؟ حتى في تنويع مواضيع الحديث، أشعر أنها تفكّر من خلال أسئلتها الصحفية الموضوعية مسبقاً.

- لا، لا. هذيانها أمس لم يكن كلاماً يكتب لمجلة... على كلّ، أرجو أن أراك يوماً، فالحديث طويل.

ولم يكن مني إلا القول بمنتهى الدبلوماسية: «نحن بين الأيادي، يا سيّدي... وحتى ذلك الوقت، أوحى السادسة مساء اليوم، بلغها تحياتي..»

ما هذه الصداقة الغريبة بين هاتين الفتاتين؟ ما هذا التكاشف المطلق بينهما؟ تبدو رنده أكثر «تعقلاً»، ولكن لعلها الغيرة من صاحبتهما هي التي تدفعها إلى مثل هذا الموقف. حتى أسلوبها في الكلام يذكّرني بأسلوب سراب. سأنبّه سراب إلى ضرورة التستر بشأن الخصوصيات العاطفية. المجتمع قاسٍ، ومنافق. وعلى المرأة أن تصون ما في قلبها حتى عن أعين أقرب الناس إليها. هذا إذا أرادت تجنب المشاكل. ولكن سراب لا تريد تجنب المشاكل. سأحذّثها في هذا كلّ اليوم... الساعة السادسة. ما أبعدّها! ونائل عمران أمسي الشيخ نائل، يتحدث في البديهيّات ويسدي النصائح الجوفاء... إذا أرادت سراب أن تتبادل خصوصياتها مع رنده، أو غير رنده، فما لي أنا؟ سراب، أنت رائعة، مهما فعلت. ولكن يوم آخر يمضي دون أن أراك يوماً مضاعاً آخر، في عمر معظمه ضياع. ويجب أن أشكر لرنده تبليغها الأمانة بهذا الإصرار. وانتهت إلى أن رنده، كسراب، لم تعطيني رقم هاتفها. غير ضروري، أبداً.

عندما دخلت كافيتريا «الأنسام» لم أصدّق أنني لم ألتق سراب إلا مرّتين، وأن هذه هي المرّة الثالثة فقط. مستحيل. هذه الفتاة أعرفها منذ أشهر. منذ سنين. أعرفها منذ أن ولدت. ولكنني لا أعرف شيئاً

حقيقاً عنها. كأنها من خلق مراياي العتيدة، تُرى ولا تُلمس، تُسمع ولا تتجسّد. وإذا هي جالسة إلى المائدة نفسها، قرب النافذة نفسها، في انتظار، فأسرعت إليها لأقول، وأنا أصافحها بيد، وأمسك كتفها بالأخرى وهي ما تزال في معطفها: «كنت للتوّ أقول لنفسي: إنك تُرين ولا تتجسدين.»

فضحكت قائلة: «هل أنا شبح أمامك؟ المسي! هل خيبتك؟»
- لا، بل كذّبتني، لحسن الحظ. كذّبتني دائماً، أرجوك. سبقتني هذا المساء؟ ولكنها بالكاد السادسة.

- جئت هنا أنسوّق، وانتهيت بأسرع مما ظننت، لأنني لم أجد شيئاً أشتره.

عندما جلسنا وطلبنا قهوتنا، سألتني عن عشاء البارحة، فحدّثتها عنه، وقلت: «وطلال صالح ذكّرته بوعده.»
- وماذا قال؟

- يريدنا أن نزوره في مكتبه هذا المساء. بعد قليل من الآن.

- المهم، القصيدة؟

- القصيدة جاهزة، ويريد أن يقرأها لنا في مكتبه. طلبت إليه أن يعطيني نسخة منها فلا نحتاج إلى الذهاب إلى مكتبه. ولكنه أصرّ على قراءتها بنفسه لك. طبعاً، من أين له زائرة جميلة مثلك تصغي إلى قصائده؟

- ولكننا لن نتساهل في حكمنا عليها.

- وأنت، هل تنظمين الشعر أيضاً؟

- هل يبدو على وجهي أنني أنظم الشعر؟

- جداً.

- غريب .

- نظراتك ، بأسك . تمرّدك . رنين ضحكك . شعرك الهادر . يدك الموسقتان . أناملك -

- أستاذ نائل ، أنت الذي تحاول الشعر الآن!

- ولا يأتيني إلّا النثر . أنتظر أن نكلّمني سراب ، فتكلّمني رندة . ماذا أفعل ؟

فقهت ، وأنت بإيماء بديعة من يديها إذ رفعتها لتغطّي بها وجهها كأنها ، مازحة ، تسرّ خجلها ، وقالت وهي تنظر إليّ من خلال أصابعها : «أسفة ، أسفة . تعطل تلفوننا أمس . وكان لا بدّ من الاتصال بك . وحسدتُ رندة اليوم على أنها تحدّثت إليك . طبعاً ، لن أشجّعها على مكالمتك ، إلّا عند الضرورة . أخاف عليها ، عليك .

- هل هي تشبهك؟ صوتها ، نبرتها ، شيء ما في كلامها ، يذكرني بك . هل هي مثلك جميلة؟
- أحياناً أجدها جميلة جداً .

- وأحياناً؟

- أشبه بالعفريت ، عندما تغضب أو تعبس . أتذكّر العفريت الذي وصفته أنت في «المرايا»؟ له صلة قوية بها . . . قالت لي اليوم إنها اكتشفت أنك غير متزوّج .

- زوجني سهام فارقت الحياة قبل أربعة أعوام ، ولم يكن لها من العمر إلا ست وثلاثون سنة .

بدا لي أنها أجفلت ، وتجمّعت وسقطت خصلات غزيرة من شعرها على وجهها ، إذ مدّت يدها عبر فنجان قهوتي ، وأمسكت

بمعصمي المستقرّ على المائدة، وهي صامتة. ثم همست، وكان دموعاً
تقطر من همسها: «ناثل! مسكين!»

هزّنتي اللعينة بتمثيلها، وبجمالها المرعب في تلك اللحظة، وكان
عليّ أن أخلص من الهاجس المأتمّي الذي حرّكته في نفسي، وقلت:
«سراب، حزنك رائع! هل هذه «طريقة» ستانسلافسكي؟ تقمّص
العاطفة حتى النخاع؟».

سحبت يدها بغضب: «لِمَ لا أحزن لحزنك؟ أريد أن أحزن
معك، وأريد أن أفرح معك، وطريقتي لن يعرفها حتى
ستانسلافسكي.»

وشعرت أن الدم يتفجّر فجأة من رأسي، وقلت هامساً:
«أحبّك.»

واقتربت بوجهها، وخصلات شعرها تكاد تغطّي شفثيها،
وهمست: «أنا لا أحبّك. أنا أعشقك. أعشقك.»

وعندها نهضت وقلت: «يلاً، لنخرج. لنذهب إلى طلال. الوقت
أدركنا.»

ومشينا معاً المسافة القصيرة إلى العمارة العالية التي يحتلّ مكتب
طلال قسماً من طابقها السابع. وحالما دخلنا المصعد، وانغلق علينا
الباب، أخذتها بين ذراعيّ، وقبلتها بهوج، ورغبة، وعنف.
وضغطت على زرّ الرقم ٧، وهي على صدري، وعدنا إلى الهوج
والرغبة والعنف لثوانٍ فقط: ما أسرع المصعد في وصوله إلى الطابق
الأعلى! وانفتح الباب. ولكن سراب ضغطت عندها زرّ الطابق

الأرضي فانغلق الباب، وهبط المصعد، وعدنا إلى التقبيل المجنون، وما كاد المصعد يصل إلى الأرض، وبتفتح بابه، حتى ضغطت سراب على زرّ الرقم ٧، وعدنا إلى اللعبة السريعة اللذيذة، لولا أنه توقف في صعوده هذه المرة عند الطابق الخامس. فانفصلنا الواحد عن الآخر بشكل أخرق، إذ دخل رجلٌ أدار لنا ظهره، وضغط على زرّ الرقم ٧ أيضاً، وصعدنا معاً إلى حيث لا بدّ من الصعود، وخرجنا صامتين، نكتم ضحكنا، إلى الدهليز الذي ينتهي في طرف منه إلى مكتب الصديق العزيز المحامي طلال صالح، واتجهنا نحوه، بينما اتجه الدخيل البغيض، هادم اللذات، نحو الطرف الآخر.

حالما فتح عباس الباب، جاءنا طلال راكضاً، واقتادنا إلى مكتبه، وكلّه ترحاب. وكعادته عندما لا يستقبل الموكلين، ترك كرسيّ المنضدة، وجلس معي على الكنبه، بينما جلست سراب في الكرسي الذي بجاني. ثم عادت فنهضت لكي تخلع معطفها، فساعدتها، وأراد طلال أخذه منها ليعلقه على مشجب قريب، غير أنها أثرت أن تبقيه وراءها وحولها على الكرسي. ولم يفتني أن صديقي أطال النظر إلى قوامها وهي تتأوّد في حركتها، بفستانها الأخضر، إلى أن جلست، ثم جلسنا جميعاً لتبادل المجاملات الأولية، ونشعل السكاير. وكان عباس سريعاً في الرجوع إلينا بفناجين القهوة، والانسحاب من الغرفة.

كنا أنا وسراب ما نزال في وهج تلك الإثارة العنيفة القصيرة التي خشيت أن يستشفّها فينا طلال، وخيّل إليّ أن وجه سراب بقي مورداً أكثر من عادته، وأنه يبدو في شفيتها من أثر القبل ذلك الورم الإضافي

الطفيف الذي يزيدهما امتلاءً، وإغراءً. غير أنها كانت رابطة الجأش،
تبتسم بمقدار، وتتكلم بمقدار، تاركةً لي التحكّم بالموقف، ولو أنها
اعترفت لطلال بأنها هي التي طالبت بإنجاز وعده.

ويغتنّ هتفت: «الله! ما أروع هذه الورود!»

ولفت نظري أن طلال، ربّما لأول مرة منذ سنين، كان قد وضع
على مكتبه مزهرية رشيقة، مستطيلة العنق، فيها بالضبط خمس
وردات حمراء، طويلة السيقان، شديدة النضارة، كأنه اقتطفها للتوّ
من حديقة ما.

وقال طلال ضاحكاً، ظاهر السرور: «للمناسبة، للمناسبة.»

وأنا أعرف أن صديقي مع النساء - إلا إذا كنّ يراجعنه في مسائل
قضائية - خجول جداً في البداية، ويشعر أن لا بدّ له من كأسين قبل
أن يرتفع عن دماغه ما كان يسمّيه «بالكايج اللعين». وقال إنه لو
كان يعلم أنه سيكتب قصيدة كلّها وعد امرأة بقصيدة لأكثر من
العود يميناً وشمالاً، عسى أن تُفكّ عقدة لسانه. ولم أستطع إلا أن
أقول: «وهل كل امرأة تعدّها هي سراب حتى تُفكّ العقدة العزيزة؟»
وأملت في أن يأخذ كلامي مأخذ المجاملة، لحضورها معنا، وليس
«دليلاً جرمياً» آخر على «جناية» حب سيحاول إثباتها عليّ...

ذهب إلى منضدته، وأخرج من أحد أدراجها ورقتين
«فولسكاب»، وعاد بهما إلى مكانه، قائلاً: «والله لم أنته منها إلا هذا
المساء. وقد أغير فيها الكثير فيما بعد..»

قلت: «اتركها على عفويتها يا رجل..»

راح يتمنّ في الصفحة الأولى صامتاً، ثم ضحك: «عنوان القصيدة: «أحب عيني؟». وأرجو، ست سراب، أن تسمح لي بحرية الشاعر إذا تغزل..»

وتظاهرت سراب بالدهشة: «أهي قصيدة غزل؟»

فتدخلت: «وماذا نتوقّ من رجل كتب عليه أن يتعامل كل يوم مع المزورين، والمحتالين، والقتلة، صاعداً نازلاً في أروقة المحاكم وغرف المحامين؟ لنا الله يا طلال!»

وأضاف هو: «ثم إن القصائد العصماء نتركها لأصحابها المحترفين..»

تنحنح قليلاً، وأخذ رشفةً أخرى من قهوته، وبصوتٍ خفيض لا يخلو من قوة، ولا يخلو كذلك من نبرةٍ مسرحية ربما جاءته من خبرته في المرافعات أمام القضاة، راح يقرأ ببطء إيقاعي، وهو يرفع عينيه بين حين وآخر بنظرة سريعة إلى، ثم إلى سراب، ويؤكد بعض الكلمات تأكيداً يزيد من وقعها:

قالت: أحب عيني؟

قلت: أحب خديك

كفاكيتين،

وشفتيك كجمرتين

ضاحكتين -

قالت: وعيناي، أتعبهما؟

قلت: أحب نهديك

عابثين، متحدّين -

قالت : سألتك عن عيني،

أُتجِبْهُمَا؟

قلت : أحبّ قوامك

مُتَنِيّاً كصَفْصَافَةٍ -

فقالت : أف، وعيناي؟

قلت : أحبّ ساقيك

المَشْوَقتين كسيفين،

وكاحليكَ المَنُورَينِ،

وقدميك تَلْتَقِيَانِ وتَفْتَرِقَانِ

كحِماَمَتَيْنِ -

فقالت : وعيناي،

أَلَا تُجِبْهُمَا؟

فقلت : آو، عيناك؟

أَلَسْتَ طَيعَ التَّحْدِيقِ فِي الشَّمْسِ

إِذَا سَطَعَتْ،

دَعِي عَنكَ شَمْسَيْنِ اثْنَتَيْنِ؟

قالت : إِذْنِ لِمَنْ كَحَلَّتْهُمَا؟

قلت : لِلدُّنْيَا، لَكِي تُشْرِقَا

حَتَّى فِي ظِلْمَةِ اللَّيْلِ

عَلَى كُلِّ مَنْ فِيهَا.

قالت : مَبَالُغُ أَنْتِ،

بل أنت ماكرٌ ومخادع .

قلت : في حبك أنا

ماكرٌ ومخادع .

قالت : إذن فابقَ عندي

وامكرُ بي ، وخادع .

قلت : أتصدقيني؟

قالت : وما همّني ،

ما دمت تزعم أنك اليومَ

تحبّني ؟

فقلت : وكلُّ يومٍ !

قالت : مُسّر ، لا تبالغ !

كفاني حبك اليوم ،

وما همّني الغد ، أو ما بعد غد -

ثم قل لي برّبك :

أتحبّ عيني؟

انتهى من قراءته ، وران صمت قام في أثنائه وألقى بالورقتين

على المنضدة ، ثم عاد إلى مقعده ، دون أن ينظر إلى أيّ منا ، كأنه

يخشى ما سوف نقول . فسألتُ سراب : « ما رأيك؟ »

قالت : « جميلة . جميلة جداً . تستحق الورود الخمس التي في

المزهريّة . »

فقال طلال : « أهديها إليك . »

- الورود ، أم القصيدة؟

- الورود والقصيدة.

هتفت بفرح: «قبلت!» وقامت والتقطت مخطوطة القصيدة من على المنضدة.

ثم أضاف طلال: «وكَلَّمَا زرتني هنا مع نائل، لك مَنِيَّ وردة.»
- رائع! وإذا لم تتوفَّر الوردة، فأنا أرضى بقصيدة.

فهقه طلال صالح: «غالي وطلب رخيص! قبلت!»

وبابتسامة شيطانية التفتت سراب إلى، وحدقت في وجهي،
وقالت: «أَتَحِبُّ عيني؟»

فاختطفَت الورقتين من يدها، لأراجع النص الذي أريد، وقلت:

«أستطيع التحديق في الشمس

إذا سطعت،

دعي عنك شمسين اثنتين؟»



في الطريق، وفي يدها الوردات الخمس، سألتها عن سيارتها
فقالَت إنها أعطتها عصر اليوم لأختها شذى، كما هو من شأنها أن
تفعل بين حين وآخر. وتبيَّن أن أختها، الطالبة في سنتها الخامسة في
كلية الطب، تعتمد كثيراً على سراب في توصيلها، وأن سراب تفضِّل
أحياناً أن تأخذ شذى السيارة، وتحرَّرها من مسؤوليتها، كما حدث
اليوم. وأما سيارة أبيها، الدكتور على عفان، فنادر ما يسلم الأب
مفاتيحها لأيٍّ من ابنتيه، ومهنته تحتم على كلٍّ وجود سيارته تحت

تصرفه الخاص طوال ساعات الليل والنهار.

قلت: «إذن أوصلك بسيارتى.»

قالت: «بل أستقلّ سيارة أجرة.»

- مستحيل!

- دارنا بعيدة.

- أين؟ في القطب الجنوبي؟

- لا، أقرب بقليل.

ودفعتها من ذراعها باتجاه الشارع الفرعي الذي أوقفت فيه سيارتي، كما كنا فعلنا كلانا ليلة أمس الأول، وهي تقاوم قليلاً، وفي لصق شعرها أنشق منه عطراً منعشاً في الليل البارد الرطب.

وما إن احتوتنا السيارة، وقد بدأت تشغيلها، حتى استأنفنا القبلات العنيفة اللاهثة التي كان المصعد ضنيناً بها علينا. ولست أدري كيف استطاعت سراب، ونحن في تلك الحالة من الإثارة، أن تدلّني على الطريق إلى بيتها - الذي بلغناه في حوالي التاسعة. ولا أنكر أنني لم أعرف أين أنا حين بدأت رحلة العودة، وضللت، واجداً نفسي أسوق في طرق سريعة لا معالم فيها أتبينها في ذلك الليل، واضطرتت أكثر من مرّة إلى التوقف والسؤال من أناس اتفق وجودهم على الرصيف، إلى أن وصلت أخيراً إلى منعطف جنين، ومنه توجهت مباشرة وباطمئنان إلى الدار، وكأنني عدت من نشوة الدرويش الراقص، حيث الامتلاء والتفجّر في اللازمان واللامكان، إلى صحوة الصمت والسكون، وفراغ الزمان والمكان.

بأيّ تفصيل أتحدّث عن عودة النشوة مع سراب كل يوم من الأيام
اللاحقة، رأيّتها أم لم أرها، وساعاتي كلها امتلاء وتفجّر، وسراب
لصق جلدي وملء عينيّ، نحن الراقصين أبداً في دوران غبت فيه مرّة
أخرى، وللمرّة الأخيرة، عن الزمان والمكان كليهما.

سراب عقلن

ما عدت إلى البيت، بعد ساعتين أو ثلاث مع نائل، إلا وجدت كل شيء جوي مملأ، باهتاً، بليداً - إلى أن أعود إلى أوراقي، أو إلى أن يتصاعد بي الاندفاع إلى لقاءه مرة أخرى. وما أسرع ما يتصاعد! وليس بين الأوراق واللقاء إلا الوقت الذي يجب ألا يكون، الوقت الذي يجب أن يلغى من الزمن.



ليس لي في يومياتي إلا أن أكتب عنه وعني دون أي إنسان آخر. ما لا يتصل به لا يهمني. كل ما خططته لحياتي يبقى الآن معلقاً حتى إشعار آخر. أنا أعلم، عندما تأتيني سويعات الصحو والصفاء الذهني أنني أريد الاستمرار بمحاولة النفاذ من الحصار القديم، كأنما النفس مدينة مسورة أحاط بها الأعداء، وكسرت الحصار عنها يعني الانطلاق نحو مدن أخرى، وأفاق أخرى، وصبوات أخرى، لا بد لي منها كلها وفق ما شغلت فكري به في السنوات الأخيرة. ولكنني الآن، وهنا، ليس لي إلا أن أتابع هذا الحلم الحسي الذي ما بات حلماً، هذه التجربة التي أعزها كل يوم عن تجارب العيش وتجارب

الأهل الأخرى، لأنها لا تنتمي إليها: الحلم / التجربة، الجوهرية التي أعيش بلالاتها من خلال الظلام اليومي الذي أرفضه.

وأذكر الآن عبارة لكاتب فرنسي نسختها يوماً في إحدى أوراقى، يصف فيها بعض ما أنا فيه الآن. يقول: «أن تحبّ يعني أنك تجد لذّة في رؤية شخص يجبك، تجد لذّة في لمسه، وسامعه، تجد لذّة في الشعور به عن طريق كل حاسة من حواسك، بأقرب ما يمكن لكيانك، وألصق ما يمكن بجسدك وروحك.»

هنا تبطل الحاجة لأيّ تفسير أو تعليل. ومع ذلك فإنني أستطيع الكثير من التفسير والتعليل: يكفي أن أراه، وأسمعه، لأدرك أن لعاطفتي أن تشتطّ ما شاء لها الشطط، والتفسير والتعليل اللاحقان جاهزان عند أطراف أصابعي.

من اللحظة التي تركت فيها هذا المساء، بكيت. بكيت طويلاً. بدأ بكائي وأنا في السيارة. وفي البيت أغلقت غرفتي على نفسي وبكيت، ولا أعرف سبباً لبكائي - سبباً قد أستطيع تحديده والتأمل فيه. وقلت سأسأله لعلني أجد الجواب لديه، وهو المجرب المتفهم. أم أن الجواب عندي، ولكنني أتجاهل وأراوغ، كأني امرأة؟ هل كانت لديّ الرغبة مثلما كانت لديه، فحاولت إقناعه بالعكس، وأنا أعلم أن بداخلي امرأة تستطيع أكثر مما أتصوّر أنا أو يتصوّر هو، فأفرغني ما أنا عليه؟ أهذا هو المأزق الذي سعت إليه؟ وهل مقدّر عليّ أن أعيش تلك المعادلة الصعبة التي تتكرّر معي إلى ما لا نهاية؟ فأننا بين كوني امرأة تُغري، وتُغرى، ولكنها تهاب الدخول في الحلقة

الأخيرة، وبين كوني امرأة تريد الحب، وتريده حتى آخر قطرة فيه -
أتمزق، إذ أعرف تماماً أن ما ينتظرنى من شعور بالإثم سيعذبني على
نحو لا أستطيع التكهن به، ذلك الشعور الذي كنت وما زلت أغذيه بأن
علاقتي بالآخر يجب التأكد من إظهارها، من مسارها... أوه، نائل،
أي إطار، أي مسار، أرجوك، خبرني.

«لقد أغريتني بإنسانيتك.

«تلك الإنسانية التي تجسدت أمامي، بعد حديثنا الهاتفي مساء
أمس، الذي تطرقت فيه إلى مواضيع شخصية صرف استدرجتك
إليها وأنا لا أكتفي من سماع كلامك فيها. فلقد كانت أوصافك
وأحاديثك المتفرقة عن طفولتك، عن أختك، عن سهام، عن
صديقك جاسم الذي مات وهو يشرب بين يديك، تكمل لوحة عنك
ما استطاعت الأيام السابقة أن تكمل خطوطها وألونها، إذ كنت أريد
أن أراك بوضوح أكثر من الوضوح الذي رأيته في كتبك كلها.
فظلّ ترددي قائماً ما دامت الخطوط والألوان لم تكتمل، إلى أن
أكملتها بنفسك وعلى طريقتك. وكان في إنهاؤها بداية البدايات
عندي. وها أنا الآن، مرة أخرى، ويعزم مضاعف، أدخل عالمك
المسحور. ولكن أدخله هذه المرة مصابةً بالرعب، بالنشوة، بالرغبة،
ولا من سلاح أمتلكه أمامك. فأنت تمتلك كل ما يلزم في كل رحلة
تقوم بها. أما أنا، وليس عندي ما عندك سوى أخيلتي الجاعحة،
فأخشى على نفسي منك أن تشكّلني، أو تعيد تشكيلني، حسبما تريد

وكيفيما تشاء، فلا أعود أعرف حقيقتي إلا من خلالك. ولم لا، لم لا، لم لا؟...

هذه كانت الصفحة الأولى من رسالة كتبها إليه، وبعد يومين أعطيته إياها ليقرأها أمامي، ونحن في ملتقانا في مشرب «الهوليداي». وبعد أن قرأها بصمت طلب إلي أن أقرأها عليه بنفسي، «لكي تتجوهر كلماتها بأصواتك». وقرأتها على مهل، وكلّي أول الأمر خشية من أن يسمعي أحد من حولنا. غير أنني سرعان ما غفلت عن ذلك، وليسمع من يريد أن يسمع، متذكّرة تلك المؤهّلة التي صرخت أنها ستعلن حبّها من على أسطح المدينة! ثم طالبت بالجواب «تجريباً»، قلت: «في رسالة تكون على الأقل ضعفي طول رسالتي!» فقال: «سأكتب». قلت: «هذا المساء، لكي أقرأها غداً». طوى رسالتي ووضعها في جيبه، قائلاً، وهو ينظر في عيني بتصميم: «هذا المساء، وتقرأينها غداً، هنا».



كان لقاؤنا اليوم في «الهوليداي» قصيراً، ساعة أو أقل، ولكنه كان في عمق أسبوعين على الأقل من أروع الساعات. أسبوعين، قلت؟ لماذا لا أقول شهرين، أو سنتين؟ جاءني بهذه الرسالة التي قرأتها أولاً بصمت، وجُننت، ثم طلبت إليه أن يتلوها بصوته عليّ، واحدةً بواحدة، أليس ذلك من حقّي؟

«أتدريين ما أصعب الكتابة إليك؟ عودتي على الحديث إليك، عودتي على أن تشيريني وتستفزّيني، فأجد الكلام يأتي عفويّاً،

متدافعا، متصلاً بما تفكرين وتقولين في تلك اللحظة بالذات. أما الآن، وقد وعدت بأن أكتب، فانظري إليّ! خسون فكرة تنهال عليّ دفعةً واحدة، ولا أجد لي طريقاً فيما بينها، لأمسك على الأقل بواحدة منها بشكل واضح.

«وأعيد قراءة الصفحتين الجميلتين، المفلقتين اللتين كتبتهما أنت، وأتساءل هل أنا حقاً بهذه القدرة التي تصفين، وهذا التمكن من عواطفك، بحيث تجددين نفسك تراوحين بين البكاء والغضب، والشوق والرغبة؟ ما أطيب الدموع، أحياناً، وما أجملها! وما أحلى ابتسامتك من بينها! وأنا المصاب بلوعة العين، أتلوّج كل مرة على نحو جديد لأرى عينيك تتحولان من إقبالٍ إلى إعراضٍ إلى هجوم، من نشوة النمرة العارفة بروعة جسدها، إلى تفجع ملائكة ضائع بين السماء والأرض.

«ولقد فوجئت بذلك كله. لم أكن، ذهنيّاً على الأقل، مهياً لمنازلة من هذا النوع هي في منتهى الرقة ومنتهى القسوة معاً، ولا يعلم الواحد منا متى يربح ومتى يخسر. بل إنك توحين أنك الراححة والخاسرة في كل لحظة، أو أنني أنا الراحح والخاسر في كل لحظة، وتؤجل بقية المنازلة من ساعة إلى أخرى، من نهار إلى ليل، من ليل إلى نهار. . . وفي كل صبح تجمعلين يقظتي على همسك وكأنك تنفين أحلام الليل لتستقدمي أحلام النهار، بمكر العاشق وحذق الصياد. وأنا لا أحب شيئاً، ولا أخشى شيئاً، مثلما أحب وأخشى هذا المكر وهذا الحذق. وأجدي مرة أخرى أتساءل: أأنا أم أنت صاحب هذا المكر وهذا الحذق، أنا العاشق أم أنت، هل الصياد أنا أم الطريد،

لأزعم أخيراً أننا كلينا هذا وذاك، واجعلها يا رب هكذا، حسماً
للسؤال!

«ولا بدّ لي من القول إنني لن أشكّلك على طريقي وهواي، كما
طنتت، لأنني أريدك كما أنت، مهما يتخيّل إليّ أو إليك أحياناً أن
بغاليون دائب على إعمال إزميله في المرمر المغري. وأنا أصلاً أخاف
على بغاليون، رغم كل براعة صناعته. أخاف عليه، كما حدّثتك
مرة، من أن ينقلب المنحوت على الناحت، وإذا الصانع هو
المصنوع، وإذا العشق يجد له قناعاً لم يكن بالبال. وأنا كما تعلمين
ولا ريب، جثتك بريئاً، دافقاً بالكلمات، طالباً رؤيتها وهي تتحوّل
من وهم إلى حسّ، من صوت إلى جسد، كما يفعل كل من يرى في
الجمال مثاله المطلق. وآه يا قهوة مضبوطة تُشرب في مساء يوم دامه
المطر، ورسم خطوط القدر المستحيل على زجاج النافذة...»

«ويبقى الهاجس شغلاً، يتزيّياً كل لحظة بزّي، ويلعب الخيال
معي لعبته التي أحبّها، ولكنه يجعلها أحياناً لعبة صعبة، مرة، أريد
لها أن تنتهي، ويبقى الخيال يشاكس والهاجس يعمل إلى غير ما
هدف، سوى إشغالي بما لست أستطيع أن أحدّد شكله أو مساره.

«من مثل هذه القوضى تنبع الكلمات - شكلاً لا يتحدّد، ومساراً
تائهاً؛ ولكنني أعلم أنها جميعاً تنطلق كأسراب من عصافير الربيع
لتطير باتجاهك دون أن تعلم أين ستستقرّ. وما الضرر؟ هكذا أسائل
نفسي. المهم أن الكلمات تتجنّح، وتخلّق، وربما تُجنّ، وترين أنت
أسرابها وهي تبحث عن مأوى في فضاءاتك. فلتكن هذه نعمة غير
متوقّعة من السماء...»

وأخيراً رأيت بيته، من الداخل!

لم يكن يعلم أنني كثيراً ما مررت بداره، أيام كنت أتسقط أخباره، وهو لا يدري بوجودي. كنت أعرف بوابة الحديد السوداء، والشرفة العريضة أمام المنزل، والنافورة الرخامية التي ترى من خلال السياج الحديدي. ولكنني لم أرها يوماً ترسل الماء في الفضاء، أو على الأقل تنفثه برفق لتبلل جفافها. لم أكن أدري أنه قطع عنها الماء يوم توفيت سهام، ولم أكن أعرف شيئاً عنها آنذاك. عدّة مرّات تقصّدت أن أدخل بسيارتي في شارع منزله (بعد أن اكتشفت أن منعطف جنين يؤدي إليه)، فأبطىء السير عند وصولي إلى البوابة الحديدية عسى أن أراه، غير أنني لم أره إلّا مرتين اثنتين، عصراً، كان فيهما جالسا على الشرفة وحده مشغولاً بالقراءة، ولم ينتبه إليّ.

وقبل أيام اقترح عليّ أن أرافقه إلى البيت، فرفضت. خفت، وأحجمت. وكان حسبي ما تخيلته عن دواخل المنزل وغرفته، كما وصفتها في إحدى يومياتي السابقة. غير أنني اليوم، إذ دخلت سيارته التي كان ينتظري فيها، حالما قال: «هيا نشرب القهوة عندي في البيت»، قلت: «في قلمعتك؟ مع سألّة وغسّان؟» فقال: «يؤسفني أن سألّة وغسّان لن يكونا في القلعة، لأنها في زيارة لأخي وائل. ولن يكون فيها إلّا أم هادي». وأنا أعلم أن أم هادي هي خادمة العائلة المعجوز منذ عشرين سنة أو أكثر. فسألته: «ألن تصعق أم هادي لرؤيتي معك، أم أنك عودتها على الزائرات؟» بدا عليه السرور لموافقتي الضمنية أخيراً، وقال: «ستصعق حتّى، لأنها ما عادت ترى في السنوات الأخيرة إلّا المعجّز يزرن أختي. وستذهب بها الظنون.»

قلت: «صحيح؟ رائع! يلاً!»

يجب أن أعترف هنا أن لي خيلاً يجيفني أنا نفسي أحياناً. فخيالي الشغول الذي أرادني أن أكتب يوميات «أ» أكثر من يوميات «ب»، أو أن أمزج بين الاثنين، يصور لي من الواقع ما لا أراه بعيني، وإذا الواقع، عندما أراه، كما صورّه بالضبط! هذا الجنيّ الذي في داخلي يتمتع بقوة خارقة، يتليني بها، شئت أم أبيت. ولأ فكيف أفسّر أن البيت من الداخل، حالما تخطّيت عتبة، كان بالضبط كما تخيلت؟ لحظة واحدة، وأصابتي قشعريرة - مرعبة، لذيدة، لست أدري. قلت لنائل، ونحن في ردهة المدخل: «ولكن هذا البيت أعرفه.» فاندھش: «تعرفينه؟»

- كما أعرفك. لا تتكلم، فأعطيك تفاصيل هندسته ونحن واقفان هنا. هذه مكتبك، تمام؟ وهنا الصالون. تمام؟ وهناك غرفة الطعام. وذلك هو المطبخ، وخزائنه ذات لونين، أبيض وأزرق فاتح. وتلك الغرفة المغلقة الباب، غرفة نومك. والتي تليها غرفة نوم مهملة. للضيوف، ربما؟ وهذا الدرج الصاعد يؤدي إلى غرفة أختك، وغرفة غسان. تمام؟

- مش معقول! لا بدّ أنك زرتني في الحلم! هل زرتني في أحد أحلامك أنت، أم في أحد أحلامي أنا؟ ولكن السؤال الأصعب هو: ما الذي في دواخل الغرف؟

- وما الذي يكون في المكتبة سوى طاولة الكتابة، ورفوف الكتب؟ وربما لوحتين أو ثلاث، إحداها كبيرة. هذه الغرفة إذن في غنى عن

وصفي . سأقول لك ما الذي في الصالون، على وجه التقريب
بالطبع . . . أثنائك في معظمه أزرق . صح ؟

- تعرفين أنني أهوى اللون الأزرق . فهذا تخمين سهل .

- طيب . وعلى جدرانك على الأقل خمس، بل ست لوحات، بينها
واحدة كبيرة يغلب فيها اللون الأزرق أيضاً ؟
- بدأت تقلقيني . ثم ماذا ؟

- وفي الغرفة منحوتة برونزية لعلها كبيرة بعض الشيء . منحوتة
تجريدية على الأرجح ؟ آه، وفي الصالون المزيد من رفوف الكتب . . .
وعندك أيضاً مزهرتان كبيرتان من الكريستال التشيكي . . . هل
نحجت في الامتحان ؟

- بامتياز! تعالي وانظري بنفسك .

وحسبت أنه يمازحني، وأنني سأرى الصالون على غير ما وصفت
بالمرة . ولكن لا ! لقد كان كما تخيلته بالضبط، ووقفت مشدوهة أمام
اللوحة الزرقاء الكبيرة التي تخيلتها في يومياتي السابقة .

وكما تخيلت يومئذ، وقف نائل خلفي وأنا أتأمل الصورة، وأمسك
بذراعي، ثم غمر وجهه في شعري، ويبحث بين الخصلات عن مؤخر
عنقي بشفتيه، وجعل يقبّلني وراء أذني، وينزلق بالقبلات إلى
كتفي . . . وكدت لبرهة أن يغمى عليّ، ثمّاً كما في روايات القرن
الماضي، إذ كان يغمى على البطلة حين يقبّلها البطل لأول مرّة .
وأحسست بأن ركبتيّ تذوبان، ولولم أتكىء بجسمي كله على صدره،
وذراعاه تطوقاني، فلربّما كنت تهاويت إلى الأرض . إلا أنني نفضت
نفسي بقوة، وجمعت بقايا إرادتي، وقبل أن يدرك ما حل بي،

استعدت وعيي وقدرتي على الوقوف على قدمي، وهو يمس: «يا ساحرة،
يا عرافة، يا قارئة سيول المطر، ترين المكشوف والمحجوب - ولكن سرّاً
واحداً لن تعرفيه...»

همست: «في ماضيك؟»

- لا، لا. في حاضري، سراب. ما الذي تحويه غرفة قلبي
المغلقة، الآن؟

قلت وأنا أستدير له، وأمسك بوجهه بين راحتي يدي، كما يفعل
هو عادة معي، وأتمنّ في عيني: «قلبك ليس غرفة. إنه دهاليز
متداخلة، متقاطعة. أرى فيها امرأة دخلت، ولا تعرف كيف تخرج.
أم أنها لا تريد الخروج؟»

- ومن أين لها أن تخرج، والخروج محظور؟

ولما انحنى يقبلني لمحت وراء ظهره بورترية زيتية لامرأة جميلة
تصوّب نظرات نافذة إلى عيني، بحيث اضطرتت إلى إغماضهما لأنني
حزرت أنها صورة سهام... فتحرّكت به خروجاً من الغرفة، وشفتاه
لصق شفتي. وإذا هو يتمتم: «هذه خرفشة أم هادي وهي قادمة إلينا
من المطبخ... لتسألنا إن كنا نريد أن نشرب قهوة أو شيئاً بارداً.»

وأسرع نائل في اتجاهها ليقول لها بصوت مرتفع: «أم هادي،
قهوة، فنجانين. لا حلوة، ديري بالك! أحسن ما عندك!»

ودخل بي المكتبة، ورحت أستعرض رفوف الكتب، بانتظار
القهوة، وهو يلفت نظري إلى هذا الكتاب وذاك، وذراعه تطوّق
كتفي، إلى أن دخلت أم هادي، وتركت لنا صينية القهوة على

الطاولة، وخرجت، ولم نعد نسمع حتى خرفشتها.

ما الذي حدث بعد ذلك؟ آه، رنّدة، حبيّتي، ناصحتي رنّدة، أخبريني، لماذا تسمحين للقلم بأن يسيل طائعاً مع تيارات الحزن والألم، وأمّا موجات السعادة الضاربة قبة السماء، موجات الفرح المجنونة، فلا تجدين للقلم معها طريقاً سوى الصمت، وكأنه صمت الحسود، المتأمر؟ أم أنك، مثلي، لا تستطيعين وصف بحرٍ صاحب تقاذف موجه عالياً ليتلقّف الشمس اللاهبة في سمائها، فانفجرت الشمس شظايا وتهاوت بكل نيرانها إلى أعماقه؟

كلّما مرّ يوم بلا لقاء ألقيت ببعض عبثي على الورق. لا أجرؤ على إطلاعه إلّا على القليل جداً مما أكتب، رغم إلحاحه بأن أذهب إليه بكل ما عندي من كتابات. في يوم ما، ربما، ربما، أطلعه على يومياتي معه قبل التفاتنا. ولكن، لعلني لن أفعل ذلك أبداً. لعبتي الجنونية تلك يجب أن تبقى سرّاً لن أكشف أمره إلّا عندما لا يبقى لديّ ما أعطيهِ للرجل الذي أحبّ. أمّا الآن، فما أكثر ما لدينا نتعاطاه في كل لحظة، مولّداً المزيد للتعاطي كل يوم.

اليوم أخذت إليه ما كتبتّه على الآلة الكاتبة في ظهيرة الباردة. أردت أن أرى مقدار ما استطعت أن أوصل إليه مما يبدو في فكري مستحيل الإيصال. جاءني العنوان تلقائياً، «لعنة الانفصال الداخلي»، وكالعنوان جاءني تلقائياً الأسطر اللاحقة:

«الأرقام رموز يختلف قياسها باختلاف الأشياء المادية المرموزة بها، وما تحتله من المساحة الكونية.

«وهي عندنا ترمز للجنة ظهرت لنا من زاوية غير مرئية، واحتلت الجسد الإنساني، محدثة انشقاقاً بالرمز نفسه، الرمز الذي يطلبه الفكر ويوجهه الظرف المحيط بكثافته الخرقاء اللزجة.

«وتبدأ حالة الانفصال بين الذات والنفس والفكر، وتنتهي بأشكال متناهية من التكوين الأحادي لكل منها، يتطابق زمنياً مع لحظة المواجهة الحقيقية مع جسد آخر، يكون هو أيضاً في مرحلة المخاض للأشكال المتناهية، لكل منها رقمه المنعزل.

«تليها مرحلة المقارنة لمعرفة كيفية الاستخدام، وأيهما الأنسب للتطابق الوقي، خروجاً بالمقدار الكمي المطلوب من الحصيلة المادية.

«وهذا هو السر في غريزة البحث الدائم عن الحقيقة... الحقيقة المحصورة بين الذات وبين الآخر، الناتجة بين الأرقام.

«ولا تحصل حالة الامتزاج الداخلي إلا بعد إعلان السكون الاختلائي، النهائي، اللارقمي.

«وبين الانفصال والامتزاج، يجري الزمن نهراً من الرماد - مع الاعتذار إلى شاعرنا الكبير.

ما كاد نائل يفرغ من قراءة الورقة حتى أخذ يحك رأسه، وبشكل ظاهر، دلالة على حيرته إزاء ما قرأ، وقبل أن يجابهني بأي سؤال عن الجزئيات، دفعت إليه بورقة أخرى كتبها ظهيرة اليوم، قائلة: «قد تجد هنا مفتاحاً لهذا الكلام - وقد لا تجد!»

هز رأسه استمراراً بحيرته، وضحك ضحكة اليأس مني ومن شطحاتي، وقال: «لن يكون مفتاحك أكثر يسراً في التناول من مغلفاتك!» وراح يقرأ:

«حالة الحياة في المجتمع المجهول:

«مجتمع مسور بالخوف والأسن. أشباه بشرية تنطاحن من أجل حفنة الفاظ سطحية. لغة التوازن الإنساني معدومة، وحركة الحياة تتولد في الأحشاء الداخلية فقط، وحال خروجها لكي تشخصن وتنانسن، يعلن عليها الانغلاق الفكري والنفسي.

«دورة الاقتراس اليومي تتجدد، وتتخذ الطابع التنويعي، مسببة ضعفاً عاماً يزحف تدريجياً، مكتسحاً أمامه بوادر التمرد، محولاً الإنساني من حالة الحركة الظاهرة المتسمة بإنسانيتها، إلى حالة الحركة الآلية المتسمة بفراغها.

«وأخيراً يبدأ هرمون الإحساس بالتضاؤل شيئاً فشيئاً، متخذاً منحدر الهبوط المتزايد، وصولاً إلى قاع المستنقع، مستنقع العبودية.»

وضع نائل الورقتين أمامه وانطلق في كلام لا أذكر إلا القليل منه، ولكنه كان كلاماً جيلاً كنت أهدق في وجهه، في عينيه وشفتيه، وهو منطلق فيه، واهتز إلى الأعماق. قال إنني غاضبة، ومتمردة، ومعذبة، وملية بحب لا يستطيع تحديد نوعه. قال إنني منفصمة، ومهلوسة، وعاشقة، وساخطة على ما في الحياة من كراهية وقسوة. قال إنني لن أرضى عن أي شيء، ومصممة على الخروج من الهامش الضيق المتاح لأدخل في المتن الصاحب المخيف الذي يغربني بأصواته

وحريته . أصحاب الكراهية، قال نائل، يفلسفون البغضاء قوانين
وشرائع ومبادئ يتنكر فيها الشيطان بجناحي ملاك ليصارع الله في
عليائه، ويحجب نور الحب بدخان الجحيم . وأنا أرى هذه الدراما
بخبزتي المسرحية وكأنها تجري على خشبة عريضة فأقحم كلماتي فيها،
سمعي الجمهور أم لم يسمع . . . وقلت له مرة أخرى، للمرة الألف:
«أنا لا أحبك . . . أنا أعشقك، أعشقك.»

وأحسست أن كل مسامة في جسدي تتحرق لاحتوائه .

كان نائل اليوم في حالة شعرية خاصة، حالة تأتيه بصور جميلة،
لعله يخترنها لكتاباتهِ القادمة . ولكنني لا أظن ذلك، لأن الكاتب
الكبير يرتجل من وحي اللحظة، ولا يعتمد على خزين الذاكرة، رغم
أهميته، بقدر ما يعتمد على تصاعد الكوامن العشوائية من اللاوعي
وشبه الوعي لديه . والمهم بالنسبة لي أنه يجد فيّ، كما قال اليوم،
ذلك الجنّي الذي يحطّم له الأقفال ويطلق المغلفات التي في ذهنه
للرياح كلها.

قرأت له المقطوعة الأخيرة التي كتبها أمس في المكتب على طريقي
التلقائية . فأخذها مني وأعاد قراءتها، ورأيت حُبّه لي رؤية العين وهو
ينحوّل إلى كلمات ومجازاتٍ خليقة بشاعر عاشق لا بمحامٍ يكتب
الروايات . أتراني أتملّق نفسي بأن لي هذا التأثير «الجنّي» عليه، كما
يزعم؟ اسمعي يا رنده، وكفّي عن النقد والتشكك والسخرية . قال
وهو ينظر في عينيّ - وبدا لي لحظتيّ جميلاً قوياً على نحو غريب - إنني

نقية كشعاع من الشمس في يوم أغرقه المطر، منعشة كالمياه الساقطة في وادٍ عميق من على الصخور الشاهقة... صورة الشلال تلازمه، كما تلازمي. هل من معنى صوفي لهذا الرمز الغامض؟ مرّر يديه في ثنايا شعري، وكأنه يمشط خصلاته من رأسي حتى ظهري، وقال وشفته لصق خدي إن الالتفاتة مني، بشعري المسبل هكذا على الكتف والنهدين، تُظهر كأنّ الريح هزّت له أعطاف الشجر لتنبه بحبّ يبّ على الدنيا كالعاصفة... العاصفة فكرة أخرى تلازمه، كما تلازمي. وأجدها تتكرّر في كتاباته بأشكال وأسماء مختلفة. وكلما ثار عشقه معي سألتني: هل أنت العاصفة أم أنا؟ فأقول: نحن ملتقى العواصف، وهنا الرعب! وهل أنكر زهوي واختيالي حين قال بعد ذلك عن شفتي إنها بمذاق الشار التي أنضجتها التلال بشمسها ومياها، وأسقطتها الريح عامدة على فمه، لولا أنه، كلما التقم شفتي، ونهل منها، تضاعف الجوع في شفثيه واشتدّ الظمأ...



ناقشته في التراوح الغريب الذي قلت له إنني أرى فيه ظاهرة ربما كانت غير منطقية من ظواهر فكره وأسلوبه: ذلك التراوح في التأكيد مرّة على الزمن دون المكان، ومرّة على المكان دون الزمن. «في يوم ماء، في سنة ماء، هكذا تبدو كأنك تقول إذا طالبك أحد بتحديد الزمن»، فقال: «قد تظنين أنني أعمم، وأصلّل. ولكن من حيث الزمن، لا أكثر. أما ما هو غير ذلك، فمحدّد وواضح، تحيط به خطوط فاصلة عازلة. فأنا أحاول أن أقتلع التجربة من سياقها الزمني لأضعها في المطلق. ولكن المطلق نفسه به حاجة إلى مرساة

تشده. فيكون المكان بالنسبة لي هو النطاق الذي يمسك بالتجربة من أطرافها، ويلملهما، ويساعد في إبراز كينونتها.

ولكن في معرض آخر، أو سياق آخر، أراه يقول العكس تماماً: «في مكان ما، في مدينة ما، ثم يحدد الزمن، إن لم يكن باليوم والشهر، فعل الأقل بالسنة، فيقول: «إن المكان في هذا العصر يمكن أن يكون أي مكان، وبخاصة المكان العربي. وأما الزمن فلا بد من تحديده، لأنه في تحول مستمر، وقد يركض ركض المجاذيب. والتجربة إنما تتجوه في سياقه. فالزمن - مهما يكن المكان - هو الذي يلقي الاضواء والظلال، يبرز ويخفي، يصدق مرة ويخادع مرة، طلباً لإيضاح ما يجري في الحياة من تصعيد وتنام، أو ضمور وتلاش».

ولما سألته لماذا لا يرضى بما ألفه الناس من الجمع بين الزمان والمكان، ما دام هو قادراً على وضع الأشياء مرة في منظور زمني ومرة في منظور مكاني؟ قال: «حالمًا يجمع المرء بين الزمان والمكان، يفقد المطلق، ويقع في ذلك التخصيص من الصورة والرأي الذي ينكفيء على ذاته، هذا إذا لم يستجلب الإهمال، أو القمع، بشكل من الأشكال. الناس من دأبهم أن يخصصوا (إذا توفرت لديهم القدرة التعبيرية الكافية لذلك)، لأنهم لا يريدون، بل لا يستطيعون، أن يخرجوا عن حدودهم الذاتية التي هي جديلة الزمان والمكان. وأكثرهم، رغم ذلك، إنما يعممون هذا الخاص المحدود، ظناً منهم أنهم يقتربون من المطلق. وأما المطلق فهو الخلاصة الصعبة الحقيقية. هو الشعر. هو الذي يؤكد الجوهر الإنساني بخيره وشره، بكبريائه وسقوطه. فكري مثلاً، إن كنت تذكرين ما درسته في كلية الفنون،

في مآسي شكسبير التي يتخطى الإنسان فيها الزمان والمكان، في كل زمان ومكان. فكّري في معظم حكايات «ألف ليلة وليلة». المطلق هو الذي يعجز عن الإمساك به السجّان والسيّاف. ولعلّ هذا المطلق، في خاتمة المطاف، ما هو إلّا محاولة التقرب من إدراك الحياة وقد غدت مظهراً من مظاهر الكينونة الأزلية، ظاهرة من ظواهر الله... وغالباً ما يتبدّى لي أن الحالة البشرية، بكل نقائصها ومآسيها، هي بعض من مظاهر تلك الكينونة الأزلية. إننا بعض من الكوميديا الإلهية، حيث الجحيم أكبر مساحةً ألف مرّة من الفردوس. ولو أننا نلمح الفردوس أحياناً، بل قد ندخله مرّة لنعود فنخرج منه ليلقى بنا في الجحيم... وهذه هي الغربة الأبدية: وجودنا دوماً خارج الزمان وخارج المكان.»

وبعد صمت قصير استدرك: «طبعاً، هذا لا يصحّ على الناس جميعاً، ولكنه قد يصحّ عليّ، وعليك. ولا فخر... أنت ما زلت شابة، ولكنني أرى العلامة الفارقة في عينيك، في صوتك، في كل كلمة تقولونها أو تكتبونها. نحن نحمل العلامة التي لا يراها إلّا من هم على شاكلتنا: الموعودون بالغربة الأبدية. ولعلّ ما قلته قبل قليل عن نفي الزمان والمكان، يجب أن أصحّحه وأقول إننا، نحن الغرباء، نجدل الزمان والمكان بمفهوما الخاص، وعلى نحو يعجز عنه الآخرون، فنجعل من هذه اللحمة وهذا السدى نسيجاً تُنسج فيه، في الوقت نفسه، الرموز والإشارات، ووعي التاريخ متقاذفاً ومستعاداً، ونحيا من خلاله من جديد الأساطير القديمة بكل ما فيها من عنف العشق والموت والمكابرة وانتطوح في مهاوي الجحيم،

ونصنع أساطيرنا الجديدة، مؤكدين كل مرة أننا جزء من حركة الكون
وتداخلاته، بأفلاكه وأقماره وسُدمه جميعاً. . . »

وعندها صحتُ بين يديه، ولا أدري أصبحت استجابةً لكلامه
المذهل، أم لقبلاته اللذيذة، أم للموسيقى التي كانت مستمرة من
المسجل - سوناتة بيتهوفن للبيانو، الأباسيوناتا، التي كانت تضفر لي
الآنّي والمطلق، وتشير في العقل والجسد فأشعر أن أحشائي قد
انشقت عن كهف لا يروى بما يدفق فيه من طوفان الحب والنشوة.
صحت بين يديه، وقد أوحى إليّ بأنني أدوم مع أفلاك الكون لغير ما
معنى أفهمه: «ولكن لمدة، لمدة فقط. لهذه اللحظات العاتية الجارحة
التي ما إن تراجع حتى يبدو لي أن الزمان والمكان وحشان يتقاسمان
التهامي، فلا يبقى فيّ من سراب إلا المرأة التي أرفضها، وتصّر على
أن تكونني هي، بين أهلي، بين الناس. ولكن عندما أكون معك،
وكذلك عندما أكتب، أنقذ في الفضاءات، وأصنع أساطيري على
هواي. . . أتذكر ذلك المساء في كافيتيريا «الأنسام» عندما قلت لك
إنني أسبح في ينبوع العذب رغم البرد، فحدّثني عن جويستر وهو
يرقب الحورية إلى جُنت حباً وراحت عارية في الزمهرير تغتسل في
مياه النبع، فجعل بغازها برمي قذائفه النارية حولها؟ بقيت الصورة
في خيالي لا تبارحني، وتذكرت أيضاً أن ليذا كانت تسبح عارية في
النهر، فرأى حُسنها جويستر، وعلى طريقته عشقها في الحال. ولكي
يقترّب منها دون أن يخيفها، تحوّل إلى بجمة بيضاء تطفو في اتجاهها
على الماء، كحلم أبيض يتدائ منها. . . وعانقت ليذا البجمة، تلك
الروعة الناصعة الغاوية، واستسلمت لها، وأخذتها رعشة النشوة.

وأدركت عندها أن ربَّ الالهة هو الذي جاءها في ذلك الشكل
البيجي اللذيذ.. هل أنا ليدا، وأنت البجعة؟»

ضحك، ضحك بمتعة غريبة، ثم همس في أذني وهو يعيث
بخصلات شعري: «وثمرة ذلك الاستسلام، أتذكرين ماذا كانت؟»
قلت: «لا، وما همّي.»

قال: «هيلانة، أجمل امرأة في وعي البشرية. وهي التي من أجلها
اشتعلت حروب طروادة عشر سنين طوال، واحترقت المدن، وتغيَّر
مجري التاريخ...»

قلت: «لحظات العشق الباهظة لا بدَّ لها من ثمن باهظ،
وتستحقّه...»



كان لقاءنا هذا المساء في «الأنسام» الذي جعل النادلون فيه
يعرفوننا. وهم أصلاً يعرفون نائل: يعرفون اسمه وكتبه ومكانته. بل
إن واحداً منهم، واسمه ذياب، جاء إليه راكضاً قبل حوالي
أسبوعين، يطلب إليه نسخة من روايته «جزيرة السمندر»، قائلاً إنه
بحث عنها في مكتبات المدينة ولم يجدها. واليوم لم ينسَ نائل أن يأتي
إليه بنسخة، فرجاء ذياب أن «يهديها» إليه مع التوقيع، ففعل.
وذهب ذياب فرحاً بالإهداء إلى ركنه من المقهى، وبعد قليل فاجأنا
برسالة معنونة إلى «الروائي المبدع، نائل عمران»، وفيها يصف
إعجابه بكتاباته بصيغة أدبية جيِّدة أدهشتنا كلياً. واعترف لنائل فيما
بعد بأنه منذ سنوات يحاول أن يكتب، لولا أن ساعات العمل مرهقة

لا تتيح له متابعة اهتماماته الفكرية كما يشتهي .

وقد حدث مثل هذا في أكثر من مكان ارتدناه معاً، وفي أكثر من مرة جاءه نادل أو ساقٍ بثلاثة كتب أو أربعة من مؤلفاته، وطلب إليه أن يوقعها له . كنت أول الأمر أفضل لو أن أحداً لا يعرفنا في هذه الأمكنة، غير أنني جعلت فيما بعد أتباهى بأنني السيِّدة (المجهولة؟) التي ترافق هذا الذي يرمقونه باهتمام، وربما يتقوّلون عنه وعنهما ما يشاء لهم التّقوّل، ولكن ما عليّ إلا أن أحرك أصبعي الصغير حتى يأتوا إليّ راكضين ليخدموني بما أريد . من أجله هو بالطبع .

كان طريفاً، قبل بضعة أيام، ونحن في سيارته في طريقنا إلى دائرة حكومية عليه أن يراجعها لبضع دقائق، أننا وجدنا في ركن من الطريق فرنأً بلدياً يصنع أقراص الخبز الرقيقة . فتوقّف نائل، قائلاً إن سائلة كانت قد وصّته بشراء خمسة أقراص لأكلة شعبية تريد أن تطبخها له . نزلنا كلانا إلى مدخل المخبز، وجاء إلينا شاب مبيض الوجه والملابس بالطحين، كان يلقم فوهة التّنور بأقراص العجين، وطلب منه نائل حاجته . وما كاد الخبّاز يعدّ الأرغفة الخمسة حتى تأمّل في وجهه وهتف بفرح : «ألسـت نائل عمران؟ أم أنـي واهـم؟» فلما أجابه نائل بأنه هو، قال الخبّاز : «والله لن آخذ ثمن الخبز!» وجرى بينهما الحوار التالي وأنا أقرب المشهد بمتعة :

- لا، تأخذ!

- حلفت يا أستاذ .

- ولماذا لا تأخذ حقك؟

- لأنك من الكتاب الذين أحبّ كتبهم .

- ومن هم الكتاب الآخرون؟

- أجاثا كريستي وطه حسين، إلى جانب نائل عمران. يعني هل ترضى أنت أن آخذ نقوداً من أيّ منهم لوجاء يشتري خبزاً من عندي؟ أستاذ نائل، اسمح لي أن أقول لك، إن كتبك عندي هي كخبري هذا في ساعات التعب والجوع الروحي...

عندما تركناه والأرغفة الحارة بين أيدينا، علّقنا صاحكين على المزيج الغريب من الأسماء التي يعجب بها خبازنا المثقف. وله الحق فيما يعجب به!

ولن أنسى في أوائل أيامنا معاً، كيف أننا خرجنا مرة من المقهى وعرجنا على صيدلية قريبة لأشتري دواءً أحتاجه، وإذا بفتاة قد لا تبلغ العشرين من عمرها تدخل وراءنا وهي تلهث، وتخطبه بمزيج من الجرأة والحياء: «أنت الأستاذ نائل عمران، أليس كذلك؟» ومع أنني في تلك اللحظة كنت أطلب إلى الصيدلاني ما أريد، فإن أذني التقطت كلمات الفتاة اللاهثة وهي تقول: «العفو، ركضت وراءك لتلا أضيّعك، لكي أقول لك إنني معجبة بك.» فقال مازحاً، كشأنه في مثل هذه المواقف: «تقصدين، معجبة بكتبي.» فأجابت بإصرار: «بكتبك، وبك شخصياً.» شكرها، على طريقتة الدمثة، وسألها مجاملاً: «اسمك الكريم؟» قالت كذا وكذا (نسيت اسمها)، وفي هذه الأثناء كنت قد دفعت ثمن الدواء، فاستدرت إلى نائل، وأخذته من يده قائلة: «يلاً، نائل.» وأفهمت المعجبة اللاهثة، بنظرة صارمة بعض الشيء، أن «اللقاء» انتهى. وتذكّرت لهاثي وأنا أركض وراءه

يوم التقيته أول مرة حتى كدت أقع على وجهي في المصعد الذي سبقني في الدخول إليه.

أحياناً، في مقهى «الأنسام»، تُعزف على المسجل موسيقى وأغانٍ عربية وغربية، بصوت يتقصد مسؤول المحلّ جعله خافتاً، ليبقى خلفيّة مبهمة لانعوق أحاديث الجالسين. هذا المساء فاجأنا أحدهم بعزف أغنية فرنسية قديمة، ربّما لأول مرة في المقهى، هي «پليزير دامور». وما كدت أسمعها حتى ناديت ذياب، وقلت له: «أرجوك، أعد عزف هذه الأغنية الأخيرة، وارفع الصوت قليلاً». فقال بخبت محبّب: «والله أحضرتها من أجلكم». وذهب إلى المسجل، وأعاد بثّها بشكل مسموع.

قال نائل، وهو يصغي إليها: «تفهمين الفرنسية جيّداً، طبعاً؟»

قلت: «أفهم كلمات هذه الأغنية على الأقل..»

قال: «لذات الحبّ، ما أسرع ما تزول، أحزان الحبّ، ما أطول ما تدوم...»

استسلمت للأغنية، موزعةً بين لذات الحبّ وأحزانه، وقال نائل إنه يرجو أن ينقلب معنا الميزان فتطول اللذات وتقصّر الأحزان. وأجبت بأنني أشعر أن أحزان الحبّ لها لذاتها أيضاً، إذا كان لا مفرّاً من مجيئها... وحديثه بما كان قد خطر لي مراراً ولم أجد فرصة لقوله: «قد لا تعلم أنني اكتشفت أن إحدى زوجات عثمان بن عفّان كان اسمها نائلة. فإن كنت أنا بصدفة التسمية من بنات عفّان، فلعلّه ليس من الصدفة أن أنتبه إلى أن اسمك نائل. ونائلة هذه يا

عزيزي، إن كنت قد نسيت التاريخ، هي الزوجة الوفية التي أرادت الدفاع عن الخليفة عثمان بن عفان عندما هوجم في غرفته بالسيوف، وحاولت أن تقيه بجسدها، ووقعت ضربة أحد السيوف على أصابعها وقطعتها... وقد وجدت أنها كانت شابة جميلة عندما تزوجها وهو في السابعة والسبعين من عمره. وبقيت حزينة على مصرع زوجها وهو في الرابعة والثمانين، حتى قالت، فيما أذكر: رأيت الحزن يبلى كما يبلى الثوب، وقد خفت أن يبلى حزن عثمان في قلبي... ولما كانت من أجل نساء زمانها، وتزداد فتنة إذا ضحكت، فقد خطبها معاوية... أحزان الحب، ما أطول ما تدوم... أتدري ما الذي فعلته نائلة؟ رفضته، وكسرت مقدم أسنانها المشهورة ببريقها وحسنها، وأرسلتها إليه قائلة: أترى في عروساً بعد هذا؟ نائل، هل ستبقى وفياً لي كما فعلت سميتك الرائعة؟

أجاب ضاحكاً: «حتى لو قطعت السيوف أصابعي! ولكن، انتظري! أراك قلبت الآية علي.»

قلت: «سأبقى أحبك حتى ولو بلغت الرابعة والثمانين بعد المئة!» اربد وجهه فجأة، وامتلات تقاطيقه ألماً، ولم يجب وهو ينظر في عيني، ثم تكلم ببطء كأنه لا يريد أن يفوه بما كان يقوله: «سراب، لن تعلمي ما الذي أنت تفعلين الآن بفكري، بعواظي. تعلمين أن لسهام دوراً كبيراً في حياتي، وأن حزني عليها... ولم يكمل.

فأمسكت بيده، وقلت: «أنا آسفة، نائل...» وتذكرت أن تمثالها في غرفة نومه ما زال في مكانه، آخر ما يرى في الليل، وأول ما يرى

في النهار. واعترفت له: «أتعلم؟ جعلت أغار من وجودها ولو حجراً في غرفتك..»

فلوّح بكلتا يديه فوق المائدة بعنف غريب: «لا، لا، سراب. لا تفعل ذلك. هي التي يجب أن تغار من وجودك في حياتي، من حضورك في كل لحظة في ذهني، في دخبليتي...»

وثمّنت في تلك اللحظة لو يأخذني في حضنه وأدفن وجهي في صدره وأنا أقول: «أحزان الحب، لذات الحب، إلى ما لا نهاية...» والتفت، وأشارت إلى ذياب، الذي أسرع إليّ، وقلت له: «بحياتك يا ذياب، أعد عزف تلك الأغنية الفرنسية مرّة أخرى. هل من مانع؟»

أجاب: «أبدأ، أبدأ..»

وملأت المفهى أنغام لذات الحب، موحية بأن لأحزان الحب أيضاً لذاتها، وجابته نائل بسؤال: «هل يمكن أن يعشق إنسان هذا العشق كله؟ أم أن الأمر كله وهم في وهم؟»

قال نائل بمكر: «هذا هو الهيمان الذي تحدّث عنه ابن حزم الأندلسي، الهيمان الذي يسبق الجنون. عندما أحطّمك بين ذراعيّ، سراب، ألا تكشفين أن كل شيء حولنا وهم في وهم، إلّا هذا الذي تحدّثين عنه؟»

ضحكت: «رحمك الله يا ابن حزم... ألا ترى أنني تحطّيت الهيمان ودخلت مرحلة الجنون، ومنذ زمان؟»

«عبث، عبث، عبث»، راح يردّد. «هذا الجهد المتواصل، هذا العذاب الداخلي، هذه النوازع التي تتبلور كلماتٍ على الورق - كلها عبث..»

لم أكن أدري ما به بالضبط في الأيام الأخيرة. ولكنه كان اليوم أكثر وضوحاً في تعبيره. «ما الذي نقدّمه للعالم، أنا وأمثالي من الذين بعدابائنا المتوالية جعلنا صلتنا بالوجود صلة كلمات وصور؟»

قلت بحماس: «كل شيء! كل شيء! ماذا يكون العالم بدونكم؟ بلا لون وبلا طعم..»

هزّ رأسه غير مقتنع: «نريد أن نعطي الإنسان حقّه في الكبرياء، في الجمال، في الحرية. ولكن ما الذي نحقّقه من هذا «العطاء» المزعوم؟ آمنيات، مجرد آمنيات، مجرد أحلام، إزاء آخرين يشغلون الناس كل ساعة بكل ما يمنع عنهم هذه الكبرياء، هذا الجمال، هذه الحرية. ألا ترين، يا سراب، أن أهل الحظر والمنع هم سادة الواقع، هم القابضون على إمكانيات الحياة من أعناقها؟ ما الذي نحقّقه نحن في رؤانا المتمردة من مقاومة إزاء هؤلاء الجلاوزة كلهم؟»

فأجبت بإصرار: «كل شيء! كل شيء جميل، كل شيء يستحق أن يعيش الإنسان من أجله، كل عاطفة رائعة، كل سموّ على اللحظة الأنيّة، إنه من صنعكم. وفي النهاية، ما من خلاص إلا ويتمّ عن طريق رؤاكم..»

ابتسم ابتسامة الساخر من نفسه، وقال: «أعني لو أصدّق كلامك. كلنا نبدأ من الثقة، ثم نرانا ننزلق في مزالق الخيبة،

واليأس، والمحظوظون فقط ينهضون ثانية، ويثبتون أقدامهم في سيرهم باتجاه إيمانهم الأول، مهما يكن السير. ما أكثر الفنانين الذين ساورهم الشعور بالإثم، بأنهم إزاء قسوة الحياة وفظائعها لم يحققوا ما قد يحققه طبيب يقتلع ورمًا خبيثاً من جسم مريض، أو سمكري يفتح مجرى للماء كان في انسداده تنغيص حياة عائلة بكاملها. »

قلت: « لا، يا نائل، أنا لست معك في شكك هذا. أنت اقتلعت ألف ورم خبيث في أنفـس لا تعرف عدّها، ومددتهم بعافية جديدة لن تدرك مداها، وكل يوم تفتح ألف مجرى مسدود يتلغ المياه الأسنة ليفسح المجال لحركة الحياة... لا بأس من أن يساورك الشعور بالإثم، فهذا معناه أن ذهنك نابض، وقلبك نابض، وأحاسيسك نابضة. وأنت في غابة الجلاوزة تخلق في كل جملة تكتبها كميناً لا بدّ أن يسقطوا فيه يوماً، بشكل أو بآخر... »

وحين راح يعبر عن المزيد من ذلك الإحساس بالإثم والألم، لم أنزعج عن موقفه. وقلت له (ولو أنه يعرف ذلك دون أن أنصّ عليه) إنني مثل واحد على هذه الأنفس التي يشفيها ويمدّها بطاقة لا يدرك مداها. وقلت له إنني في هذه الأسابيع القليلة التي عايشته فيها جسداً، بعد معايشتي الطويلة له خيلاً، اشتدّ عزمي على ما كان يخطر لي قبل ذلك من خواطر كنت أعرف أنها مغرية ولكنها تبدو غير عملية، بل مستحيلة. قلت له إنني وقعت في حبه كمن سقط في بئر، فوجد أن البئر تؤدّي إلى بحار من النشوة، لعلّها بحار الجنة، وعبر هذه البحار سأقلع إلى حيثما تطفر بي خيالاتي الجامحة: إنه يدفعني في الاتجاه الذي بتّ أرى أن لا بدّ لي منه. وهكذا يكون هو منقذي.

قال: «أنا أتحدث عن عمل الفنان، وأنت تتحدثين عن الحب.»
قلت: «هما متداخلان، ولا أستطيع تصوّر الواحد منفصلاً عن الآخر. عمل الفنان بمعانيه الأوسع، والحب أيضاً بمعانيه الأوسع. وبخاصة في كتبك. متداخلان جداً، كالسبب والنتيجة، كالعلة والمعلول. وكلاهما يدفعان بي دفْعاً لن أستطيع بعد اليوم صدّه أو مقاومته.»

وبعد الجدل والمناقشة قال وهو يعصر كلتا يديّ بيديه: «إنني أخشى عليك. أخشى عليك.»

قلت، وأنا أرفع كلتا يديه لفي، أقبلهما الواحدة بعد الأخرى: «أبدأ، أبدأ، حبيبي. ولن أحيأ إلا من أجلك، أينما كنت أنا، أينما كنت أنت.»

نظرت في عينيه العميقتين، وبدأ لي أن شيئاً كالدموع يملأهما. هل توهمت ذلك؟ أمسك عندها بوجهي بين راحتيه، على طريفته التي تلذّ لي، وقبلني على فمي قبلة طويلة، ثم ألحقها بأخرى أطول، فقلت له بين تمازج الشفتين في الشفتين: «قطعت عليّ حبيل أفكارٍ.»

قال: «وأفكاري أنا أيضاً.» وقبلني من جديد.

اليوم، أنا ونائل حاولنا المستحيل: حاولنا أن نحلّل الحب، استجابة الواحد للآخر. فرحة الواحد بالآخر. التعلّق المتبادل الذي يوحى لكل من المحبّين بأن ثمة في الجسد روحاً مجنّحة تبدأ فجأة، بعد نومة

طويلة، تخفق بجناحيها وتريد الطيران، والتحليق إلى ذرى كانت في السابق حدساً وإذا بها حقيقة هائلة.

ولكن الجسد شطر أساسي، كما يقول ناثل. ويستشهد بما قرأه في «المأدبة» و«فيدروس»، أو ربّما بما يتذكّره من هاتين الحواريتين، قائلاً إن أفلاطون يتحدث عن أن الحب الإيروسى هو الحب الحقيقى للآخر، لأنه مبني على شخصية الآخر، وتاريخه، وكيانه بأجمعه، ولا يمكن فصله عن الصداقة الحميمة السخية، كما لا يمكن فصل الفلسفة الحقيقية عمّا يسمّيه «بالجنون الإيروسى». (هذه النقطة الأخيرة لم أستوضحها تماماً.)

أرجو أنني لا أشوّه كلام ناثل، أو كلام أفلاطون، بهذه الخلاصة للحديث الطويل الذي شغلنا ساعات. فبينما يقول الفيلسوف اليوناني ما معناه أن الذهن وحده هو مكن الحب وطموحه إلى الخير، فإنه يتحدث عن هذا الحب بأنه «جنون» الحب. إنه كالشعراء العرب يقرن الحب بالجنون، ويستقرّ بهما في «الجنان» - الذهن بمعناه الفلسفي؟ - ولكنه يعود ويربط بين الجسد والروح، أي أن الذهن إنما هو جزء من هذه الوحدة المركبة. فأجنحة الروح معلقة بالروح بكاملها، لا بجزء واحد منها. وخطوط الجسد الظاهرية وتضاريسه، حين تُرى لأول مرة، تومىء إلى الروح كوحدة متكاملة، وإلى ما تمثله من شخصية الفرد وعالمه.

ولكن الروح تكون في حالة جفاف إلى أن ييزغ الحب، فيسقي جذور تطلعاتها، وينعشها. وعند ذاك تستجيب الروح بفرح، وتأخذ في تأمل استجابتها الفرحة (كما أراي أفعّل الآن؟). وحين تفعل

ذلك، فهي إنما تستعيد للشخص هويته، تستعيدها من الضباب، ضباب الكثافة التي نعيش عادة فيها، لكيها تتضح غايات الذات الحقيقية...

لا أدري إن كان ناثل، أو أستاذه أفلاطون، يحاول بهذا الكلام استقصاء حالتي أنا وفهمها! ويضيف أحدهما أن يقظة الروح هذه، وسقائتها التي تنهي جفافها، تحدثان لها ككل متكامل، ولكن بكثير من الاضطراب، والعنف، والحمى. ولذا، فإن الذهن وحده لن يحرك الحب في أي اتجاه. إنما المهم هو في ما يجري من تفاعلات فيه وحوله: تفاعل بين التطلع وبين الرغبة الإيروسية، وتفاعل هذين الاثنين مع الدهشة والمودة المتصاعدتين تجاه الآخر. هذه هي محركات الحب التي لا بدّ منها. والجمال الجسدي، في خاتمة المطاف، يوجّه الروح في تخليقها نحو عالم الأشكال المثالية التي ما حياتنا إلّا من ظلالها...

لا أعرف مقدار ما ساهمت به في هذا التحليل، غير أنني كنت أحسّ أنني أنا موضوع هذا التحليل، صائباً كان أم خاطئاً. وإذا كنت أنا الموضوع، فنائل هو الشقّ الآخر في موضوعي هذا، حيث يخيّل للواحد منا، في لحظات التجلّي، أن الجسدين جسد واحد، والروحين روح واحدة، وما الفصم بينهما إلّا من عمل الخالق الذي حرّك الكون حين حرّك النصف نحو النصف، وجعل لالتقائهما زلزلة اللذة الجنونية.

بعد حديثنا المستفيض أمس عن الجسد والروح، تساءلت اليوم،

وأنا أتذكر أيضاً آلاف المرات التي سمعت وقرأت فيها كلاماً عن الجسد والروح: هل، فعلاً، لكل إنسان أراه وأخاطبه وأتعامل معه روح بهذه الصفات، بالإضافة إلى ما أشاهده أمامي من جسده، وأسمع من صوته؟ هل لكل من المديرين عندنا، شريف الترك وعبد الرحمن المولى، وهما يتقلدان كالمكوك من مكتب إلى مكتب، روح تستكين، وتنفض، وتسقيها تجربة ما فتتنفض وتنتعش، ويتحرك جناحها، فتحلق؟ هؤلاء العشرات الذين أراهم كل يوم يغامرون في الصفقات المالية، ومشاريع التفريخ والفنادق، وإنتاج اللبان والشوكولاتة، وبناء العمارات العديدة الطوابق، هؤلاء كلهم، هل لكل منهم روح قد تحقق أحياناً بحبٍ يثير فيها الفوضى الرائعة والحمى العنيفة، فتسببهم حاجاتهم الآنية، وتدفع بهم في منحرجات من الدهول، أو تصعد بهم في معارج يرون فيها رؤىً ويحلمون بما لا يحلمون به في منامهم، ويسمعون أصواتاً من عوالم أخرى تقلقهم على غير ما يقلق الجسد وتطالب الغريزة؟

هل تساهل أفلاطون مع البشرية أكثر مما ينبغي، فتحدث عن الروح كأنها هبة الله لكل من يمشي على الأرض؟ سائير هذا الموضوع مع نائل، وسأقول له إنني، بكل تواضع، أرى أن الروح التي قد تتحول بغتةً إلى نار آكلة، لا توجد إلا في أولئك الذين يصفهم هو بأنهم الموعودون بالعذاب والغربة والنشوة والخلق، تلك القلة التي أرادها الله، لحكمةٍ منه، قريبةً إليه، بكل لذاتها وأحزانها، وتقصد أن يميزها بقلتها وفرادتها.

قبل أيام، في «الموليداي» عصراً، عرّفتني نائل على عبد الله الرامي الذي لمحتنا في المقهى فجاء ليسلم علينا، وأصرّ نائل عليه بالجلوس لشرب فنجان قهوة. وكان نائل قد حدّثني عنه أكثر من مرّة، وبمقدار وشكل أثارا فضولي واهتمامي، وعبر عن سروره بأن توفّرت لنا الفرصة للتعارف. قال إنه نازل في الفندق لبضعة أيام. وجدته رجلاً مرحاً، سريع النكتة والاستجابة، ومع ذلك فإنه يصغي بتركيز، فتبدو عليه أمارات الجّد لدرجة التجهّم.

أمس، دون أن أعلم نائل، قرّرت الاتصال به تلفونياً. وهذا الصباح خطفت رجلي حوالي الظهر، وذهبت بسيارتي لرؤية في مقهى الفندق.

الفكرة هائلة! ولكن عبد الله لا يريدني أن أبحث الموضوع بأي شكل من الأشكال مع أي إنسان.

سيتوضّح الأمر بعد عودته في الشهر القادم.

الفكرة هائلة - ومقلقة.

سأعطيها المزيد من الوقت والتأمّل.

جميل هو اسمك،

وأجمل منه

جسمك.

زهرة أنثى

استوحدت في البراري

على السفوح
وفي العوالي،
حيث الأمطارُ
والشموس والزوابع
لا تُنبِت إلّا
أنذر ما يصنعُ الله -
مثلك !
قوامك تلعة صخر:
ارسلي الشعر عليها
ينابيع ليل
يستحم بها وجهي،
وشفتاي على
شفتيك
وهما كوردةٍ
بريةٍ أخرى
فيهما الرحيقُ
مذاقه الأمطار
والشموس والزوابع،
وليل شعركِ
يحيط بي
كليل البراري
حيث لا يوجد
إلّا الله -

متمثلاً في اسمك،

وجسمك،

وعشقك!

غاب عني ثلاثة أيام في متابعة قضية استدعته إلى مدينة في الشمال، ولم يستطع أن يتصل هاتفياً لرداءة الخطوط، وجاءني بهذه القصيدة التي قال إنها نزوة منه شغلته في الأماسي التي قضاها وحده غريباً في الفندق. فليس من عادته أن يكتب شعراً، تاركاً نظم القصائد لطلال صالح. وأصرّ على احتوائي بين ذراعيه، لكي يقرأها لي قراءة «حسية»، كما قال. ولما فرغ من أدائها على طريقته، قلت: «إذا كانت قصيدتك تكفيراً عن خطيئة غيابك، فقد غفرت لك. ولكن لا تحسب أنني سأغفر لك كلما غبت، مهما جئتني بقصيدة. ومع ذلك، غب إن شئت، فأكتب لك أنا القصائد... أنضحك؟ غداً، أو بعد غد، سأتيك بقطعة شغلتي في اليومين الآخرين. أتسمي «زهرة استوحدت في البراري»؟ أنا فرس بربرية جمحت في فيافيك المترامية...»



أيّ صباح رائع كان صباحي اليوم! كان الحرّ شديداً عندما حملتني سيارة الأجرة إلى حيّ جنين، حيث كان نائل ينتظرنى، كالعادة، في أول المنعطف المؤدّي إلى الحيّ، ولما نزلت من السيارة شعرت أن الشمس تنفضّ عليّ انقضاءً، ريثما أعبر الشارع المزدحم بالبشر والعجلات، وهو يرقني من على مقعده في سيارته الزرقاء في الناحية الأخرى، وبإحساس سفينيّة يمحّرها ملاحها بين الصخور ببراعة

وحذر ليبلغ بها برّ الأمان. ودخلت إلى المقعد بقربه، وكأن النار أضرمت في جسدي، لأجدني في وسط بارد الهواء، وقد جعله نائل ينطلق على أشده من مكيفة السيارة. كانت يده باردة حين أمسكت بها، وخذه بارداً حين مسحته بقبلة سريعة، وهو يقول: «ما أحرّ شفتيك! لو مسك حجر مسّه سراًء». قلت: «تقصد، لو مسني حجر مسّه خراًء... بي من الحرّ ما يكفي لحرق مدينة بكاملها». قال وهو ينطلق بنا: «من هنا تبدأ القصائد، من هنا تبدأ الحرائق...»

كلانا ترك عمله غير آسفٍ هذا الصباح، فانقطاعنا الواحد عن الآخر يوماً واحداً كافٍ للتمرد على واجبات الدنيا كلها، فكيف إذا كان الانقطاع ليومين اثنين؟ آلاف الأشياء تتراكم، آلاف الأفكار، آلاف الكلمات، آلاف الأحاسيس، ولا بدّ لها من منفذ تنطلق منه معاً إلى حيث المزيد من الأشياء والفكر والكلمات والأحاسيس. ولتذهب مكاتب التجارة إلى الجحيم، ومعها مكاتب المحامين، ومكاتب الوزارات، ومكاتب الدلائل والسماسة. وعندما أوقف نائل السيارة في مكان ظليل من المرآب، وقد قاربت الساعة الظهيرة، نزلنا إلى الشمس الحارقة نخترقها في اتجاه مدخل «الهوليداي». وقال ضاحكاً: «من الذي أشعل الحميم في الشمس اليوم؟» أجبت: «أنا وأنت، من غيرنا؟»

سرنا نحو المشرب، مستشعرين برودة المكان المعتم التي أنستنا حمم الشمس، واتجهنا نحو مائدتنا المفضلة في الزاوية العليا البعيدة، وليس ثمة إلا ثلاثة أشخاص أو أربعة، لا نعرفهم، جلسوا

متباعدين، كلّ منهم في عزلة موحشة ظاهرة، يشربون البيرة. أنا لا أشرب البيرة، ولا أشرب الكحول الأخرى، ومن عادي أن أطلب كأساً من البيرة كولا مع ثلج كثير، فيسايرني ناثل ويطلب مثلاً أطلب. هذه المرة، حالما جلسنا، قلت: «جئت اليوم بقصيدتي».

- أخيراً، أخيراً! وستقرأني لي. ولكن، لماذا رفعت شعرك؟

- لشدة الحرّ.

- وتقرأين لي قصيدتك وشعرك مرفوع؟ أبداً! سترخين شعرك على كتفك، وتؤطرين قراءتك بأروع ما خلق الله! هيا، إلى الحمام، وعالجي الموقف بسرعة.

- إذن لن نشرب البيرة اليوم، بل النبيذ.

- بل أجود النبيذ.

- كأس واحدة فقط، هه؟

ذهبت إلى الحمام، وحللت شعري المشدود، وأرخيته كما يحبّه ناثل، ومشطته، وعدت بعد دقائق لأجد ناثل يحدّق بي وأنا أقترّب منه، وكأنه يريد أن يلتهمني بعينه. جلست دون أن أنطق بكلمة، وهو مازال يرنو إليّ ولا يحيد ببصره عني، صامتاً، منفرج الشفتين حتى قلت له: «ماذا؟ ألم ترني من قبل؟»

قال ببطء، وهو ينفث دخان سيكارتته: «أبداً. كل مرّة أراك فيها،

هي المرّة الأولى».

فضحكت، مستذكرة قصيدة طلال، وقلت: «هس، لا تبالغ!

هل طلبت النبيذ؟»

- سيأتي بعد لحظات. أين القصيدة؟

- أقبَلْ أن تقام المراسيم، وتُدلق الخمر على التربة الحمراء؟

عندها جاءنا الساقى بكأسين كبيرتين من النبيذ الأحمر، لكل كأس عنق رفيع مرهف يحمل كرة الخمر بخيلاء وألّق. حتى ملمس ذلك العنق الزجاجي كان كله غواية، أحسست بها تسري في أصابعي، ومنها إلى ذراعي وصدري. وكانت الرشفة الأولى، وأنا أنظر إلى نائل وهو يرشف من كأسه، تأكيداً على ما يسري في جسمي من لذة مصفاة أوحّت إليّ بأنني شخصية أسطورية في مسرحية إغريقية... رندة الجوزي! لن تعرفي هذه اللذة الرائعة جسداً وذهناً معاً. إياك أن تتدخل في لحظاتي هذه بعقلك ومنطقك المرفوضين! أنا لست من أهل الأرض في هذه اللحظات. انظري إليّ، واسمعي كلماتي وكلماته، واسكني إلى الأبد!

أخرجت القصيدة من حقيتي، واقتربت من نائل ما استطعت، جاعلة خصلات شعري ستارةً بيننا وبين الآخرين، وأخذت جرعة عميقة من نبيذي، ورحت أقرأ، همساً، صراخاً، لست أدري، وأتوقّف بين حين وحين لأسعف نفسي بجرعة أخرى:

لم تكن لي عروش أو قصور... كان لي رأس

وجسد... ويوم أقات منه أحلامي

وكنوز ثروتي... بركانُ عشقي لو تفجّر

لدفن حُبّ العالم في قعر لا يدركه قياس البشر.

جئتُك فرساً بربريةً موشومةً بالطبيعة،

وخطاي نحوك قدّر رسمته عرافة بابلية.

جئتُك، وأنت هناك معلقٌ بجدار أفقك،

وعينكِ حدوتنا فرسٍ مسمرتان
فوق شفتيكِ كتميمةٍ . . . تتحدّى الشرَّ الأبي!
أيُّ زمنٍ طرقتُ معكِ؟ أيُّ بحرٍ دخلتُ؟ . . .
وأحلامي مراكبٍ تائهة
تجمع زَبَدَ عشقي العائمِ في ظلكِ،
فعشقي لكِ ليس إلَّا أسطورةً مجهولة
اغتربت ألف عامٍ على ضفافكِ المنعزلة،
ولم تُحتتم حتى بخطوطكِ الوميمة . . .
وكانت تنتظر.
وانطلقت صفارة التوقيت، في لحظة كانت
لا تزال فيها نوافذ الاعتقال الداخلي مغلقة،
يتسرَّب منها بصيصٌ من نورٍ باهتٍ
يولد في لحظة ويموت في أخرى.
وبدأ الانطلاق!
وأصبح الزمن عديم الملامح،
عديم الحدود . . . وخرجت فرساً بريّةً
تحصد المسافات بقفزاتها الجنونية،
تخبُّ نحو صخور هاويةٍ ما ألدَّ الموتُ فيها
إن كانت هي الطريق إليك،
وهي تصهل عبر أرضٍ كالجمر، تكبو
وتعثر في الظلمات، لتنهض
من بين الصرخات وتعلو البطاح

وتطوي الغيوم بأحلامها التي بدأت
تنزف ندَى يتساقط على زهور حقلك المنتظر!
وتحوّل نبض العالم في قلبي إلى
شلال أبدي من عشقك،
وجنوني الطفولي يمرح
بخلجٍ دافئ يتعابث في طيات اغترابك...
وامتزج العشق والفجر ليكتسحا ذبول ظلام
عشش تحت أجنحة روحك،
وأعلن كلاهما التحدي!
والتحدي والصراع هما لغة المسافة بيننا،
وحبي المتوحش يسبق الخطوات،
وساحاتك تتلوّى التواء الأفاعي، وتتلولب
حول قدمي، لتتحوّل إلى دوائر،
وبدورها تتوالد الدوائر،
وأنت كأرجوحة إيقاعية في رأسي
تتوالى فيها صورتك،
وأسوارك تتناوب وتتراحم
مع عدّ الزمن التنازلي
لتتلاشى مع المسافات، وتتحوّل
إلى معتقل وخط نهاية:
تشكيلين رائعين للوحة مؤطرة
بطوق النهاية
لفرسٍ بربريةٍ موشومة...

«هائل، هائل»، همس وهو يطفئ سيكارتة في المنفضة، ويأخذ جرعة كبيرة من نبيذه الذي كان قد نسيه في أثناء تلاوتي. ثم أخذ الأوراق من يدي، وراح يقرأها من جديد بصوت خفيض مسموع، وخصلات شعري ما زالت تتأرجح كستارة تعابث الريح وتفصلنا عن العالم، وأنا أصغي إليه، متسائلة: هل أنا كاتبة هذا الكلام الذي، إذ أسمعه من شفتيه، يوحى إليّ بمزيد من معانٍ لم أكن أعي أنني صاحبتهما؟

وقال أخيراً: «إن كنت حقاً تعنينني أنا في قصيدتك هذه، فإنني رجل لم يُعشق في الدنيا رجل مثله. أما أنت، فأكبر عاشقة وضعت بعضاً من جنونها في كلمات!»

ونخب تلك الكلمات بالذات، شربنا ما تبقى في كأسينا.

وعندما اتجهنا نحو قاعة الطعام لتناول الغداء (وهل كان لي إلا أن أرحّب بتلك الزيادة من المتعة، في أمرٍ لم يبق فيه أصلاً مجال لزيادة، مهماً يحتاج والدائي على تأخري وغيابي ساعة الغداء عن البيت، ويكثر من المساءلة والاحتجاج؟) شعرت وأنا أسير إلى جانب نائل عمران طوال الردهة، ثم الرواق المؤدي إلى المطعم، أنني لست فرساً موشومةً فحسب تصهل عبر الهاويات والبراري، بل مع هذا الرجل أنا براري الدنيا وهواياتها ومدنها جميعاً... واسكتي يا رندة! هذه تجربة لن تفهميها. ولا تسأليني أين جلسنا، وماذا أكلنا، لأنني والله لا أذكر. ولا أذكر كيف اقتادني نائل بعد ذلك من خلال حمم الشمس إلى السيارة وقد انحسر عنها الظل، وكيف قبّلني فيها وهي في حرارة الجحيم، وكيف أوصّلني أخيراً إلى البيت قبيل الرابعة،

والكل في انتظار عودة سراب من وظيفتها الظلمة . ولم ينقذني منهم إلا انطلاقي نحو الختام، ونزع ثيابي بسرعة، والوقوف عارية تحت الدوش الذي، رغم حرّهِ هو أيضاً، أعاد إليّ يقظتي ووعيي . ومن الختام رأساً إلى الفراش، والنوم الأسود العميق .

كيف أكتب عمّا حدث؟ كيف أكتب عن تجربة مؤلمة ومقينة معاً، مثيرة للحزن وللغضب معاً، تجربة أقحمت فيها كما بمخالب شيطانية تريد تمزيق أحشائي وأنا في القمة من فرحي وسعادي؟ وأمس مع نائل، كان قَمّة من قمم حياتي: الحرّ اللاهب، العنمة الباردة الغاوية، الشّعر الجنوني، النبيذ الذي كانت كأس واحدة منه تكفي رمزاً للذات الحب التي تسمو على كل تجربة، وحديثنا المتداخل وكأننا في غيبوبة الدراويش التي وصفها نائل، ونحن لا ندرى ما الذي نأكله في مطعم «الهوليداي»، ولا ما نحن نقول، غائبين في دوران النشوة الإلهية . . .

جئت إلى المكتب في الصباح، سادرةً في حلمي المستمر، وبإي إحساس عميق بعدوبة كل شيء أراه، كل شيء أمرّ به، كل شيء أسمع . عذوبة هائلة تكشّفت عنها الأشياء أينما التفت، وأنا على موعد مع نائل عصر غدٍ (أردته عصر اليوم، ولكن أعماله لا ترحمه أحياناً). وكنت رقيقة جداً مع اسماعيل الذي جاءني بفنجان القهوة وكله ابتسام، وكنت رقيقة جداً مع الأستاذ عبدالرحمن، ومع ثلاثة مراجعين، وأوراق العمل تنساب بين يديّ انسياب الجدول الصافي . وانتصف النهار، واقتربت الساعة من الواحدة، حين خرج المدير،

وبرفته اسماعيل، وقلت سأقضي الساعة المتبقية في طبع صفحة أو صفحتين على الآلة الكاتبة، في محاولة للإمساك ببعض ذلك الوهج المتبقي بعد انحسار اللهب.

عندها دخلت عليّ السيدة تالة الترك، ولم أكن قد رأيته منذ أشهر، ولو أنني كلمتها هاتفياً بضع مرّات كانت فيها دائماً كثيرة اللطف والدمائة. استقبلتها بحرارة، وإحساسي بعذوبة الناس والأشياء مازال طاعياً فيّ، ووجدتها جميلة جمال الأنوثة الناضجة، وفستانها الصيفي يؤكّد حسن ذوقها في اختيار ما تلبس، وفي أذنيها قرطان رهيفان، وحول عنقها قلادة ثمينة يشعّ بعضها على بشرة صدرها، وبعضها على ياقتها الزرقاء العميقة القصّ، وهي تحمل حقيبة يد زرقاء أنيقة. ولكن كانت تبدو عليها سياء الحرّ الذي جاءت من خلاله لزيارتي في تلك الساعة من يوم قائظ.

بعد أن جلست، واقترحت أن آتيها بشراب بارد، أو بفنجان قهوة أغليها أنا، متوقّعة تبادلاً منعشاً لما أنا فيه من إشراق داخلي، رفضت أن تشرب شيئاً. وبدأ لي أنها تتأمّلني بعينين قادحتين: تتأمّل وجهي، وجسمي، ويدّي، وأنا أخبرها بأن زوجها لم يحضر اليوم، وأن المكتب ليس فيه أحد سواي. وتبيّات ذهنياً لإعلامها عن تطورات حقل الدواجن الذي لها فيه معظم الأسهم. غير أنها بعد عبارتين أو ثلاث من المجاملات المألوفة، فاجأني بسؤالها: «سراب، أين كنت أمس؟»

لم أفهم قصدها، وقلت متضحكة: «في هذه الدنيا..»
ولكن شيئاً من العبوس بدا في ملامحها، وقالت: «لم تأتي إلى

المكتب أمس. غبت عن عملك، أليس كذلك؟»

- آه، صحيح. انشغلت.

- بماذا؟ بمن؟

- نعم؟ بشؤوني الخاصة، ست تالة.

- أين تناولت الغداء؟

هَبَّ فجأةً في داخلي لسانٌ من نار، ولكنني تمالكت أعصابي
(فلعلني مخطئة في ما خطر لي في تلك اللحظة)، وقلت: «أراك مهتمةً
بي كثيراً اليوم؟»

قالت بحفاة: «لست مهتمة بك، كثيراً أو قليلاً. ولكنني مهتمة
بالرجل الذي كنت معه. رأيتك مع الدكتور نائل عمران في مطعم
«الهوليداي».

- صحيح؟ ولكن لم أرك أنا، ولا رأك الدكتور نائل عمران. مع
من كنت؟

- غير مهم أن تعرفي.

- إذن لماذا تريدان أن تعرفي أين كنت أنا، ومع من؟

- اسمعي، حبيبي سراب. تصرفك ليس في مكانه.

- بل هو في مكانه، جداً. كنت مع رجل رائع، في مكان رائع،
وتصرفنا - إن كان لا بد أن تعرفي - كان رائعاً.

- أين تعرفت به؟ في هذا المكتب؟

- أبداً. بل هو لا يعلم أنني أعمل في مكتب يعرف فيه أحداً
منكم.

- ما الذي جاء بك إلى نائل؟ ما رأيته منكما أمس كان فظيماً.

كيف أقمت علاقةً معه؟ كيف خطر لك أن تفكرى، بمجرد أن تفكرى، بإقامة علاقة معه؟ أتعرفين من هو؟ إنه أكبر من أيبك، ولكنه أيضاً أكبر من وجودك كله. هل ظننت أنك تستطيعين استغلاله؟ كيف تصوّرت أنك تستطيعين أن تمّدى يدك إلى قامته، أن تقفى بجانبه، أن تخاطبيه كما رأيتك تخاطبيه أمس طوال الغداء، كأنه عشيقك؟

نظرت إليها صامته، وقد أذهلتني بعصبيتها، واضطرابها، وتحاملها عليّ. لو كان نائل زوجها، لفهمت معنى ذلك الغضب، أو تلك الغيرة. في حين أنني لا أذكر أن نائل ذكرها لي أكثر من مرّتين أو ثلاث، وكانت إشارته إليها دائماً عابرة، وتوحي بأنار عاطفة انطفأت منذ زمان. ولكن يبدو أن العاطفة، في هذا الطرف الآخر، لم تنطفئ تماماً. وتذكرت يوم سألتها عنه فقالت إنه متزوٍ يرفض أن يرى أحداً. لعلّه كان يرفض أن يراها هي؟ ثم، هل كانت تعلم أن زوجها الأستاذ شريف لن يكون في المكتب في تلك الساعة، فجاءت إليّ فيها لتقول ما تريد بمطلق حرّيتها؟

لسان النار الذي هبّ في داخلي، غدا الآن السنة نيران، ولكنني لم أجبها، وأنا في انتظار أن تتوقّف عن نهجمها. غير أن صمتي زاد من ثورتها، وأخذ وجهها يتغيّر من الوردي، إلى الأحمر، إلى الأصفر، ولولا أن شفتيها كانتا مصبوغتين بكثافة لرأيتهما في تلك اللحظات زرقاوين جافّتين.

«يتدحك أهل المكتب»، قالت: «وهم لا يعلمون أية عاقبة مستهترّة هم يربّون... لعلك تريدان أن تدّعي أنك مخطوبة لنائل؟

أو أنك تزوّجته وانتهيت؟ أنت لا تعلمين أنني اتصلت مساء أمس بأخته سالمة، وعرفت كل شيء. اسمعي، هذه علاقة يجب أن تضعي حدّاً لها، اليوم، الآن. ولن أتردّد في الاتصال بوالدك الدكتور علي عفّان، وإعلامه بما أعرف.»

عندها انفجر غضبي، ونهضت على قدميّ، وصرخت في وجهها: «كفى! كفى! لك أن تغاري ما شئت، لك أن تنقولي كيفما شئت، لك أن تتطاولي بما شئت، ولكن ذلك كله لن يغيّر شيئاً من علاقتي بنائل... أنت تتوهمين أن عملي في مكتبكم يحوّلك الحق في التدخل بحياتي الخاصة، ولكي أضع حدّاً لوهمك هذا، أرجوك أن تأتي، وتجلسي مكاني، وتسلمي المكتب، بقضه وقضيضه... وها أنا ذاهبة إلى البيت، ولن تروني هنا مرة أخرى. وإذا كانت لديكم أسئلة، فلكم أن تتصلوا بي بالتلفون...»

بُهِتت نالمة، وأمسكت عن الكلام وهي تراقبني أنحرّك والمللم أغراضي بسرعة هوجاء، وأخرج أوراق الخاصة من دُرج منضدتي في بضعة ملفّات زرقاء. ثم قدفت على المنضدة بحلقة من المفاتيح تتعلق ببعض خزائن المكتب، وتناولت حقيقتي في النهاية، دون أن ألفت نحو نالمة التفاتة أخيرة، كأنها غير موجودة، وخرجت، وأغلقت الباب ورائي.

وإذا هي، وأنا مسرعة في اتجاه المصعد، تخرج في إثري، وتقول: «سراب، سراب، اسمعيني، أرجوك...»

غير أنني لم أجبها، ولم ألفت نحوها، وفي داخلي مراجل تغلي، إلى أن حضر المصعد، فدخلته، وتركتها في الدهليز.

حين استقرّ بي الجلوس في سيارتي، أمسكت بالمقود بيدين مائز الان
ترتجفان، ولم أتحرك، وأنا أفكر: «ما أظفح الغيرة! وما أروع أن أحب
نائل، فأثير هذه الزويدة من غير امرأة أخرى!»

وفجأة، انتفضت في صدري غيرتي أنا: «لا بدّ أن بينهما عاطفة
غير التي أعرف. وإلا، فكيف تنور تالة هذه الثورة المستيرية، وهي
متزوجة وأم أولاد؟ أم أن الحب القديم أيضاً جرح لا يلتئم،
وسرعان ما ينزف؟ وما هتني؟ نائل! أين أنت؟ أين أبحت عنك في
هذه الساعة؟»

أسرعت في عودتي إلى الدار، لاتصل به في المنزل، فلم أجده.
وفي المكتب، فلم أجده. وأخفقت في الاتصال به حتى هذه الساعة.

لي غريمة إذن، وربما غريمات، وأنا لا أدري؟
ولي رقباء، وعدّال، وأنا في غفلي، أفعل ما أفعل وأكتب ما
أكتب؟

كانت الساعات منذ ظهيرة أمس حتى لحظة لقائي بنائل عصر
اليوم، ساعات جحيمة. لم أخبر أبي أو أمي بتركي العمل، ولما
عجزت عن الاتصال هاتفياً بنائل أمس، قرّرت اليوم ألاّ أحدثه
هاتفياً عن تالة إلى أن نلتقي.

طبعاً، لم يغمض لي جفن الليلة البارحة. ولكن عوّضني عن ذلك
حديثي مع نائل في الصباح الباكر قبل أن يذهب إلى مكتبه. كان
كالعادة حديثاً قصيراً (يريد أن يكون صوتي أول ما يسمع في

الصباح. وماذا أقول أنا عن صوته؟)، وأكدنا موعد اللقاء في ملتقانا المفضل «الأنسام».

وسبقته إلى المكان. ولما دخل ورآني جاءني، أكاد أقول، راكضاً. وقبل أن يدنو ذباب منّا، قال نائل: «ماذا؟ ألم تنامي البارحة؟» فضحكت (أول ضحكة لي منذ ظهيرة أمس)، وأنا أقول: «هل انتقلت العرافة إليك؟ هل قرأت وجهي بهذه السهولة؟»

قال، وهو كعادته يركّز عينيه في عينيّ وشفتيّ كلما اشتدّت به العاطفة: «أتظنّ أن وجهك يستطيع أن يخفي عني شيئاً له علاقة بنا؟ ثم إنني هذا الصباح، بالتلفون، هجست بأن صوتك مضطرب، على غير عادته.»

جاءنا ذياب، وطلبنا قهوتنا العزيزة، وما كاد يتعد حتى ألقم المسجّل كاسيتة «بليزير دامور» (آه، لسذات الحب، أحزان الحب...)، وقال نائل، قبل أن يتيح لي أن أفتح موضوع ما جرى أمس: «سراب، حبيبتي، أريد أن تنسي تالة وحديثها معك، وكأنه لم يكن.»

ضحكت مرّة أخرى، ولو بمرارة: «هل قرأت هذا أيضاً في وجهي؟»

فأجاب مبتسماً: «طبعاً... أتريدين الصدق؟ تالة اتصلت بي أمس في المكتب. اتصلت مساءً، وكنت على وشك الخروج. ولم أكن قد سمعت صوتها منذ زمان. وما قالته كان سخيلاً، ومرفوضاً. وقلت لها ذلك بالحرف الواحد، أنت لا تعرفين قصّتي معها، سراب.

القصة قديمة، والغريب أنها لا تريد لهذه القصة أن تنتهي. وكان تدخلها وزيارتها لك، من قبيل الغيرة المجنونة التي ما فارقتها يوماً، منذ أن تزوجت صديقتها سهام، ولم أتزوجها هي... اغفري لي هذا الكلام الذي أشعر أنه لا يليق بي أن أخوض فيه، وبخاصة معك. لماذا لم تخبريني أن أحد أصحاب المكتب الذي تعملين فيه هو شريف الترك؟ بإمكانني أن أوصي بك، ولو أنك في غنى عن التوصية. بعد وفاة سهام، تقصّدت الابتعاد عن تالة وشريف، رغم صداقتي لشريف أيضاً. لأن ما بدر من تالة بانجاهي، ولا سيما في السنتين الأوليين، كان يقلقني ويزعجني..

فقلت: «أهكذا يتورط معك كل من يحبك؟»

- لا، لا. ولكن تالة من النوع الذي لا يرضى برفض، ولا يقنع بأمر واقع. غنية ومدللة منذ أن فتحت عينيها على الدنيا. وزاد غناها، مع الزمن، وبقيت كالطفلة المدللة التي، إذا أرادت دمية، أقامت الدنيا ولم تقعدا إلى أن تحصل عليها. كانت تلميذتي لفترة، أيام كنت أ حاضر في كلية الحقوق، قبل عشرين عاماً، ونشأت بيننا علاقة ما في تلك الأيام، قبل أن ألتقي بصديقتها سهام.

- أي أنها لم تحصل عليك كما أرادت، وما زالت مصرة على متابعة رغبتها المهزومة؟

- وإلا، فكيف أفسر تصرفها؟ أرجوك، سراب، انسي موضوعها... وعودي إلى عملك.

- مستحيل! أعود إلى العمل في مكتب تملك معظمه امرأة تراني غريمة لها في حبك؟ ثم أنا، أصلاً، في غنى عن الراتب السخيف

الذي كنت أفضاه. ولم أعمل إلا ضد رغبة أبي، طلباً للتسلية، وربما للقاء الناس.

- ما أسهل أن تجدي أي عمل آخر إن شئت، ولا سيما بمعرفتك الانكليزية والفرنسية. من أين جاءتك هذه المعرفة بهذا الاتقان؟

- من تربية الراهبات، كما أخبرتك مرة فيما مضى. كانت دراساتي الابتدائية والثانوية في معظمها في مدرسة «القلب المقدس» للراهبات الكاثوليك. وكان التأكيد عندهن دائماً على إتقان اللغات، بالإضافة إلى الموسيقى. لقد أُجبرت، تصوّر، أُجبرت على تعلّم العزف على البيانو، ورقص الباليه مرتين في الأسبوع، لسنوات.

- وقضيت سنتين في انكلترا أيضاً؟

- نعم، أيام أخذ أبي العائلة معه، ليمارس الجراحة هناك، طلباً لعضوية «جمعية الجراحين الملكية»، ألد «أف. آر. سي. اس». ولكن ولعي الحقيقي كان دائماً بالمرح، وهو ولع تصاعد معي أيام دراساتي في لندن، وكنت على وشك دخول «مدرسة الفنون الدرامية» هناك، عندما قرّر أبي العودة، بعد حصوله على العضوية التي أرادها. فالتحقت هنا بكلية الفنون... في يوم ما، ناثل، أريد أن أمثّل لك، لك أنت وحدك، مقطعاً من دور أوفيليا في «هاملت». أوفيليا وقد جُنّت... أستاذ الدراما الطيّب الذكر، منذر فاضل، بثقافته الفرنسية، كان يتمتع بشكل خاص بتمثيلي دور أندروماك وهي تتوقّع مصرع زوجها هكتور، في مسرحية راسين...

وغمرني في تلك اللحظة إحساس فاجع بأنني مزيج من أوفيليا

واندروماك، دون أن يكون لي أب هو وزير مهذار، ولا زوج أحبه يريد منازلة أخيل.

ثم أخبرته كيف أنني تمتعت بدور سونيا في «الجريمة والعقاب» المسرحية عن رواية دوستوفسكي. ووصفت له تلك اللحظة المعزقة الهائلة، عندما يخرّ راسكولنيكوف على ركبته، وينحني أرضاً ليقبل قدمي، أنا سونيا المومس المسلوطة، المعدمة، ويقول: «إني أذ أقبل قدميك، أقبل فيك الإنسانية المعذبة...» كنت أحس أنني فعلاً خلاصة الإنسانية المعذبة، وأني المرأة العربية التي تمثل عذاب الإنسان وبؤسه في كل مكان. وقلت: «إنها أبأس مخلوق على وجه الأرض.»

فقال نائل: «والذي أرى هو أنها مقبلة على زمنٍ ستكون فيه أكثر بؤساً وعذاباً، إن هي لم تتدارك أمرها...»

تحدّثنا كثيراً هذه الليلة، واستطردنا في كل اتجاه - شكراً لتألة وغيرتها المهووسة. وفي النهاية قال نائل: «عديني، سراب...»

- بماذا؟

- بثلاثة.

- أولها؟

- أن تمثلي لي مشهداً من دور أوفيليا، واستغلي شعرك بروعته كلها. أتصور أن أوفيليا، عندما جُنت، راح شعرها يطير في كل اتجاه.

- كعقلها، تماماً! وثانيها؟

- ما زلنا في الوعد الأول . لأنني أريد أن أراك تمثلين أيضاً مشهد
سونيا الذي وصفته الآن، لأكون أنا معك راسكولنيكوف، فأقبل
قدميك، وأقبل الإنسانية المعذبة فيك .

- غداً، في المكتبة في دارك . . .

- والوعد الثاني، أن تعزفي لي قطعة لمونسارت على البيانو. وإياك
أن تتهربي، أو ألا تجيدي العزف!

- سأبدأ التمرين حالاً . . . والوعد الثالث؟

- أن تعودني إلى العمل .

كدت أصبح عندها: «لا، مستحيل! لن أعود إلى العمل» - ثم
استدركت: «إلا إذا أردتني أن أعمل سكرتيرة عندك، وبغير راتب.»
- بل براتب .

- وقدر؟

- دخلي كله!

- ولكنني أنذرك بأنني سأفسد عليك أعمالك، وأخربط قوانينك .
وإذا وكلتك امرأة جميلة بقضية، أثرت لك من المشاكل ما لا تعرف
حتى نالة نفسها كيف تثيره .

- رضيت، والله العظيم!

ولم يبن عليّ في تلك اللحظة المتوهجة أن أذكر موضوع رحيلي
الذي كنت قد بدأت أرتب له دون علمه . (خشيت منذ البداية أن
يحاول منعي بطريقة ما، وأنا ما زلت أصلاً مترددة بعض الشيء .)

فجأة، قال: «سراب، اتركي سيارتك في مكانها، ولنذهب إلى
«الهوليداي»، فتعشّي هناك. ما رأيك؟»

- هائل! على عناد تالة!

- وإذا تأخرت قليلاً هذا المساء في الرجوع إلى البيت؟

- إلى حينها، يفرجها ربنا، رب العشاق جميعاً.

وهكذا كان. وكان عشاؤنا في «الهوليداي» هذه الليلة في روعة غداثنا أول أمس. وتلفتنا حولنا هذه المرة، وأنا أرجو الله أن أرى تالة في ركن من المطاعم ترقبنا بعين العذول، وتحتق غيظاً. ولكنها لم تكن هناك.

وكان الله رؤوفاً بي. عدت قبيل الحادية عشرة لأجد أن العائلة لم ترجع بعد من النادي. وها أنا الآن، بعيد منتصف الليل، أسمعهم يدخلون مبتهجين. ولسوف يسألوني: لماذا لم تأتي إلى النادي؟ انتظرنالك، ولعبنا البنكو، وربحت ماما طاقماً من الكؤوس الكريستال، ومعه أيضاً مبلغ خمسين ديناراً! وبودّي لو أقول لهم: أما أنا فقد ربحت الكون كله!

اليوم، كنت حذرة جداً عندما أعلمته بأنني قرّرت الرحيل. ذكرت له الأمر أولاً كأنه فكرة خطرت لي منذ مدة ولم أعطها حقها من التمعّن. فظنّ أنني أداعب الفكرة مجرد مداعبة، كأمنية يتمناها أي إنسان، وهل أجمل من السفر، أينما كانت وجهته... حين أدرك أنني جادة قال، مداراة لي: «فلنسافر معاً. لشهر أو شهرين».

ولما قلت: أريد أن أرحل، لسنتين، ربّما لغير رجعة، دُهِش.

رفض أن يصدّق. وقال فجأة: «اسمعي! فلتتزوج. ثم نذهب لشهر العسل إلى سويسرا، أو انكلترا.»

لم يفهم قصدي، طبعاً. وقلت: «أتريدني أن أتزوجك؟ غداً أتزوجك، إن أنت أردت، وأكون أسعد امرأة في الدنيا. ولكن الذي عزمت عليه لا علاقة له بالزواج. بل إن الزواج يكون هو العائق. أريد أن أرحل، تحقيقاً لرغبة عميقة لا أستطيع شرحها... لأنني أحبك. أريد أن أرحل وأنا في ذروة الوهج من حبّي لك، وحبك لي.»

لم يفهم. رفض أن يفهم. ولم أجرؤ على ذكر السبب الحقيقي الذي من أجله أريد الرحيل، مصممةً على عدم البوح به، التزاماً خاصاً، قد لا أتساهل به إلا إجابة قبيل مغادرتي. ومَرّت بي لحظات خشيت فيها أن تطفئ فكرة زواجي منه على قراري الذي وعدت نفسي بالأأأتزحزح عنه.

ماأسهل أن أرجع عن قراري، لو تساهلت مع نفسي! نائل، ما أطيّب حبّي لك، وما أصعب الاستمرار بقراري!

بعد تردّد، وتوجّس، وخوف من الفضيحة، وحساب لما سيقوله البعض، قرّرت أمس أن أضرب بهذا كله عرض الحائط، وأقبل بأن أكون المرأة الوحيدة في حفلة العشاء الصغيرة التي أقامها نائل في منزله، وقصرها، كما قال، على «أحبّ أحبائه فقط»: طلال صالح وعبدالله الرامي. ولم أكن أعلم إن كانت أخته سائلة ستشاركنا

الأمسية، ووجدت أنها تفضل أن تهىء كل ما هو ضروري للعشاء، بمساعدة أم هادي، ثم تنسحب إلى غرفتها. ولست أدري حتى الآن ما الذي تراه في علاقتنا أنا ونائل، وأنجذب سؤاله عن ذلك، متمدة تجاهل الموضوع: فهي إما أن تتحمس لي، وإما أن تحسبني امرأة طائشة لا أعرف حدّاً لطيشي، وكلا الأمرين لا أريد أن أسمع شيئاً عنه.

كانت أمسية حافلة بالشراب، والطعام، والنقاش، ولن أستطيع أن أستعيد إلا القليل مما قيل ونوقش. لم أشرب إلا الماء القراح، ولم أتناول من الطعام إلا قطعة صغيرة من اللحم مع الكثير من السلطة، والزيتون الفلسطيني الأخضر الذي من عادة نائل أن يأتي به عن طريق عمان. وعند الختام كدت أقترح أن أغلي القهوة لنا جميعاً (صار للقهوة بيني وبين نائل مغزى طقوسي)، لولا أن أم هادي كانت أسرع مني، فجاءتنا بالشاي أولاً، وبعد ذلك بالقهوة التي، والحمد لله، تحبها.

كان الحديث سلساً، ينساب من موضوع إلى موضوع، ولأول مرة رأيت نائل في سياق الآخرين، لأدرك براعته في النقاش، وثرائه في الرأي والمعرفة كلما تكلم. وكان ظاهراً أن المتحدث لا تتجلى قريحته إلا بوجود متحدث متجلى القريحة معه: فإذا أردت أن ينطفئ المتحدث، فأحضر إليه غيباً يحاوره. ولا أنكر أنني، مع ثلاثة من أمهر المتكلمين، فزعت أولاً، ثم نسيت فزعني وأحسست أن ذهني، ولساني، باتا يتحركان على صعيد لم أكن أتصورني قادرة على إدراكه. غرور؟ ربما. ولكنني أعرف متى «يسايرني» الآخرون دماً، فلا يتحدثون ما أقول، ومتى ينتبهون إلى كل كلمة أقولها ويحاسبوني - كما

بجاهون غيري - بالغربة والتخيل، فأجد لذة في الخلاف معهم، أو الاتفاق.

كنت المرأة الوحيدة بينهم، ولكنني كنت أيضاً واحدة منهم، يخاطبونني كما يخاطب كل الآخر، أو هكذا تصوّرت. يعاودني الفزع بين حين وحين، إذ أراني أخوض في قضية لم أعتد الخوض فيها من قبل - ومع من؟ ولكن نائل، وكذلك طلال وعبدالله، كانوا يتقصّدون ألاّ يُشعروني بأنني فتاة غريبة، في نصف عمر أصغر واحد فيهم.

كان طلال مليئاً بالنكته - من أجلي. وهو يحتلّ مكانة خاصّة من نفسي، لأنه الشاهد على أولى لحظات اللقاء الأول بيني وبين نائل، ويتصرّف معي على نحو يؤكّد ذلك، ويؤكد أيضاً أنه معجب بي لأن نائل يحبّني. وقد قال منذ البداية إنه، عندما علم أنني سأكون موجودة في ذلك المساء، احتار بين أن يحضر لي ورده أو قصيدة. فلما قلت له إنه في حل من وعده، لأنه وعد مشروط بزيارتي له في مكتبه، زعم أنه وعد غير مشروط إلّا بأن يراني، أينما كانت الرؤية! فقلت: إذن، بما أنك لم تأتني بوردة، فأين القصيدة؟

قال: «ولكن ليس الآن».

فصاح عبدالله: «بل الآن، قبل أن تنتهي من كأسك الأولى».

والجّ نائل: «ولنكن غزلية جداً».

فأخذ رشفةً من كأسه، وأبقاها في يده، ونظر إليّ، وكأس الماء في يدي، وقال دون الرجوع هذه المرّة إلى أية ورقة:

انسياؤك الرقراق هذا

أقول: ما أحلاه!

إني لأهواه.

فتقولين: خذ الحذر،

سَل الطوفان المدمرَ أما

كان يوماً

مجرد سيلٍ آمنٍ

ينساب في مجراه؟

انسياؤك الرقراق هذا،

أكرّر: ما أحلاه،

ما أنقاه!

ولكن،

والطوفان المدمرُ شيمتهُ

تقولين:

عليك أن تخشاه!

أأخشاه وأنا السعيدُ

ولو غريقاً

في الموج من هواه؟

بذَفِقِهِ تَخْصِب الدنيا

وتونع الأعضاء عشقاً

من دُوقَ لَمَاءُ... .

ربّاه،

ما أسلسه،

ما أعنفه،

وما أحلاه!

فرحت جداً بالقصيدة، واستبدّ بي دافع للقيام والرقص في الغرفة بخطوات الباليه التي تدرّبت عليها أيام دراستي الابتدائية والثانوية، لولا أن نائل وعبدالله، كليهما، أبديا إعجابهما صياحاً وهتافاً، ورفعوا جميعاً كؤوسهم يشربون نخبتي، حتى أحسست بأنني حقاً أميرة، فنهضت، وانحنيت لهم انحناءة «الكيرتسي» الأرستقراطية اعترافاً بإعجابهم. وقال عبدالله بمزيد من المغالاة المستحبة: «والله يا جماعة، لو كنّا عرباً أصلاء لوجب على كلّ منا أن يشقّ قميصه طرباً في هذه اللحظة - طرباً لما سمعنا، ولما رأينا، ولما نرى!»

فضحك نائل قائلاً: «ذكرتني بقصة الجاحظ عن ذلك الذي شرب نبيذاً وسمع شعراً، فشقّ قميصه من الطرب، وقال لمولى كان إلى جانبه: أنت أيضاً، وبلك، شقّ قميصك!»
تساءل عبدالله: «وهل شقّ المولى قميصه؟»

أجاب نائل، مسترسلاً في ضحكته: «لم يكن المولى عربياً أصيلاً، لأنه قال: والله لا أشقّ قميصي، وليس عندي غيره. فقال سيّده: شقّه يا رجل، وأنا أكسوك غداً! فردّ المولى: إذن أشقّه غداً... فقال السيد: وما أصنع أنا بشقّك له غداً؟ قم، أغرب عن وجهي!... واستمرّ يهزّ رأسه طرباً، ويشقّ ما تبقى من قميصه.»

وفي وسط ضحكنا جميعاً، قال عبدالله: «على ذكر شقّ القمصان، تعرفون قصة ذلك الرجل الذي أخفق في الحب، وفي العمل، وفي الزواج، حين رآه صديقه وهو يلطم صدره ويشقّ قميصه، كمدأ هذه

المرّة. فسأله: ما بك يا رجل؟ قال: انتهيت الآن من قراءة فصل في هذا الكتاب عن تناسخ الأرواح. فاضطربت، وهلعت. وكلما فكّرت في الأمر زاد اضطرابي وهلعي. فسأله صديقه: لماذا؟ فأجاب: لماذا؟ لأنني أخشى بعد الموت، عندما أعود إلى الحياة الدنيا من جديد، كما يقول هذا الكتاب، ألا أعطى كياناً آخر، بل أعود إلى شخصيتي الحالية مرّة أخرى... يا للمصيبة، يا للمصيبة! واستأنف لطم الصدر وشقّ القميص...

قلت: «ولكن إليكم هذه القصة الحقيقية التي جرت معي أنا. في سيارة الأجرة التي حملتني هذا الصباح، وجدت أن سائقها يلبس نظارة ملوّنة، على غير عادة سائقي التاكسي عندنا. نظر إليّ في مرآة الرؤية الخلفية، وقال: العفو، سيدي. هل لاحظت نظّارتي الملوّنة؟ هل هي طيبة؟ لا، للشمس فقط، وألبسها غوايةً، كي أبدو مهملاً. صرت لا أستطيع نزعها... ووراءها قصة. في محلّتنا يسكن في البيت المقابل لبيتنا سائق تكسي، مثلي. عندما بدأت ألبس هذه النظارة، أو بعدها بيومين أو ثلاثة، اشترى له نظارة مثلها تماماً، وجعل يلبسها. فقرّرت أن أنزع نظّارتي لبضعة أيام، فزعرها هو أيضاً. عدت إليها، فعاد... غريب! قبل أن أقتني سيارة الأجرة هذه، لم تكن لديه سيارة. اشتريتها، فاشترى سيارة مثلها. بعد مدّة، جاءتني صفقة مربحة، فبعتها. وإذا هو بعد مدّة يبيع سيارته. بقيت بلا عمل، فبقي بلا عمل... أخيراً اشترت هذه السيارة، وهي كسابقتها «تويوتا»، واستأنفت العمل. وبعد أيام، اشترى هو أيضاً سيارة، واستأنف العمل. ولكن سيارته هذه المرّة «لادا» قديمة

بائسة . ولا أشك قطعاً في أنه سوف يستبدلها قريباً بـ «نويوتا» . أنا الآن ألبس هذه النظارة الملونة، وهو مثلي الآن يلبس نظارة ملونة . . . هل هو ظلي؟ هل هو بديلي؟ ما رأيك يا سيّدي؟ وما قولك في البشر وطبائعهم؟»

قهقهه نائل: «فكرة هائلة! الشخص الذي هو ظل، أو صورة مرآتية، لشخص آخر، ولكنه لا يعكس شكله فقط، بل أفكاره أيضاً، إلى أن يقع الظل، بسبب الأصل، في ورطة لا يستطيع الخروج منها، لأن الشخص الآخر، الأصل، غائب عنه . . . أتذكرون قصة غوتيه «تلميذ الساحر»؟»

آه، نائل! ما أندر السّحرة الأساتذة، وما أكثر التلاميذ المقلّدين! واستمرّ الحديث، متراوحاً بين الدعابة والجدّ، وأخذت في هذه الأثناء نصّ القصيدة من طلال، وتحدّث عبدالله عن تطورات القضية الفلسطينية كما يراها هو، ووعدني بكلمة من الزعتر الفلسطيني «مترعاً بعبق جبالنا وصخورنا»، قال، «وإكراماً لذكرى جدّتك المقدسية». وصمّمت في تلك اللحظة على الاتصال به حثيئاً لمتابعة الأمر الذي بات يهمني أن أحسمه قبل أن يعود إلى كوبنهاغن، والمحت له بذلك دون إثارة انتباه الآخرين، وأوماً لي بالموافقة.

وروى لنا نائل تفاصيل غريبة عن قضية آل سيفي - قضية ميراث فيها عشق، وأبناء شرعيون وغير شرعيين، وزوجات متناثرة بين القطر وباريس ونيويورك، ومطالبات متضاربة بالتركة الضخمة، والمورّعة في أكثر من بلد، وعليه أن يفرز أصحاب الحق الشرعي عن غيرهم . . . العشق، ما أكثر مشكلاته! ومرّت بي لحظات تصوّرتني

فيها وقد ولدت لنائل ولداً غير شرعي، ورحنا نتنازع على تربيته .
رهيب! لماذا غير شرعي؟ قلت لنفسي . لماذا لا نتزوج وننهي المشاكل؟
أم أن العشق شيء والزواج شيء آخر وليس لهما، كالشرق والغرب،
أن يلتقيا؟

ولسبب ما تذكرت ثمثال سهام في غرفة نوم نائل، وصورتها الزيتية
في الغرفة التي نحن فيها، ترى هل كانت تتابع ضجيجنا وضحكاتنا
وحكاياتنا، فتتعدّر بالموت والغياب، وتغفر لنا كل شيء؟ وتأكدت في
تلك الهنيهة أنها ستغفر لي، أنا على الأقل، ما أنا فيه من عشق،
وقلق ممزق . ولعلها تزداد رضاء عني كلما عرفت مدى ما أعانيه من
الحالتين معاً، ولا سيما القلق الممزق .



طلبت إلى عبدالله الرامي ألا يخبر نائل بشيء من أي ترتيب يتم
بيننا . طبعاً، لم أكن بحاجة إلى توصيته بذلك، فهو المتكتم الأول،
وأكد ضرورة ألا يعرف أحد بعلاقته هو في هذا الموضوع، وألا يعرف
أحد، حتى أقرب الناس إليّ، حتى والدائي، بتحركاتي بعد الرحيل .
كنت أخشى من أن نائل، رغم أنه سيتحمس للفكرة كفكرة، قد يعود
فيرى أن بقائي هنا، ومعه، هو الأهم، فيلجّ على عدم سفري، ويجد
عشرات المبررات لذلك . وقد تأثرت جداً، قبل يومين، حين عاد إلى
موضوع الزواج، فقال إنه يعلم بفارق السن بيننا، ولذا فإنه لن يصّر
على الزواج بأكثر مما ينبغي، حفظاً لقدرتي على النظر في الأمر
موضوعياً - آه من هؤلاء الحقوقيين المنطقيين! - لولا أن حبّه لي يوحى
إليه، بل يؤكد له، بأنه سيجعل مني أسعد امرأة في الوجود، ولذا فإن

من حقّه أن يصرّ، ولكنه، حبّاً بي، يريدني أن أولي الأمر تفكيراً «عميقاً». ولكن هذا التفكير «العميق» قد لا يتحقّق عندي وأنا في هذه الحالة المستمرة من الحب. لست أدري كيف أقنعه بأن الزواج لم يكن يوماً هماً من همومي، وأني ما زلت على تصميمي القديم بأن أخرج من الحصار، وأقاتل مع تنظيم كنت منذ عشر سنين أحلم بأن أنتمي إليه، تأكيداً على إعجابي ببطولة هؤلاء الذين يتحدثون قوى الظلم والظلام الوافدة من الخارج، وتأكيداً في الوقت نفسه على إنسانيّتي في هذا الانتهاء: صخرة أخرى من صخور القدس، زيتونة أخرى في جبل الزيتون، كما كانت تقول جدّتي خديجة.

يوم بديع لم يكن بالبال، في البستان الكبير الذي يملكه نائل مع إخوته على بعد ثلاثين كيلومتراً خارج المدينة - مع أشجار البرتقال والليمون ودوالي العنب، والعنب ما زال يتدلّى عناقيد، مع أشجار التفاح والمشمش والإجاص والكمثرى... شوبنا دجاجاً على نار من حطب، وأكلنا في ظلال الأشجار، وغافلنا الفلاح الطيّب أبو كاظم لنبقى في غزل متقطع متواصل، حتى غروب الشمس... وكدت أقتنع بفكرة الزواج والبقاء - الزواج وعدم الرحيل. تعب لذيذ يحضنني، يخدّرنِي. إنه الحب، والشمس، والسموات المفتوحة... تعال يا نوم وخذني إلى حيث تشاء...

مضى عيساوي، لماذا تسكنيني هذين اليومين بهذه الحدة؟
«كانت غرفتها تطلّ على البحر، وكانت موفّقة في اختيارها شكلاً

وموقعاً. فبوسعها الآن أن تجلس لساعاتٍ قرب النافذة العريضة، وتفتح زجاجها، وتصغي مغمضة العينين إلى اندفاع الأمواج وتراجعها، هديرها ووشوشتها، فتسلم نفسها للصور الغريبة الهاربة أبداً عبر ذهنها: نتيجة سنينٍ من المطالعات والكتابات والتغلغل في طوايا الماضي البعيد. وفي نسيج تجاربها المتداخلة تداخلت أيضاً شخصيات خيالية كثيرة حتى كادت، في لحظات التعب، أن تعجز عن التمييز بين الواقع والحلم. كان ثمة أحداث تذكرها، فلا تعرف على وجه التأكيد إن كانت قد وقعت بالفعل، أو أنها بقيت واستطالت في ذهنها من الكتب التي قرأتها، أو كتبها. أعرضَ مَرَضِيّ ذلك، أم أنه تقادم العمر؟ آه، ولكن حياتها كانت، في يوم مضى، حياة رائعة، عرفت فيها المغامرة والخطر، وعرفت الحب. عرفت الألم الفدّ الذي يسبق، ثم يلي، تحقيق الذات في أعماق التجربة وأوارها. من دَرَكَات الفقر والشظف انبجست، وصعدت إلى قمم من الشهرة غير متوقّعة. وقد تعلّق بها ولاحقها أدباء مرموقون، وناشرون معجبون، وعشاق شباب، وشيوخ ماجنون. ما أشبه ذلك كلّهُ بحكاية من تلك الحكايات القديمة التي تتحرّك بالمستحيلات! وهي إذ استلقت في كرسيّها قرب النافذة، تطيل النظر إلى البحر المترامي على مدّ البصر، وهو يغير ألوانه كل لحظة، وخيول الزبد لا تكلّ من التراكض والتلاشي، راحت تتساءل: هل ما زالت الشابة التي عرفتها في نفسها قبل أربعين سنة هي ذاتها الآن، مستقلة في مقعد وثير قرب نافذة في غرفة بفندق مشرف على البحر: امرأة تمازج فيها الحلم واللاحلم فلا ينفصل الواحد عن الآخر، امرأة ما عادت الأشياء تحمل لها من مغزى سوى أنها بين الحين والحين تشعّ دفئاً فجائياً من

جمالٍ لا يُفسَّر. وما عادت الأشياء تجري جريان الماء، بل هي الآن تختصّ وتتقاذف وتتناثر، وعليها أن تنتظر بكامل يقظتها تلك اللحظة البارقة التي يأتيها فيها إدراك مباحث للجبال، فتكتسب الأشياء شكلاً ومعنى. وعندها تغوص في حدث من أحداث الماضي، وترى امرأة في مقتبل العمر، في أوائل عشريناتها، تنظم حركتها كالخيط من خلال حشود الناس، مشدودة الشفتين ثابتة العينين، بانجها محطة كانت قطاراتها كلها رموزاً للوعد، والحب، لأن الرجل الذي تحب ينتظرها في مكان لا تدركه إلا القطارات، وهو ينتظرها ليحدثها بأمور مثيرة، ويشركها في أشياء مثيرة، ليس لها أن تحبس بها إلا حديثاً مبهماً. وبعد أن تمّ قول ما قيل، وبعد أن تمّ فعل ما فعل، بعد أن تبلورت الصور الغائمة في تجربة حسية وذمنية لها حدودها واشعاعاتها، عادت إلى حياتها ومشاغلبها وكتاباتها، وتجددت الشكوك: تلك الأمور كلها، هل وقعت فعلاً، أم أنها اختلفتها؟ وحده مرور الزمن جعلها تعرف يقيناً أنها وقعت، لأن ذكرها بقيت، ولأن لها أن تستعيد كل ما واثاها الحظ، بأصوائها وعثاتها، بفضوائها وسكناتها، قبل أن تدركها نهاية سوداء لا تستعاد فيها صورة تُرى، ولا كلمة تُسمع. . . .

هذه منى عيساوي كما وصفها نائل وهي في أيامها الأخيرة. وقد قلت له إنها تسكنني هذه الأيام من جديد، بقدر ما أفلقتني وتلبستني بتفاصيلها الأخرى عند قراءتي «الدخول في المرايا» لأول مرة قبل أشهر. هل هي محرّضتي الداخلية على ما حدث؟

قال نائل إنني سلخت عنها أربعين سنة من حياتها، وجعلت أمثلاً وهي في ريعانها، في كل حركة من حركاتها، في كل إمضاء من

إيماءاتها. وكان جوابي أنني بعد أربعين سنة سأراني مثلها في غرفة كبيرة تطلّ على البحر، ربما في إحدى مدن الخليج في يوم شتائي مشمس، ومثلها أستسلم لهدير الموج ووشوشته، فتعبرني الصور، وتختلط الوقائع والأحلام، ولعلني عندئذ أحيا بها من جديد قبل النوم الأخيرة.

- ولكن أين محطة القطارات في حياتك هنا؟

- أنت لا تدري أن محطة القطارات تحوّلت عندي إلى رصيف في أول منعطف شارع جنين، فجعلت أمرّ به عمداً في سيارتي ذهاباً إلى شؤوني في المدينة وإياباً منها، مع أنه ليس بالضبط على أقصر الطرق إلى دارنا. أصبح الشارع نفسه، المنعطف نفسه، رمزاً للوعد، للحب.

وأدهشني عندها أن يقول نائل: «حسبت أنني وحدي أفعل ذلك - كالمهايل!»

- أترى؟ ليس من مخرج إلا الرحيل. رحيلي أنا.

- متى ستكفّين عن هذا القول؟

- عندما أكفّ عن حبك.

مازال صعباً عليّ أن أحدثه عن خطّتي بأي تفصيل، فضلاً عن أنني مكلفة بالتكتم، والتكتم أيضاً صعب معه. أخشى إن أنا حدثته عنها أن يحاول أن يثني بصورة ما، كما يفعل بالحديث عن زواجنا كلما أشرت إلى الموضوع. وقال اليوم إنه لا يفهم هذه الناحية التناقضية في تصرّفي، ثم أضاف مازحاً: «هذا فيما عدا ألف ناحية أخرى فيك لا أفهمها. هل ستبقيني أعبد سراً لا يفهم؟» ثم

استدرك: «اغفري لي هذه المغالطة. أديان البشرية كلها بدأت بعبادة الأسرار التي لا تفهم.»

فضحكت، مستمتعةً بهذه الفكرة، وقلت: «هس، لا تبالغ...
وقل لي: من هي منى عيساوي هذه؟ وكم منى في حياتك جعلت منها
كاهنة لا تُدرك أسرارها في وثيقاتك؟»

راوغ في الجواب: «كاهنة اليوم، بكلمتين من شفيتها الريانتين،
ألغت لي الوثنيات الأخرى كلها...»

سألني قبل يومين عن رنده الجوزي، قائلاً إنني ما عدت أذكرها
له، وهل السبب هو أنني، لانشغالي به، انصرفت عن لقائها؟

زعمت أنني بالفعل، لانشغالي به، ما عدت أرى رنده بالكثرة
السابقة، تجنباً للجدل معها في أموري الشخصية، غير أنني مازلت
أعدها أقرب الناس إليّ، وأراها بين حين وحين، أو «نتهاف». وقلت له، سأجعل رنده تخبره مساء اليوم التالي، إذا كان في المنزل
بعد الساعة العاشرة. يبدو أن رغبة المعابثة المعهودة عاودتني. وهل
أستطيع إلا أن أعابث من أحبّ؟ ترى ماذا يقول فرويد في مثل هذا
الضرب من الغزل؟

وهكذا تلفت له مساء أمس، ولخوفي الشديد هذه المرة من أن
لا أفلح في التموه عليه، بالغت في تغيير صوتي ولهجتي، وتصوّرتني
السيدة المعذبة في مونودراما كوكتو التي صوّرها في فصل واحد وهي
تتحدّث إلى سّماعة الهاتف، وهات يا ستانسلافسكي طريقتك
المقنعة، ولو صوتاً فقط.

ولذا فإنه حين ردّ عليّ وبدأت الكلام دون أن أذكر له من أنا، ثم سأل من أنا، لم يصدّق أوّل الأمر أنني رنّدة الجوزي. ولكنه لم يقل أيضاً إن صوتي هو صوت سراب وإن تكن أفكارني أفكار رنّدة.

قلت: «نسيت صوتي، أستاذ، لأنني لم أخبرك منذ زمن طويل. ولكن سراب أصرّت عليّ اليوم بأن اتصل بك. وأنا أشكرك لأنك سألتها عني، وأرسلت إليّ سلاماً معها، مع أنك لم ترني قط.»

فجاءمني بالقول بأن أبة صديقة لسراب سيحمل لها هو أيضاً مشاعر الصداقة، حتى ولو كانت مجرد صوت بلا صورة. فقلت: «ولكنني صورة أيضاً.»

- راضية أم عابسة؟ أخبرني سراب أنك حين تعبين تشبهين العفريت.

- طبعاً، لأن دماغها محشوّ بالعفاريات، ويلدّ لها أن ترى واحداً منهم رؤية العين بين حين وآخر. ومهما يكن من أمر فإننا سنلتقي يوماً وأترك الحكم لك. المهم أن سراب هذه الأيام لا أفهمها.

- بعد تعارفنا أنا وهي؟

- نعم، ولا أكتمك أن وضعها يؤلّني أحياناً.

- لماذا، ست رنّدة؟

- كنت في السابق أحذّرها منك، فتسخر مني. والآن أراها تائهة

في وديانٍ لا أعرف طريقي فيها معها.

- وهل ما زلت تحذّريني مني؟

- وما الفائدة؟ أنت لا تعلم كيف تعقّد الأمر بيني وبينها. منذ أكثر

من عشر سنوات، منذ وفاة جدّتها المرحومة خديجة، اتفقنا على

التعاون في الأزمات. فإذا وجدتها منهوَّرة ومقبلة على فعلٍ طائش، كبحتها، وأرجعتها إلى العقل. وإذا وجدتني مبالغاً في الرزانة والانسحاب من مشكلات العيش، جرّنتي خروجاً من قوقعتي العاجية لأجابه مشكلات الواقع بجرأة الأبالسة. والعكس بالعكس، طبعاً. غير أننا بمرور الزمن أصبحنا أشبه بقطيين، أحدهما موجب، باندفاعه وخروجه على المجتمع برمته إذا اقتضى الأمر، متمثلاً فيها، والآخر سالب، متمثلاً فيّ أنا: وهو سالب بالتروّي، وتحكيم معايير العقل وحساب الضرورات التي لا مهرب منها. والآن أراها قد قرّرت السفر، وأنا كلّّي خوف عليها تماماً هي مقبلة عليه. وأنا التي حذّرتها منك في البداية، أحثها الآن على البقاء معك والاستمرار في هذا الجنون «الشخصاني» الذي تدوّخني في الحديث عنه ما دامت هي معك، وعن القصائد المتبادلة بينكما. أستاذ نائل، أسمعني؟

- نعم، نعم. أنت تعجيبني. هذا السفر الذي تتحدّث عنه، أحترم رغبتها فيه، وأحترم دوافعها إليه، إن كنت غير غمّطىء في تخمينها. ولكنني لا أريده لها، لأسباب أنانية، أنانية صرف. ابقي على موقفك، رنّدة، لعلنا كلينا معاً نقنعها بالعدول عنه. ولأعترف لك - ولو أنني أفضل ألاّ تعلميها بهذا - أن سراب، في أشهر قلائل، غيّرت حياتي من أساسها. لا أستطيع تصوّر حياتي يومين اثنين بدونها. فكيف إذا فعلتها ورحلت؟ ثم اسمحي لي أن أكون شخصياً معك: لماذا لا نرتّب لقاءً بيننا؟

وهنا كان لا بدّ من المبالغة بالنبرة التمثيلية، كمثّلة رديئة لا تعرف التحكّم بصوتها: «ماذا قلت، أستاذ نائل؟ ماذا تقصد بترتيب

لقاء بيننا؟ وماذا أقول أنا لسراب عندئذ، وماذا تقول أنت لها؟
(وفكرت لو أن إيسن وضع هيدا غابلر في موقف كهذا، هل كانت
تتكلم مثلما تكلمت، وبهذه النبرة؟)

ولكن ناثل، ببراءته، أطفأ الفتيل الذي كان يمكن أن يشعل
البارود حين أجاب: «أقصد، رندة، لماذا لا ترافقين سراب مرة
واحدة في العمر، فنشرب القهوة معاً، أو نتعشى معاً؟»

- في فندق «الهوليداي»؟

- فيه، أو في أي مكان آخر. المهم أن أراك، ونتحدث بإسهاب.
- لا، أستاذ ناثل. أنت لا تعرف سراب بقدر ما أعرفها. أعتقد،
بل أؤكد، أنها تفضل أن أبقى أنا في الخلفية بالنسبة لها، وأن أبقى
مجرد صوت بالنسبة لك.

- رندة، هل أنت متزوجة؟

وبنبرة التمثيل المبالغ فيه أجبت: «وما همك إن كنت متزوجة أو
غير متزوجة؟»

- لا بأس، لا بأس. اغفري لي هذا السؤال، واسمحي لي بسؤال
آخر.

- بل اسمح لي أنا بسؤالك أولاً.

- تفضلي.

- هل تحب سراب حقاً؟ أعني، هل تحبها كما تتصور هي؟ ولكن
لا، لا تحب، أرجوك. بيني وبينك، مهما يكن موقعي الخاص من
الموضوع، هذه الفتاة لا أظنها تفكر في شيء أو في أحد، كل يوم،
كل ساعة، إلا فيك أنت. ولذا، ربما كان الرحيل في صالحها.

- لا! أراك عدت إلى منطقها هي، وتخلّيت عن منطقك، ومنطقي.

- أنت تعلم أن جدّتها خديجة، والدة أبيها، كانت فلسطينية من القدس، من عائلة الجابري، إن كنت سمعت بها. وجدّتها هذه تكاد تكون هي التي ربّتها حتى سنوات المراهقة. أترى كيف أن الجذر حيّ، وأن العرق دسّاس؟ وهناك سرّ عائلي، ربّما لم تكاشفك به.

- سرّ مخيف؟ جدّ مجنون مثلاً؟

- لا، لا... بل هو سرّ تسخوبه سراب عندما تريد. فجذّتها لأمّها، أي أم ياسمين، مسيحية من الشمال، كان اسمها مرتا ميخائيل، تزوّجها جدّها لأمّها، الشيخ أحمد دليّر كزوجة ثانية، في أوائل العشرينات، وهي في السادسة عشرة، وهو فوق الخمسين... كانت يتيمة عاشت في كنف عائلة الشيخ أحمد، وتميّزت بحسن وجهها وجمال قوامها، وسراب تعتقد أنها جاءت ممشوقة القوام على جدّتها مرتا، وأنها ورثت عنها شعرها المذهل بسواده وطول صفائره... أترى أيّ خليط عجيب هي صديقتك بنت علي عفّان؟

- هذا كله بعض السرّ في... سحرها، في تعدّد النواحي في شخصيتها.

- وفي أنها تريد الانطلاق من حصارها.

وفاجأني هنا بقوله: «أنا أسمع الآن صوتها في ما تقولين!»

وتداركاً للموقف تظاهرت بالضحك: «ها ها! الكثيرون يعتقدون أن صوتي يشبه صوتها...» (بالغي في التمثيل يا رندة!)

غير أنه أجاب، وبكل براءة مرّة أخرى: «أقصد أن كلامك يشبه

كلامها، تماماً. ولم يبق إلا أن تقولي إن دماً عجرياً أيضاً يجري في عروقها!» (وقلت لنفسي: حبيبي نائل، لماذا أتمتع بلعيني الماكرة هذه معك؟) ثم أردف: «واسمحي لي أن أقول، إنك تتخبطين في الرأي بالضبط كما أتخبط أنا، وكما تتخبط هي. وشكراً لمخابرتك اللطيفة ولاهتمامك - وهل أقول اهتمامك الغريب هذا؟»

قلت: «أبدأ. أجد الكلام معك ممتعاً. ولذا فأنا التي أشكرك. وإذا رأيتني يوماً معها، سأذكرك بهذا الكلام، أمامها.»

قال: «قريباً؟»

قلت: «قريباً جداً. مع السلامة.»

آه نائل، وموعداً بعد غد.

والرحيل بات ما أقربه!

نائل عمران

في دراستي للقانون، وأكثر من ذلك في عملي كمحامٍ في قضايا بعضها شديد الغموض، وبعضها شديد التناقض في الأدلة، وجدت بين الحين والآخر مادةً تفيدني في تركيب الأحداث في رواياتي، مهما ادّعت أنني في كتابتي أبتعد عن ظروف مهني. غير أنني لأكثر من ثلاثين سنة كنت أعي الحذ الذي لا بد أن يفصل، في مكان ما من التجربة، بين الواقع والخيال، وبين المحتمل والمستحيل، بين ما يمكن أن تجود به العلاقات الظاهرة بين الناس بكلّ تشعباتها، وبين ما يمكن أن تجود به القرينة التي تعمل سحرها في هذه العلاقات، وتستخرج ما يبدو أن الطبيعة تعجز عن صنعه. وكنت أتذكر قول بيكاسو، حين يحوّر الأشكال ويدخلها ويمزقها ويعيد تركيبها على هواه، إنه يقدّم ما لا تستطيع الطبيعة تقديمه، فهو إذن أبرع منها، ويرفض لها أن تتحكّم به.

ولكن برحيل سراب، وغياها دوغما كلمة واضحة، رغم ما كانت تلمّح به في الأيام الأخيرة، جوبهت بلغز لم يكن لديّ له أكثر من مفتاح واحد لا يفي تماماً بحاجتي، ولا يرضي قناعتي. وقد حدّثتها

ذات يوم عن طريقة لي في تفسير أي حدث، إذا كان غامضاً أو عصياً على التفسير، فقلت إنني أضع له ثلاثة سيناريوهات، شديدة التباين في التفاصيل، ولكنها كلها ممكنة، وكلها تبدو، على نحو ما، صادقة، أو أنها بمجموعها تقترب من الحقيقة الجوهرية التي لا يمكن أن تكون أصلاً إلا شديدة التعقيد، وربما شديدة التناقض. فجربت حظي على طريقي هذه، ووضعت، ذهنياً، عدة سيناريوهات لمتابعة ما لعله قد جرى لها. ولكنني لم أرض عن أي منها، وبقيت في حيرة إزاء غيابها وصمتها.

وأحسست أنني كنت زهاء ستة أشهر أتعامل مع وهم جميل جاءني لباساً قناع الواقع، وأدخلني في مراياه - كما كانت سراب تردّد لي دائماً - ثم أعادني إلى حيث لا وهم، ولا قناع، حيث لا أعلم إلا أن هذه المرأة التي اقتحمتني بعشق لم أعرف مثله في حياتي الطويلة، غادرتني قلعةً مقهورة، سقطت دفاعاتها لفتح رائع، ثم تركها الفاتح فاعرة الأبواب محطمة الشرفات لريحٍ عاتيةٍ تعبت بين أرجائها الخاوية. ولأول مرة في هذه السنين الطوال أجدني في قضية أنا في الصميم منها، لا ينفعني فيها تفصّي المحققين، دع عنك قواعدهم وشرائعهم. لقد أتتني الطبيعة بما كنت أحسب أن الخيال وحده يأتي بمثله. والذي صدمني، وكرّر الصدمة في نفسي أشهراً عديدة، هو أن يحاصرني هذا اللغز، حول شخص صرت لا أقوى على الحياة بدونه، على غرار قصة كتبتها في مطلع شبابي، معتبراً يومئذ قيمتها الرمزية أهم من قيمتها الواقعية، تختفي فيها حبسية البطل بعد زواجه منها بأيام، دون أن تخلف وراءها أية إشارة إلى معنى اختفائها، أو وجهة

اختفائها. وكان عليه أن يرى في فعلتها مثة وجه، يجعله كلُّ منها يتأمل وجوده بشكل لم يكن يخطر بباله من قبل... صدمتني المفارقة. هل كنت أتنبأ في ذلك اليوم السعيد بالمرارة والألم اللذين وقعت الآن فيهما؟

كنت أعلم أن رحيل سراب جرى لأمر يتصل بتنظيم عربي أرادت الالتحاق به، عسى أن تجد نفسها في يوم ما، كما قالت بُحلميتها العذبة ذات مرة، تفيق من نومها تحت شجرة زيتون في تلٍّ من تلال القدس، فتأخذ نفساً عميقاً لتملأ رثيتها بأنسام مدينة جدتها خديجة الجابري، وتحشو عبها «بأشعة شمسٍ لم يخلق الله مثلها إلا على جبل المكبر»، وعندها فقط تكون قد حققت حريتها، وليكن بعد ذلك ما يكون.

ولكن لم هذا التكتّم إزائي، وهذا التعذيب لنفسها، ولا أقول تعذبي أنا، على هذا النحو؟ وكنت مقتنعاً بأن لعبد الله الرامي صلةً قوية بما عزمَ عليه، وعبد الله يعمل «تحت الأرض»، ولا يرضى إلا بالسرية المطلقة بشأن كل من يعمل معه، حتى إزاء أقرب أصدقائه. هل أراد أن يبيّنها في تنظيمه لعملية فدائية سرّية قد تحتاج إليها المقاومة في يوم ما: اختطاف طائرة، اقتحام ثكنة، إيقاع بعميل صهيوني؟ سراب ملتبة الخيال في اتجاهات عديدة. وهي ناقمة على الأوضاع العربية، متمردة على الأسن الاجتماعي، تكاد لا تحيا إلا من خلال شخصيات درامية تلبسها، وعليها أن تنتهي بكل منها إلى فاجعة ما. وهذا بعض السرّ في إحساسها بأنها محاصرة، بأن سبل الخلاص مسدودة دونها، وعليها أن تعود فتجرب كلًّا منها بأقصى

قدراتها، لعلها تدرك الخلاص. وإذا كانت في حبها تلك العاشقة المتطيرة الشرر كغابة مشتعلة في ليل حالك السواد، فإنها في أي فعل آخر لن تقل تشبهاً بالغابة المشتعلة. وأنا أفهم كل هذا، ولكنني لا أستطيع أن أفهم كيف نعشقي وتركني وهي في الذروة من عشقها. كبريائي لعبنة: لقد حجبت عني الفهم والقبول بما جرى لمدة طويلة.

قالت إنها ستكتب لي من روما. وبعد أيام، قالت إنها على الأرجح ستكتب من براغ، وربما من ستوكهولم. تراءى لي أنها تتعمد التلغيز، ولست أدري أكانت تضللني أم تضلل نفسها. أم أنها فعلاً لم تكن تعرف أين تكون نهاية الرحيل؟ ومرة واحدة ذكرت كوينهاغن، وفي الحال أدركت علاقة عبد الله بالأمر. ولما عاجلتها بالأسئلة، رفضت أن تعطيني جواباً محدداً، وانفجرت بالبكاء... ووقعت على صدري، ثم راحت تحبسه بقبضتيها، وهي تقول، والدموع تنهمر على خديها: «أحبك، أحبك، ولم يبق إلا الرحيل».

في اليوم التالي، اتصلت بالفندق حيث كان يقيم عبد الله، فأخبروني أنه غادر البلد. وبعد ذلك بأسابيع، عندما لم تأتي كلمة من سراب في غيابها، أردت الكتابة إليه في كوينهاغن، فوجدت أن لا عنوان له لدي، ووجدت أن لا عنوان له لدى طلال صالح، وكلانا أقرب الناس إليه هنا. وانتابني إحساس ظالم بأن غياب سراب لم يكن أقل فجيعة من غياب سهام: أشبه بموت لا حيلة لي، أو لغيري، به. وكلما مرّت الأيام اشتدّ بي الإحساس بأن سراب ماتت، أو قتلت، أو انتحرت، رغم ما يتبادر إلى ذهني من أنها ربما تسعى إلى بطولية أو استشهاد يجعلها في منزلة فوق منازل البشر. وأضع في ذهني كل يوم

سيناريو جديداً لما حصل لها منذ لحظة مغادرتها المدينة. أنابها في عواصم أوروبية، في فنادق من الدرجة الأولى والدرجة العاشرة، أراها تجوع، وتعطش، ولا تفقد إرادتها وعزمها. أراها يطاردوها الرجال، ويوقعون بها، ويقتلون. أراها تكتب، تقاتل، تحرض، تستميت، تبكي، تعاني، وتكتب وتقاتل من جديد. ولكنني لا أجد في أي من ذلك عزاء حقيقياً أو راحة لنفسي.

ويوم قررت أن أتصل هاتفياً بدارها وأطلب الحديث إلى أختها شذى، جاءني الجواب من سيّدة - أغلب الظن أنها والدتها - تقول إن شذى سافرت إلى الخارج لإكمال دراستها. وحين سألتني من أنا، قلت: «أنا نائل عمران. أردت أن أسأل عن أحوال الأنسة سراب». وإذا السيّدة تضطرب وتنفجر بالبكاء وتقول: «وهل نعرف نحن أين سراب حتى نخبرك عن أحوالها؟ بالله عليك، إذا جاءتك أخبار عنها، ولو من بعيد، اتصل بنا في الحال.»

وبقيت في انتظار الرسالة التي لم تصل، في انتظار المكالمات الهاتفية التي لم تتحقق - وما أشدّ ما كانت تستمتع بالحديث هاتفياً. وراجعت نفسي مراراً كيف قضينا آخر لقاء معاً. كانت سراب كلها عذوبة، وضحكاً، وكلاماً متواصلاً، بدءاً بالقهوة عصراً في «الأنسام»، وانتهاءً بغزل عفيف في مكتبي، في غياب سائلة وغسان (ففي أول عطلة الصيف يذهب كلاهما إلى بيت أخي وائل لعدّة أسابيع). وقد اتّني بقروعة بحرية كبيرة، بحجم الكفّ، ظاهرها خشن النسيج محمّي بتنوءات مستدقة حاذة، ودواخلها صقيلة تغري بالانزلاق إلى الأعماق، وقالت: «هديني لك. ضعها على أذنك تسمع هبوب

الرياح...» ووضعتها على أذني وقلت: «أسمع رياح البحار التي
ستعبرنيها...» ولم تقبل مني هدية إلا كاسيتة لثلاث سوناتات لليانوس
ليبتهوفن كانت تحبها وتعيد سماعها كلما التقينا في الدار عندي.
وعلمت نفسي بأنها لن ترحل في اليوم التالي كما ادّعت، وبأنها، على
طريقتها التي رحت أعشقها فيها، تمثل دوراً من ابتكارها، لكنها تشير
المزيد من شكوكي ومخاوفي، فأحبها أكثر فأكثر - تلك اللعبة النسائية
التي برعت فيها إلى حدّ إغاظتي أحياناً.

كنت أنسى فارق السن بيننا. فما أحسست يوماً معها، بسبب ردود
فعلها نحوي، أنني فوق الثلاثين بيوم واحد. تقول: «إذا تزوّجتك،
أنجب لك عشرة أولاد في عشر سنين!» فأقول: «إذا تزوّجتك،
منعت عنك الإنجاب، لئلا تنصرفي ولو بجزء من حبك عني إلى
طفلك!» كلام يقول مثله العشاق كل يوم في كل مكان. وتسألني:
«إذا تزوّجتك، هل ستشغل نفسك عني بالكتابة؟» فأقول: «وفيم
الكتابة، بعد أن أتزوّجك؟» فتقول بغضب مصطنع: «إذن، لن
أتزوّجك! كتابتك أهمّ مني بألف مرّة - شريطة أن تبقى تحبني.» وفي
المساء الأخير، حين أخذتها إلى دارها بسيارتي، مالت برأسها على
كتفي، واسترسلت في البكاء معظم الطريق ثم انتفضت، ومسحت
دموعها، وعدّلت وضعها، وقالت للمرّة الأخيرة: «سأكتب لك حالما
يتحدّد لي عنوان، واكتب لي، كل يوم. كل يوم!» وكان في قلبها
الوداعية، قبل نزولها من السيارة، مذاق اليأس مشوباً بالجنون. أو
هكذا تصوّرت في تلك اللحظة. ربّما كنت أنا الذي مازج اليأس
جنونه، ولم أستطع تقدير موقفها المعقّد، موقفها النبيل: موقف الشدّة
والكبرياء.

كانت الأشهر الستة الأولى صعبةً جداً. كنت أفيق كل صباح على تمثال سهام، فأراها ترنو إليّ بعينين واسعتين حزيتين، كأنها باتت تشفق عليّ. أم أنها تشمت بي؟ وأشتهي لو يرنّ الهاتف ولو مرة واحدة عندئذ، لأسمع سراب عبر خطوط المدينة تتنفس بما يشبه التنهد، وهي تهمس: هلو... .

الأشهر الستة الأولى كانت جحيماً، رغم انهامي في أعمالي، وبقائي في مكتبي يوماً حتى ساعة متأخرة من الليل. وعند عودتي إلى الدار، أدخلت المكتبة، وأخذت القوقعة البحرية التي تملا راحتي بصلايتها ونعومتها، وأضعها على أذني، وأسمع سراب وهي تتنهد، وتطيل التنهد، ولا تنتهي، وأكتب لها ثلاثة أسطر أو أربعة في رسالة لا اختام لها. ولاحظت أنني، لسبب ما، لم آخذ منها صورة لها ولو واحدة. كيف إذن أصنع لها تمثالاً آخر أضعه في المكتبة التي كانت مكانها المفضل في منزلي؟ وهل من ضرورة لذلك، وذاكرتي مثقلة بصورها وأشكالها أينما تحركت؟ ويوم سألني غسان، وهو يقلّب القوقعة بين يديه: «من أين جئت بهذه المحارة، بابا؟» قلت: «من شاطئ بعيد، يا حبيبي. ضعها على أذنك، تسمع أنفاس البحر.» ثم أضفت: «وأحياناً حشرات البشر.»

في أواخر الشتاء التالي قمت بزيارة طلال صالح في مكتبه ذات مساء، وتذكّرت بغتة أن سنة، أو ما يقارب السنة، قد مرّت على لقائي بسراب. وبعد قليل، أشار طلال ذاته إلى ذلك، وقال: «أما من خبر؟ كيف هان عليك أن تسمح لها بالرحيل؟»

قلت بمرارة: «لكي تنظم أنت قصيدة عن غيابها... أتدري أن

قصيدتيك توحيان بحضور جسدي عجيب؟».

وخرجت بعد ذلك، ونمت شطر كافثيريا «الأنسام» في خط مستقيم، وتمنيت لو أن السماء تشاركني الذكرى، وتمطر شيئاً من عشقها على زجاج النافذة التي نقصدت الجلوس بجانبها، كما فعلت ليلة لقائنا. ومن يأتيني في تلك اللحظة الستيمتالية (ومن قال إن دكاترة القانون لا يستسلمون لعواطفهم أحياناً مهما ماعت بهم؟) سوى ذياب نفسه؟ جاءني مرحباً، وعاتباً على طول غيابي عنه: «أكثر من ستة أشهر، دكتور نائل.» ثم أردف بشيء من الحذر والحياء: «تلك السيّدة الجميلة التي كانت ترافقك كلّما جئنا، أين هي؟»

قلت: «سراب.»

قال: «بل كانت حقيقية جداً.»

قلت: «سراب، سراب... هل ما زلت تتقن صنع القهوة كما كنّا نشربها، يا ذياب؟ اسمع، هتّىء فنجانين، وسأشربهما كليهما.»

فقال: «حاضر، وعلى حسابي، والله!»

وتلك كانت الليلة الفاصلة. حزمت أمري بعدها، قائلاً: لا بدّ من نسيان. لا بدّ. وهل أعود إلى المستنقع الذي تجبّطت فيه بعد موت سهام لأشهر طويلة ما استطعت حسابها؟ سأعود إلى الكتابة. إذا لم تتكامل في خيالي فكرة لرواية جديدة، فإنني سأركّز على قضيتين مهمّتين في حقل اختصاصي، وكنت أصلاً قد وافقت على المشاركة في مؤتمر سيعقد في الصيف في مدينة لاهاي عن صلاحية المؤسسات الخاصة في رفع الدعوى القضائية على السلطة في حالات معيّنة في

دول العالم الثالث، وسأنصرف إلى مراجعي وكتبي لتهيئة ورقتي للمؤتمر. وأما القضية الأخرى فكانت قضية شائكة شغلتني منذ سنوات، وقررت الآن أن أبدأ بكتابة بحثي عنها: عقوبة الإعدام، وضرورة إلغائها نهائياً في العالم العربي.

وكان هناك بالطبع الأصدقاء العديدون الذين يجب أن أستأنف اتصالاتي بهم. وأهم من ذلك، كانت هناك عنايتي بابني غسان ودروسه، وهو يوشك على الانتهاء من دراسته الابتدائية، وقد تركته لعناية سائلة أكثر مما ينبغي، ولا سيما في الأماسي التي جعلت الآن أفضل قضاء معظمها في الدار. وكانت قضية ميراث آل سيفي في مراحلها الأخيرة، والمكتب بانتظار صدور حكم الاستئناف فيها. وجاء الحكم في صالح موكلّي وأسرته، وكانت النتيجة أكبر مبلغ من المال لقاء أتعابي حصلت عليه طوال حياتي المهنية. (يقولون: المحظوظ في الحب غير محظوظ في لعب الورق، والعكس فيما يبدو صحيح.) وقد راودتني فكرة كتابة رواية عن موضوع الميراث هذا، لكثرة ما فيه من شخصيات متضاربة ومحتالين وضحايا، لولا أنني صرفت ذهني عنه فيما بعد، لأن قريحتي لا تعمل على مثل هذا الخط، رغم حضوره في حياة المجتمع بصور لا يخلو بعضها من إثارات غريبة ومن نزوات تناقض العقل.

لا أظن أن يوماً مرّ عليّ لم تخطر فيه سراب بيالي، بشكل أو بآخر. لقد تحولت في داخلي إلى حضور كحضور الدم في شراييني، ولا حاجة بي لأن أفصد شرياناً في معصمي لكي أرى الدم وأناكد من وجوده. وكان يحزّ في نفسي، على الأخص، ألا ترى سراب الاهتمام

المتصاعد الذي حظيت به روايتها المفضلة «الدخول في المرايا» لحوالي سنوات ثلاث صدرت فيها دراسات ومقالات عنها من كل نوع، فتستمتع معي ببعضها، حين يؤيد النقاد أن سراب لم تكن مخطئة بتعلقها بها، وتدهش معي لبعضها حين يُبدي النقاد نفاذاً في الرؤية يجعلنا نبليغ معهم مناطق من الدلالة والمعنى لم تكن - لا أنا ولا هي - على وعي بها، وتضحك وتبكي معي لبعضها حين يتصايح النقاد المزعمون في غباء وعمى كلاهما مضحك ومبكي في إصراره، ولا تقل كتاباتهم، على طريقتها، إمتاعاً وإدهاشاً لنا عن الكتابات الأخرى، إذ تذكرنا كل مرة مجدداً بأن صوت الجهل ما يزال والحمد لله لجوجاً وعالياً في كل مكان، رغم ما في الدنيا من معرفة ميسرة لمن يسمى إليهما من البشر... وكلما اجتهدت في رأي، حتى لو كان قانونياً ومهنياً، سألت نفسي: هل توافق سراب عليه؟ وهكذا، بقدر ما اعتدت حضورها الغائب، اعتدت عدم رؤيتها، بحزن، ولكن أيضاً برضا. إنما المهم، رحت أقول، ألا تكون قد ماتت أو قتلت. المهم أن تكون هناك في مكان ما متواثبة الحياة، وأنا راضٍ بالبقية.

وذاث يوم جمعة، صباحاً، فاجأني شريف الترك وتالة بزياتي في البيت دون إعلامي هاتفياً مسبقاً، كما كان من عادتهما أن يفعلا في السنوات السابقة. وقد استقبلتهما سائلة في غرفة الجلوس بترحاب، وسمعتُ لغظهم وأنا بعد في غرفة النوم، فخرجت، وانضمت إليهم بالمزيد من الترحاب، وجرى بيننا العتاب المألوف لانقطاع الزيارات بيننا، بل وانقطاع لقاءاتنا، حتى العابر منها.

كانت تالة، كمهدي بها، في أتم زيتها وأناقتها، وانتبهت بغتة إلى

بقافة كبيرة من الورود الصفر تملأ المزهريّة الكريستال الكبيرة الموضوعّة على طاولة جانبية. فلما تساءلت عنها، انبرت سالمة للقول بأن تالة جاءت بها، ودسّتها عند دخولها في المزهريّة كما هي، وأن عليها ألاّ تبقّيها بدون ماء. وفي الحال حملت سالمة المزهريّة بورودها إلى المطبخ لذلك الغرض، وعادت بعد لحظات، فأخذتها تالة من يدها، ووضعتها على الطاولة الوسطى، وأعادت ترتيبها باعتزاز صريح. وكانت حقاً باقة رائعة، ملأت الجو ببهجة غير متوقّعة، وشكرت أنا للزوجين تلك الالتفاتة، قائلاً إن حديثنا أهملت في الأشهر الأخيرة، وأن تلك أوّل باقة ورد تدخل بيتنا منذ زمان.

حضرت القهوة، ودرجنا من حديث إلى حديث. وكان ظاهراً أن تالة لا تريد الإشارة إلى الزيارة التي قامت بها إلى مكنتي قبل أشهر لتعبّر عن سخطها على علاقتي بسرّاب. وهي زيارة تمّت يومئذ دون معرفة زوجها، ولم أخبر سرّاب عنها، قصداً، لكي لا أثيرها أو أغضبها. وما كنت لأشير إلى الموضوع، لولا أن شريف، بكل براءة، عتب عليّ مجدداً لأنني لم أحاول زيارته ولو مرة واحدة في مكنته، وقد انقضى أكثر من سنتين على تأسيسه. فقالت تالة لزوجها مازحة: «حتى عندما كان هناك إغراء قويّ له في المكتب، لم يزره. فكيف تريد أن يزوره الآن؟»

استضحك شريف، كالمتعاطف معي، وقال موجّهاً الكلام لها، ثم لي: «تقصدين سرّاب عفان؟ كانت سكرتيرة ممتازة. ولكنها كانت غريبة الأطوار، وحساسة جداً. أتدري؟ تركتنا فجأة، ولم نعرف السبب.»

قلت: «أحقاً لم تعرفوا السبب؟»

- أبداً. وقد اتصلت بها في البيت بنفسي، ولكنها رفضت أن تكلمني. أي والله. واضطررنا إلى إرسال مستحقاتها المالية إليها بيد اسماعيل.

وهنا ألفت تالة سؤالها الماكر: «ترى ما الذي جرى لها؟ أين تعمل الآن؟»

فصمتت على ألا أروِّح عنها، وأن أبقئها في تساؤلها، وقلت باقتضاب: «سافرت.»

ورأيت سائلة ترمقني بعين المتفاهم سرّاً معي، لأنني كنت أخبرتها قبل أيام، حين أبدت ملاحظة عن غياب سراب، بأنها «أصبحت فداثية». غير أنها تأكيداً على تضامنها معي إزاء موقف تالة من سراب، أضافت: «فتاة ذكية جداً. ستنجح، أينما ذهبت.»

وبدا على تالة ارتياح عميق، وخيّل إليّ أنها قالت لنفسها: الحمد لله، سافرت! ثم علّقت: «الله يستر عليها.» ثم غيّرت لهجتها، وخاطبني مباشرة: «متى ستتزوج يا نائل؟ رحم الله العزيزة سهام، أنا لا أشك في أنها سترضى عن زواجك الآن، بعد أكثر من أربع سنوات من رحيلها. ماذا تقولين يا سائلة؟»

ضحكت أختي وقالت: «خذي، وأقنعيه! وأنا معك على طول الخط!»

- ولكن من قال إنه ليس بانتظار عودة سراب؟
- محتمل جداً.

- لماذا لا تتكلم يا نائل؟

تالة رهيبة! قلت: «أتكلم عن ماذا؟ لم يبقَ ما يُقال في هذا السياق. يا شريف،» أردت تغيير الموضوع، «هل من مجالٍ لشرائي أسهماً في بعض شركاتكم؟ سمعت أن حقول الدواجن الذي أنشأتموه من أكبر الحقول في البلد.»

- بسيطة يا رجل. مرّ علينا غداً، فنرتّب لك ما تريد.

بعد حوالي ساعة، نهض الضيفان ليودّعانا، وخرجنا معاً إلى شرفة الدار، وانشغلت سالة بالحديث مع شريف عن ولديه وهو يتحرك باتجاه سيارته، فتباطأت تالة معي عن عمد، لتسألني بصوت منخفض: «لماذا لا تطمئنني؟ أما زلت على اتصال بها؟» ولما أجبتها: «بالطبع»، فحّت من بين أسنانها: «أنت أكبر مجنون. سأتلّف لك في المكتب.» فقلت بصوت عالٍ مرح: «لا ضرورة لذلك، لا ضرورة أبداً... شريف، قد أجيئكم في المكتب بعد يومين أو ثلاثة.»

وأسرعت نحو السيارة لأفتح بابها لتالة، وأنا وسالة نردّد: «مع السلامة، مع السلامة.»

ولما عدنا إلى غرفة الجلوس انتزعت باقة الورد المتألّقة من المزهريّة، وسرت بها إلى المطبخ وسيقانها تقطر ماءً، وألقيت بها في حاوية القمامة، وسالة ترقبني فاغرة الفم بدهشتها. وصاحت: «لماذا، لماذا؟»

قلت: «لأنها من امرأة لا تحبّ سراب، حتى ولو كانت تالة.» كنت أعلم أن אחتي، رغم أنها لم ترَ سراب إلاّ مرتين أو ثلاثاً،

أحبّتها دون أن تتحدّث كثيراً عنها. لم تكن تعلم بالضبط من هي، ولا مدى جدّية العلاقة بيننا، ولعلّها في أول الأمر، غفرت لأخيها أن تكون له علاقة حبّ عابرة مع امرأة، كائنة من كانت. غير أنها أكّدت لنفسها، كما حدّثتني فيما بعد، أن امرأة يتعلّق بها أخوها بهذه الحرارة يجب أن تكون امرأة غير عادية. وقد لفت نظرها أنها، بالنسبة لي، صغيرة في السن بعض الشيء، ثم عادت وقالت: ثم ماذا؟ ولما علمت أن أباهما هو الجراح المعروف (لا أدري من أين حصلت على هذه المعلومة) الدكتور علي عقّان، باتت تتوقّع أن أطلب إليها في أية لحظة أن تتصل بوالدة سراب لترتّب أوليات الخطبة، وراحت تستحضر أسماء الرجال، من أسرتنا وأصدقائنا، الذين يستحسن أن يرافقوني عند طلب يدها من والدها. ولم يقلقها إلا أن أهلها قد يعترضون على أن نجد ابنتهم الشابة نفسها، بعد الزواج، مسؤولة عن تربية ابن زوجها، ولذا قرّرت أن تستمرّ في احتضان غسان برعايتها هي، لتحرّر سراب من مثل هذا العبء.

عملية جدّاً، حبيبتني سائلة، وتقليدية جدّاً...



توالى الأشهر. كتبت بحثي للمؤتمر الدولي، وسافرت إلى لاهاي لإلقائه في أوائل شهر أيلول، وقضيت قرابة أسبوعين ممتعين في لاهاي وأمستردام، وزرت متحف رمبراندت وفان كوخ - كيف يحرك البؤس والعذاب قوى الإبداع في العباقرة! فلا تعلم! - وعدت إلى المدينة مجدّد النشاط لعمل جديد أخذ يتملّص في دماغي. بدأت روايتي الأخيرة بعد عودتي بأيام قلائل، غير أن ما جاء دفقاً في

البداية، سرعان ما شخّ، ثم غاض. وترئيت، والأسابيع تمرّ. وقدم الشتاء ثمّ الربيع، وأنا لم أكتب من الرواية أكثر من خمسين صفحة. غير أن أعمالي شغلتنى بأكثر مما يتوقّع أيّ عام، وأتاحت لي الذهاب في الصيف إلى القاهرة وتونس. وفي تلك الأثناء بلغتنى دعوة للمشاركة في مؤتمر للرابطة الدولية لحقوق الإنسان يعقد في باريس ابتداءً من مطلع آذار اللاحق. فوجدت لنفسي مبرراً للانصراف عن همّي الروائي لكيما أركّز أخيراً على إنهاء ورقتي عن ضرورة إلغاء عقوبة الإعدام.

ستان انقضت، ثم كادت السنة الثالثة تنقضي على أول لقائي بسرّاب. وقد أضحت كأغنية تتردّد في داخلي - تتردّد نغمياً ما عدت أذكر كلماته. نغمياً جيلاً أستسلم له دون وعي، ثم يتلاشى تاركاً أحاسيني في شفق ناعم لا أعرف أهو أول النهار أم أول الليل. وبقيت القوقعة مكانها، ملأى بتنهّداتها وحسراتها، والكلمات التي كان بالإمكان أن تنهمر كالطرر بقيت تتراكم صامتة في ركن من النفس، كأنها وراء سدّ محكم. واقع الأمر أنني كنت أخشى انطلاقها، وبخيلة عقلانية تمكّنت من إبقائها في مكانها، كمن يعرف أن في بيته غرفة مسكونة بشبح لا يعرف الرحمة إذا دخل أحد عليه وأزعج سكونه، فيتجنّب دخولها. حتى كافتيريا «الأنسام» امتنعت عن ارتيادها، وفندق «الهوليداي» لم أذهب إليه إلّا مرّتين أو ثلاثاً بدعوات رسمية اضطررت إلى الاستجابة لها بحكم عملي.

ولكن قبيل سفري إلى باريس لحضور مؤتمر حقوق الإنسان اتفق أن مرّبت بسيارتي في الشارع المؤدّي إلى منعطف جنين، حيث كنت

أنتظر سراب كلما جاءتني بسيارة أجرة، ووجدتني لا إرادياً أستدير
وأدخل المنعطف، وأتوقّف كالأبله في أوله . . . وفاجأني خاطر مريع:
تصوّر لو أن فتاةً بدیعة القوام، مرسلّة الشعر، خرجت من بين هؤلاء
المستطرفین، وجاءت إليك وقالت: ألا تذكّرني؟ ألا تفتح باب
السيارة لي؟ اضطربت، وصحت كالمعتوه: لا! لا! وانطلقت بالسيارة
بسرعة هوجاء كأن العفاریت تطاردني.

وبلغت الدار وأنا أعرق رغم برد شباط. وأخرجت أوراق
الرواية التي كنت أهملتها منذ أشهر، وكتبت على صفحة جديدة:

طريق تدخلها من حيث لا تدري

وإذا بها تتفض حيةً

لتعذب الذاكرة، وتستعيد

ما كاد يلفّه النسيان:

ما أكثر الذي ظلّ حبيساً

رهين الصمت، يتململ.

فهل لك أن تُمسك القول

عن بعض ما تبقي، رافضاً

أن يكفّ عن إلحاحه -

عن الجمال الراعش صباحاً كالندى

عن الظلام اللاهث بالحب كالمنطر

عن حُرقات القلب جائحة كالزوبعة؟

تركت الورقة على المنضدة، وقلت بعصية: نعم! سأمسك

القول! لن أكتب كلمة واحدة... إلى أن أذهب إلى باريس. وأما بعد ذلك، فمن يدري؟



شغلنا مؤتمر الرابطة الدولية لحقوق الإنسان في باريس لأربعة أيام، من الصباح حتى منتصف الليل يومياً، ما بين ندوات، ولقاءات، ودعوات غداء وعشاء، كما في كل المؤتمرات. وقدمت بحثي (بالفرنسية، بالطبع) عصر اليوم الأخير، وجرت عليه مداخلات مهمة من حقوقيين ومفكرين عرب وأجانب.

والذي لفت نظري أن العرب والأجانب كانوا متفقين معي على ضرورة إلغاء عقوبة الإعدام كلياً، لما تلعبه هذه العقوبة من دور في إعاقة المجتمع عن إعطاء الحياة الإنسانية الاحترام الكامل لقدسيته، كي تعيقه عن دخول العصر الحديث ومرحلة الديمقراطية الحقيقية، إلا أن غير العرب من المشاركين كانوا هم الذين عبروا عن شكهم العميق في أن دول العالم الثالث ستأخذ في المستقبل المنظور بمبدأ الإلغاء، وأوحوا بأن مفكري هذه الدول ما زالوا هامشين إزاء القوى الأخرى التي ما زالت هي الفاعلة في تحريك المجتمع، أو تجميده، بصورة ما، الأمر الذي أثار بدوره جدلاً استمر سلباً وإيجاباً حتى أنهاء رئيس الجلسة بكلمة فاصلة.

وسرّني جداً أن أرى، عند جلوسي على المنصة لإلقاء بحثي، الطيّب الهادي بين الجمهور. وكنت في اليوم السابق قد اتصلت به هاتفياً وأعلمته بوجودي في باريس، وانعقاد المؤتمر، وموعد تقديم

ورقتي فيه . وعندما خرجنا من القاعة ، جاءني ، وتعانقنا ، واندفعنا من بين الحاضرين ، خارجين إلى الشارع لكي نستطيع إطلاق عواطفنا كلاماً ، وحركةً ، وضحكاً ، على طريقتنا العربية ، واتجهنا نحو مقهى قريب وهو يقول : «حتى متى ستبقى طوباًوياً ، يا نائل؟» فأقول : «حتى النهاية .» فيرد ضاحكاً : «نهاية الجللاد ، أم نهاية الضحية؟»

لم أكن قد رأيته منذ زيارته للمدينة قبل حوالي ثلاث سنوات ، فكانت الأسئلة والأجوبة بيننا تتزاحم ، وتتوالد ، والزمن يطير . وكان عليّ أن أحضر حفلة العشاء الختامية لأصحاب المؤتمر ذلك المساء ، واتفقنا على اللقاء صبيحة اليوم التالي ، وكان يوم أحد .

جاءني في التاسعة صباحاً ، في الفندق الذي أنزلني به منظمو المؤتمر في شارع مجاور لمباني جامعة السوربون ، وشاركني في قهوة الإفطار . ثم قال : «هيا البس معطفك ، ولنخرج . الطقس بارد ، ولكن ربك العربي ما زال يحبك ، لأنه أوقف المطر منذ ليلة أمس .»

وخرجنا نسير على غير هدي في بولفار سان جرمان ، والمتاجر مغلقة ، ومررنا بكنيسة قديمة سمعنا منها الحان الأرغن ، فاقترح الطيب أن ندخل ونصغي إلى الموسيقى - وكانت فيما أظن «توكاتا» لباخ - فدخلنا ، ووضعنا الألحان الهائلة في حالة انسجام جميل يطالب بالمزيد . فلما استؤنف القدّاس ، انسحبنا بهدوء نحو الباب ، وقال الطيب : «بوسعنا أن نقضي الصباح منتقلين من كنيسة إلى كنيسة ، من موسيقى إلى موسيقى .»

قلت : «ما رأيك في زيارة النوتردام؟ لم أرها منذ سنين .»

وسرنا باتجاه السين والنوتردام، والطَّيِّب يقول: «تذكّر قول
مونتني: الفقر في المال يمكن علاجه بسهولة، أمّا الفقر في الروح فلا
علاج له... أحد الله أحياناً على أنه جعلني غنياً في الروح، ولو
بمقدار، منذ أن حفظت القرآن، فما كانت لي يوماً مع الروح مشكلة،
حسبها أظن. غير أن الفقر في المال، على عكس ما زعم أستاذنا
الكبير، لم أتمكن يوماً من علاجه بسهولة...»

قلت: «المال؟ وسخ اليدين؟»

- «ولذلك، غسلت يديّ منذ زمان، ونسيت الموضوع... بعد
زيارة النوتردام، سندهب إلى مركز بوميبدو.»

كانت الكنيسة القروسطية الكبرى مكتظةً بالناس، رجالاً ونساءً،
جالسين أو واقفين، متحلّقين حول الهيكل والمرتلين، أو منفردين
منتشرين في الحواشي الفسيحة المعتمة، وبين الأعمدة، كلٌّ في عالمه
الداخلي، تحت السقوف الرخامية الشاهقة، إزاء تلك الوردة الإلهية
الرائعة التي تحتلّ دائرتها الشاسعة أعلى الجدار، ونور الشمس يتسرّب
من خلال زجاجها الملوّن المقطّع بالرصاص، إلى الرحاب المظلمة،
المتصادية بأنغام الأرغن وحناجر المنشدين.

كلانا، أنا والطَّيِّب، مأخوذ عيناً وقلباً، ولكلّ منا أسبابه. كلانا
مفتون، وكلانا مشتبه وتواق إلى نشوة الدرويش. وقلت: «أليس
هكذا يكون الدخول إلى الجنة؟»

همس مجيئاً: «بلى، فما أصعب الخروج منها!»

بعد نصف ساعة، عند خروجنا إلى الشمس الساطعة رغم

برودتها، وقد تركنا تهاويل الموسيقى وراءنا، راح الطيب يتلو بصوته العميق، ونحن نعب الساحة العريضة المائجة بالناس:

«جَنَاتٌ عَذْبٌ يَدْخُلُونَهَا يُحَلِّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ...»

صمت لحظة، مرسلًا عينيه بعيداً، ثم أضاف:

«إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاكِهِونَ * هم وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِنُونَ...»

صمت مرة أخرى، ذلك الصمت الذي يؤكد تواصل الموسيقى، ثم أردف:

«أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ * فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ * فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ * عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ * يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ * بِيضَاءٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ * لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ يُنْزَفُونَ * وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطُّرْفِ عِينٍ * كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ...»

قلت وأنا أخشى أن أبدد الجو الفردوسي الذي أدخلني الطيب في وهمه بتلاوته المدهشة: «أمن سحرٍ إلى سحرٍ يا أبو محمد؟ أما زال هذا دأبك مع أصدقائك؟»

- لا سيما عندما تمرّ السنون ولا أراهم. قل لي، ألم تتزوج ثانية في هذه الأثناء؟

أجبت مستغرباً: «أتزوج؟ هل أوحيت إليك آخر مرة التقينا فيها بأنني سأتزوج؟»

ضحك، ولكن خاصرني بكوعه: «عبد الله الرامي مرّ بباريس قبل أكثر من ستين، وقال إنك كنت مشغولاً بشابة جميلة. أو، بالأحرى، قال إنها مشغولة بك. أرجو أنني لا أفصح سراً بهذا الكلام؟»
- لا، أبداً.

- إذن؟

- رحلت. واختفت. وعلى فكرة، أين عبد الله هذه الأيام؟
- والله لا أعرف. فهو كعادته، فجأة يظهر، وفجأة يختفي.
- وأنت، هل أم محمد عندك هنا؟

- ربيعة ومحمد وحسن، كلهم الآن في الرباط. ويبدو أنني سألتحق بهم قريباً. فباريس ما عادت تغريبي كما من قبل، والعمل الصحفي هنا أضحي كالضرب في الصخر. غير مجد شخصياً، وغير مجد وطنياً. .. والآن، أنستقل سيارة إلى مركز بومبيدو؟
- وهل يأتي المرء إلى باريس ليركب سيارة؟ في هذا الصحو الجميل، أي حركة غير المشي خطيئة. وأنت مثلي، من عشيرة المشائين.

- أتعرف، ناثل، لو أنني استطعت أن أضع الأفكار كلها التي تسترسل وتتداعى في ذهني وأنا أمشي في هذه الطرقات، لملاّت مجلّدات.

- الآن أدركت السرّ في مقالاتك المسترسل المتداعية في ما يشبه التأمل الفلسفي الذي لن ينتهي.

- إنها حياتي. . . حياتي قضيتها ماشياً على قدمي منذ أن فتحت عيني في الصحراء الجنوبية.

- وماذا أقول أنا؟ ماذا أقول عن مشاويري المستمرة مع شهوة العين وشهوة الذهن، وكلتا الشهوتين في احتدام لعين. وكلما تقدّمت بي السن، وتغيّرت أساليب الحياة، فربّما انحسرت المشاوير قليلاً، ولكن الشهوتين لا تزيدان إلّا احتداماً.

بعد مسيرة طويلة. بلغنا ساحة مركز بومبيدو - حيث تختلط أنماط البشرية بالحواة، والسّحرة، وناثي النار، بالرّسامين والكاركاتوريين والعشاق، بالمشعوذين، والشّذاذ، وسكاري النبيذ في وضوح النهار. وأنا القادم من عالم النظام، والتقنين، وأقنعة الرصانة والتقنيّة، شعرت أنني في هذه الفوضى المثيرة أعود إلى إنسانيّتي الحقيقيّة. وتمنّيت لو أن سراب معي في تلك اللحظات. ولم يكن لي محيد من الحديث عنها، أخيراً، إلى الطّبيب الهادي، استحضرها بالكلام عنها، بوصف قوامها وحركتها، إلى أن دخلنا المركز، وبدأنا الصعود في سلالمه الأنبوية الشّفاة بين الحشود المكتظة إلى طوابقه العديدة، بمجموعاتها الفنيّة ومعارضها المتباينة، نسرح بين التماثيل المذهلة واللوحات المتحدّية وكأننا نبارك لها جميعاً ما أوجدته، وتوجده، من تفتيق لفكر الإنسان وخياله، وتشديد على صبراته وأدلّامه، وإغناء لعشقه وجنونه الإبداعي، ذلك الجنون الضروريّ لسلامة البشرية في عصر العلم والتكنولوجيا.

وحين بلغنا أخيراً الطابق الأعلى، حيث المطعم مع خدمة الذات، كان للتعب حقّه علينا، وكذلك الجوع. فتناول كل منا صينيّة، وسرنا في الصف المحاذي للأطعمة المعروضة، نختار ما نشاء من لحوم، وخُضَر، وحساء، وخبز، وزبدة، وجبن، وحلويات، وفاكهة،

ونبيذ، وقهوة. وحمل كلانا صينيته المثقلة بأطاييها، والبخار يفوح من أكثر من طبق، وبحشنا عن مائدة نجلس إليها. فوجدنا واحدة بعيدة، قرب النافذة المطلّة على سطح المركز المكشوف. وقد تجمّع على السطح المشرف على سطوح باريس المتميّزة الأفق بقبابها، عدد كبير من الرجال والنساء، معظمهم من الشباب. وأخرج بعضهم أكياس السندويتش من جيوب معاطفهم، وراحوا يأكلون في الهواء الطلق وهم في حديث وضحك.

وانتهبت عندها إلى فتى وفتاة، قد لا يبلغان العشرين من العمر، ينتقلان على السطح بين الناس، ثم يتقدّمان من النافذة، وينظران من خلال الزجاج إلينا. ثم يركّزان على «الوليمة» التي فرشناها أنا وزميلي على المائدة.

ضحكنا لهما، فأشار كلاهما إلى الطعام، وجاء كلاهما بإيماءة تعني: ما أكثر ما أمامكما من أطباق! فما كان مني، ومن الطيّب، إلا أن نشير لهما - وقد جعلنا نتخاطب على طريقة مارسيل مارسو - أن تعاليا وشاركانا الطعام.

كانت الفتاة تضع لفافاً حول عنقها، فحلّته حتى تدلّي طرفاه على صدرها، وأمسكت كل طرف بيد وجعلت تحرّكه حول عنقها صعوداً ونزولاً، وتلعب حاجبيها وعينيها الواسعتين، وهي تتمنّى في الطعام مزاحاً، وتأتي بحركات بأنفها وشفتيها كأنها تشمّ روائح لذیذة تشتهيها، ورفيقها يتابعها بحركات مماثلة، مضحكة مبكية، ويومئ إلى قطرات مزعومة تسيل من عينيه... آه، أريكان وكولوميين! ما أجملها، هذين الشابين! ما أصدقها!

وأكدنا عليها مرّة أخرى بالإشارة أن يدخلنا المطعم، وينضمّا إلينا. ولما فيها قصدنا، أومات كولومبين بأنها تطير فرحاً، وركضت برشاقة البالرينا (آه، سراب! سراب!) في اتجاه المدخل، يلحق بها آريكان بحماسة المازح الراقص.

وأسرعا إلينا من خلال الموائد المكتظة بالجالسين حولها، ودعوناها للجلوس معنا على المائدة. ولكنها كانا يضحكان ويرفضان، بلا كلام... قدّمت للفتاة طبق اللحم، فهزّت رأسها بالرفض، وهكذا رفض صديقها ما قدّمه الطيّب. قلنا لهما: لكلّ منكما أن يختار ما يريد، وكلّ ما يريد. «لا، لا»، قال كلاهما... وقالت الفتاة: «هذه فقط!» ويخفّة الملائكة التقطت التفاحة الكبيرة التي كانت فاكهتي في الصينية. وقال الفتى: «هذا فقط!» والتقط بخفّة عمالة قطعة خبز وجبن من أمام الطيّب. وقضت الفتاة بأسنانها البيضاء البراقة التفاحة بصوت مليء باللذّة، وأخذ الفتى عضةً من الخبز والجبن، وعبر كلاهما بملاحه البديعة عن شكره، وانحنيا لنا، والفتاة تقضم المزيد من التفاحة، وودّعانا بالتلويح بأيديهما وكأنهما يبهران إلى قارة مجهولة لن نعرف نحن حتى اسمها!

فقلت للطيّب: «هذان هما الجنّة! الجنّة الأولى، لا جنّة الآخرة التي سحرتني بتلاوة أوصافها هذا الصباح. فيض عنيف من الحيوية، نقي نقاوة الثلج، ولاهب كسكير النار!»

قهقه الطيّب، وكرّر القهقهة: «ما زلت عاشقاً، وتغبط العشاق! ألن تكبر، يا نائل؟»

- والله لو يرضيان بي لخرجت معها أرقص على أسطح باريس،
وأعيش على الخبز والجبن والتفاح!
- فلنشرب نخبهما!

وصببنا الخمر، وشربنا نخبهما ونخب العشاق جميعاً، وقلت: «بعد
كل ما كتبت، أتدري ما هي الرواية التي أتمنى لو أكتبها؟ أتمنى لو أنني
في يوم ما أكتب روايةً عن شخصين، شخصين فقط، رجل وامرأة.
قصة حب. أعزلها عن كل ما يحيط بهما، كما تُعزل نقطة دم صغيرة
على شريحة زجاجية، للتأمل فيها تحت المجهر. وأنا أشعر أنني بذلك
سأحقق نوعاً من العودة إلى الجنة، الجنة الأولى، تلك التي خلقها الله
لآدم وحواء، دون غيرهما، وجعل طبيّات الدنيا مُلكاً لهما...
والتقطها في لحظة الغواية المزلزلة، تلك التي يكشفان فيها كلاهما
شدة حضور الآخر، وجذبه اللذيذ القاسي الذي لا يمكن أن يُردّ.
إنها بذلك يكشفان كيف تتفجّر أنساغ الحياة، وكيف يكون الخلق
بمعانيه كلها، وفرحها الواحد بالآخر إنما هو فرح الألوهية بالخلق...
لعلّ الأفعى القديمة كانت على كثير من الحكمة والمعرفة، عندما قالت
ما قالت لحواء.»

«رائع، رائع،» قال الطيّب، وقد توقّف لحظةً عن الأكل، ثم
أضاف، وهو يلتقط بالشوكة شيئاً من طبقه، «أكمل، أأكمل.»
التقمت قطعة لحم صغيرة، وشيئاً من الخضرة، وصببت كأساً
أخرى من النبيذ: «حياتنا مرهقة. أحزاننا لا ترحمنا. فواجعنا لم
يعرف التاريخ مثلها حجماً ومآسي. ويبدو أن الهنود كانوا محقّقين عندما
قالوا إن هدف الحياة الأقصى هو الخلاص.»

- ولكن ما علاقة الخلاص بالعاشقين اللذين تريد التركيز على قصتهما؟ أتريد أن تقول إن الحب هو الخلاص؟

- ليس ذلك بالضبط. أو، ليس بهذه البساطة. المهم أن النظرية الهندية تقول إن الخلاص كامن في تداخل روح الفرد في روح الكون. وهذا أدى إلى الاعتقاد بأن اتحاد الرجل والمرأة في نشوة الحب، يتلاشى فيه الحبس بأنها اثنان منفصلان. وتلاشي هذا الحبس بالثنائية هو بداية التحرر والخلاص. روح الفرد تتداخل في روح الكون عن طريق الحب. أو أن هذا التداخل هو الحب، وهو الخلاص.

- ولكن الفساجع تبقى تلاحقنا، والأحزان تحتاج المحبين والمبغضين على حد سواء. فأين الخلاص؟

- الخلاص هو في الروح. في اختراق الفاجعة. في السمو على الحزن. وعندها، يفتح عقل المرء، وقلبه، وكيانه جميعاً، على إمكانيات التغلب على هذا الشرّ النافر في وجودنا عنيداً كالديد. ولعلّ البشرية تصبح أكثر خيراً عندما تصبح أكثر جاً.

- نائل، لست أدري كيف استطاعت فتاة طلبت منك تفاحة أن تطلق هذه الأفكار كلها عندك، وأنت ما تزال تأكل! وأنت تعلم أن عواصم الدنيا اليوم أحلتّ الفجور مكان الحب، ولم تترك للعشاق حلاً يتحدثون عنه.

- يا لبؤس هذه العواصم إذن! ولكنها شاءت أم أبت، تبقى في انتظار أعمال المبدعين الذين تتداخل الروح في كل منهم في روح الكون، فتتحقق لهم بذلك لحظات الخلاص التي هي لحظات

الخلق. ولذا فمهما أحلت الفجور مكان الحب، فإن مدن البشرية لن تحيا وتتقدم إلا بأحلام عشاقها الملهمين. وما غير ذلك إلا عبودية مقنعة، وموات مستمر.

نظر الطيب الهادي إلى نظرة طويلة توحى بأنه لا يصدق أذنيه. ثم أخذ جرعة كبيرة من نبيذه، وقال: «ما الذي فعلته بك سراب عفان!»

عندها ضحكت أنا وقد انتابني شعور بأنني ربما بالغت في الحماس، وبالغت في الجذ. وقلت: «ولكن، أنا لم أحدثك بعد عن الخروج من الجنة.»

- ها! الخروج من الجنة هو الملهم الحقيقي. الخروج إلى معترك الخيبة، معترك الشر، معترك العذاب. حينئذ يصبح الفن ضرورة، الطريق الوحيد إلى الخلاص. فأقول حينئذ، على طريقتك، مدن البشرية لن تحيا وتتقدم إلا بأحلام المعذبين الملهمين.

- لا بأس، لا بأس. ولكنه خروج من الجنة. أي أن الجنة يجب أن توجد، لكي يخرج الملهمون منها، أو يطردوا، فيبحثوا عن طريق يوهبهم بالعودة إليها.

- لا، لا. الجنة الأولى، إذا خرجت منها، لن تجد طريقاً يعود بك إليها، مهما بحثت. وخير لك أن تتعذب، وترضى بأن تؤخذ بالألوان، والأصوات، والأفكار المجردة، وبالיום يتلو اليوم، فتجد فيها جميعاً الدافع، أو بعض الدافع الذي أنت تحتاج إليه في بقائك أستاذاً للقانون، أو روائياً يريد كتابة قصة أخرى، أو كاتباً مثلي

يفوص في بحر من الكلام حتى الاختناق، عسى أن يخرج بمحارة فيها
لؤلؤة، مهما صغرت.

تناولت كوب القهوة الفرنسية، وتأملت قنামها البني، وأخذت منها
رشفة، وكانت قد بردت. وعادت إلى الأشهر الأخيرة التي عانيتُها
طريداً من الجنة، وقلت: «ولكن، أيها الطيب، يأتي يوم تبث فيه
الألوان، وتبلد فيه الأصوات، ويصبح غير مهم ما ترى من رأي،
وما تكتب من كلمة، وتتساوى الأفكار كلها في عدم قيمتها... يوم
لا يلد فيه للمرء شيء، والبقاء فيه بقاء نباتي، لولا الحس المستمر
بالخيبة والألم. نتمنى ما لا نراه، ونسمع ما لا نشتهي، كما قال
المعري. والأصدقاء تتباعد أصواتهم في المدى، وتغيب وجوههم في
الذاكرة، والحساسات تفقد أوارها، وليس ثمة ما يشير العين، أو
الذهن، أو الجسد. مُرُّ هو كل شيء، ورغم الشمس الحارقة فإن
الظلام هو الطاغى على الساعات كلها. والتوجس هو التوجس بالفناء
والصمت النهائي.»

«أرعبتي يا رجل،» قال الطيب، وأطلق ضحكة غريبة وهو يهز
رأسه، «ولم يبق إلا أن تكرر قولاً آخر لصديقك المعري: علّاني،
فإن بيض الأماني/ فنيث، والزمان ليس بفايد... والله إذا لم تقتلع
باريس في هذين اليومين هذه الرؤى السوداء من دماغك، فسأبقى
معي هنا إلى أن تعترف بأنك لا تعني ما تقول، وإلى أن تعدني بأنك
ستعود إلى مكتبك الجميلة في الوطن وتغلق الباب على نفسك،
وتكتب قصة العاشقين اللذين تمازجت روحاهما في روح الكون، حتى
أدركا ساعة الخلاص! فلربما بذلك تخلص أنت أيضاً... ثم قل لي

بشرفك، كم مرةً خرجت من جنتك الأولى هذه، لتعود إليها، ولو وهماً، ثم خرجت من جديد؟ وهل أنسى تلك الشابة الفلسطينية التي أخذت بها في أواسط السبعينات في بيروت، وهي تحدّثنا عن ابن عربي وذهوله الصوفي، وهي مذهولة بنائل عمران وتريد أن تنفيها جميعاً عنه لتحظى بحضوره الوجداني في جنتها الأولى؟ ماذا كان اسمها؟ ريم؟ رشاً؟ وما أنت الآن تحدّثني عن سراب، ولا أدري كم رشاً صادق وكم سراب أعطشك بينهما في هذه السنوات. ثم هل لاحظت أن كولومبين، هذه الوردة التي ما كادت تفتح بعد، انجذبت إليك حتى من خلال الزجاج، ومن خلال لغةٍ أخرى، وجاءت إليك راكضة ترقص لتأخذ منك تفاحةً تقضمها بشبق جنسي؟ ما الذي فيك يجعلهن يتصرّفن هكذا وهم في ميعة البكارة؟ وبعد هذا كله تقول لي: مرّ هو كل شيء، والتوجّس هو التوجّس بالفناء والصمت النهائي.

ولم يكن لي هذه المرة إلا أن أضحك أنا ضحكتي الغريبة، وقلت: «كل ما هناك هو أنني كلّ بضع سنوات تصيبي الصاعقة. ألا تُصعق أنت بين حين وآخر؟»

- وكيف تحسّبي أقوى على البقاء والكتابة لولا الصواعق، مع كل حبيّ لعزيتي ربيعة؟

- ولكن السنوات أخذت تدركنا يا أبو محمد:

- تدركك أنت؟ تدركني أنا؟ لا، هذا الكلام قد أقرّه من آخرين كثيرين، ولكنني لن أقرّه منك. اسمع، نائل: من منا ما ابيضّ شعره، وانحنى ظهره، وانقص عمره في السنوات الأخيرة، سواك

أنت وسواي؟ إذا تركنا الحديث عن الجنة جانباً فإن لي نظرية تزداد قناعتي بها كلما تقدّم بي العمر. أنا وأنت من عشيرة لا تشيخ. خذها مني. لأن الفنان لا يشيخ. وهذه قاعدة أساسية. لا يهتمك أن شعره يبيض، فإن ذلك لن يزيده، كما تقول الأغاني، إلا هيبة، وجاذبية. فالفنان مصدر الخيال والإلهام فيه هو الذي يحيا به، ولا يحيا إلا به. وهذا المصدر متمركز في ذلك الجزء من جسده حيث تتوالد وتتجدد طاقة الحب. ولك أن تسميها طاقة الجنس التي هي في الواقع ينبوع الشباب في الإنسان، ويبدو أن مرّ السنين يعجز عن الحدّ من هذا الينبوع، ما دام الينبوع دافقاً بالخيال والإلهام الذي يتمثل فيه ويتوثّب به... أعني، لو كنت أنت مجرد الدكتور نائل عمران المستشار القانوني، وأستاذ الحقوق الجامعي، لكنت الآن شيخاً تهرهر وقد جفّت فيك طاقة الحب، طاقة الجنس، وبالتالي جفّت فيك الطاقة على إتيان أيّ جديد. ولكن لأنك فنان، وخيالك بالتالي شغال باستمرار بقوة هذا الجهاز السحري فيك - وهو جهاز «الحركة الدائمة» الذي يحلم بتحقيقه المخترعون وقد سبقهم إلى اكتشافه الفنانون - فإن السنين ترتدّ خائبة عنك، عن شبابك الغامض الفائض دوماً بطاقة الحب، والباه، والخلق، والمتعة الجسدية والذهنية، وما شئت. خذها مني يا نائل، إن الجبروت كائن في حقّين معلّقين بين فخذيك، حيث الينبوع الحقيقي لكل إبداع عظيم!

ضحكت من أعماق قلبي، وقلت: «سواء أكنت صائباً في هذا أم غير صائب فإنه يطيب لي أن أصدّقه جميعاً. فلنشرب نخب هذا الجبروت الهائل!»

شربنا، ثم أضفت وأنا ما زلت أضحك: «وسوف أراجعك في الأمر بعد عشر سنين من اليوم..»

قال وهو يفرغ ما تبقى في الزجاجاة من النبيذ في كأسه: «لم لا تقول بعد عشرين سنة، يا رجل؟»

كان شعوراً رائعاً ذاك الذي غمرنا في تلك اللحظات، بأننا سنقوم ونترك مركز بومبيدو والزمان كله باقي ملك أيدينا...



عصر اليوم التالي، كان ثمة رذاذ لذيق منعش، بعضه مطر وبعضه ثلج، كالذي تعرفه باريس في أوائل آذار، قبيل مقدم الربيع.

خرجت من الفندق، وحول رقبتى لفاف صوفي أشعر أنه يقيني ما يكفي من خطر البرد، ولا يمنع عني لذته. وسرت دونما هدف في «روديزيكول» (شارع المدارس)، بجوار مباني السوربون، وصعدت في فرع من فروعه كنت أعلم أنه في أعلاه سيبلغ بي «البانتيون»، وساحته في تلك الساعة من العصر، وفي ذلك الرذاذ المتواصل، خالية من الناس، فيما عدا بعض الفتية والفتيات الذين لاحظت أنهم يدخلون ويخرجون من بوابة عمارة عالية تطل على الساحة. فانتبهت إلى أنها مدخل إحدى مكاتب الجامعة.

لم أكن قد تبللت كثيراً بحيث أبغي الابتعاد عن البلل، كما لم أكن قد اكتفيت من لذة الهواء القليل الذي أتلّقه بوجهي، بشعري، بشفتي، مع حبيبات المطر والثلج، متذكراً أمطاراً كثيرة أخرى تأتيني بأنغام نصف مُتذكّرة، كما كان من دأب الموسيقى أن تذكّرني، دونما

وضوح، بالأمطار واللقاءات الغريبة التي تلتصق فيها أصابع جميلة، وأسنان شهية بين شفاه تضحك.

وقفت قرب البوابة أطيل النظر إلى «البانتيون»، صرح أولئك العظام الذين رفعهم وطنهم، حباً بفكرهم وإعجاباً بفنهم، إلى مصاف الآلهة. غير أن دافعاً نبغ فجأة من أعماقي يستحثني على ولوج بوابة المكتبة. وأحسست وأنا أدخل إلى أول البهو، ثم أصعد الدرج، أنني كمن يعود إلى بيته - على اختلاف الهندسة عن كل ما اعتدته في البيوت التي سكنتها. إنه الجو العابق بالرطوبة التي يأتي بها الطلاب والباحثون بشياهم المبللة، فتمازج حرارة التدفئة الداخلية، ودخان السكاير والغلايين التي كان يدخنها كثير منهم وهم وقوف على أدراج السلام، إذ لا يسمح بالطبع لهم بالتدخين في قاعات المكتبة نفسها. وصعدت الدرج بينهم، غير شاعر بغربي، لا عن المكان، ولا عن رواده، ولم يستغرب أحد مروري بهم باتجاه قاعة المطالعة الكبرى.

في مدخلها جوهت بمكتب المشرف، وعليه لافتة تقول: «الرجاء إبراز الهوية». ولم تكن عندي الهوية التي يريدونها المشرف الشاب، وكدت أتراجع. غير أنني عندما شاهدت اتساع القاعة الهائل، وجدراتها المبطنّة برفوف عشرات آلاف الكتب، وقد اكتظت صفّاً صفّاً بالمناضد الطويلة المحاطة كلها بالدارسين والباحثين في صمت كصمت الأماكن المقدسة، ما كنت لأتراجع بسبب هوية لا أحملها. وقلت للشاب اللطيف: «أنا غريب، وأحب الكتب. أسمح لي بالدخول؟»

فأجاب مبتسماً، غير متردد: «بدون شك. تفضل.»

ودخلت لاتمشي نحو الرفوف من بين المناضد المتواترة، وقد انكب الشباب والشيوخ، رجالاً ونساءً من كل عمر، على أوراقهم وكتبهم، يقرأون، ويدونون الملاحظات، منهم من يكتب بسرعة، ومنهم من استقرت يده على كتاب مفتوح وارتفعت عيناه الساهمتان، فكراً أو حلمًا، إلى السقف الشاهق. لم أكن أتوقع في أمسية باردة كذلك هذا الازدحام الكثيف حول موائد المعرفة هذه، بحيث لم أجد مكاناً خالياً قد أدس نفسي فيه مع كتاب أنزله من على أحد الرفوف.

سرت في الممرات بين المناضد وعيناي تتابعان أوراق الدارسين وأيديهم وأقلامهم، وتتابعان أحياناً وجوههم المتأمله المتعمّنة، وأحسست بأنها جميلة في صمتها، وفي تركيزها على المطلقات الفكرية التي أمامها. وخطر لي أنني أشبه برجل هبط من المريخ ليرى الإنسانية متلبسةً بفعل من أروع أفعال الحب. وخيل إليّ أن الكثير من وجوه الفتيات، وكنّ كثيرات، ومعظمهنّ يلبسن سترّة من الجينز، أو كتزة صوفية سوداء ترتفع ياققتها حتى الذقن حول عنق ممشوق، تنضج بسحرٍ ربما لم يكن، في تلك اللحظة، إلّا من خلق وهمي أنا.

كدت أصل بسيري المتوالي إلى الطرف الآخر من القاعة، حين لمحت رأساً بديعاً من الخلف، شعره الأسود الغزير مرسل على الظهر، ويعضه على الكتفين. فتوقفت برهةً، وخفق قلبي فجأة خفقاناً كنت نسيته. ورغم أن ذوات الشعر الأسود، والأصفر، والكستائي، المرسل على الظهر والكتفين، كنّ عديدات أينما نظرت في القاعة، فإن التي باغتني بظهرها، وأنا لم أربعد وجهها ولا يديها، أزعجتني

بلدّة جعلتني أخشى الاقتراب منها لرؤية وجهها.

نسمُرت في مكاني. أيمن أن تكون هي؟ مستحيل! فلأعد أدراجي وأنا مثقل برفض التأكّد ممّا أرى، ولتبقّ صاحبة ذلك الشعر سراً حركّ دواخلي وخشيت الدنو منه، لا لأنه إن أنا رأيت سيبتدّد وقعه، بل لأنه سيوقعني في ما هو أعمق، وأدهى.

ولكنني انتهت، وأنا في اضطرابي، إلى اليدين العاطلتين من كل حلية، المستقرّتين على المنضدة، وإحداها تحركّ قليلاً على الورقة ببطء من يحاول أن يكتب جملة لا تستقيم له بسهولة. وهي تكتب من اليمين إلى اليسار. إنها تكتب بالعربية! إني أعرف تينك اليدين الرهيفتين معرفتي ليدّي. مستحيل! واندفعت، رغم مقاومتي، حول المنضدة في الممرّ الذي يؤدّي بي إلى الناحية المقابلة لصاحبتها، لأؤكّد لنفسي أنني وقعت في وهمٍ يجب عليّ أن أخلص منه حين أجد أن المرأة الغريبة لم أرها من قبل في حياتي.

كانت مطاطة الرأس فوق أوراقها، تلبس نظّارة سوداء الإطار، وهي منكبّة على ما تكتب بالعربية من كلمات لم أتبيّنّها. يا الله! إنها هي، سراب، دون غيرها! لم ترفع رأسها وأنا واقف عبر المنضدة أمامها، وراء الرجل البادي الصلع الذي احتلّ كرسيّاً مقابلها، غارقاً في ما يقرأ من كتاب ضخم. ومن فوق رأسه، أو بينه وبين الرأس المجاور له، انحنيت باتجاهها، وقلت بصوتٍ أعلى قليلاً من الهمس: «هللو! سراب!»

فارتفعت كل الوجوه المحيطة بها باتجاهي، بنظرة من التساؤل

وعدم الرضا، إلّا وجهها. كانت غائبة تماماً في ما تكتب. فاضطرت
إلى أن أمسح للآخرين: «العفو! المذرة!» ثم كرّرت، باتجاه الفتاة:
«سرّاب!»

نخزتها المرأة الجالسة بجانبها، لتلفت نظرها إليّ بإشارة من
إصبعها، رفعت عينيها المؤطّرتين بالنظارة السوداء الخواف، ولحظتُ
في الحال سوادهما وطول أهدابها، وقالت بالفرنسية، وهي تنظر
مندهشة في عينيّ: «وي، مسيو؟»

فقلت بالعربية: «سرّاب... ألسنت أنت سرّاب عفّان؟»

نظرتُ إلى اليمين وإلى اليسار نظرات الاعتذار لتعكيري جوّ
الصمت بسببها، ثم سدّدت نظرتي إليّ وأجابت بالعربية: «أنا سرّاب
عفّان؟ لا، آسفة. أنت واهم.»

وعادت بعينيها إلى أوراقها وكأنها قد حسمت الموقف، فلا حاجة
إلى المزيد من الكلام.

وقفت مكاني كالأبله. أحقّاً أنا واهم إلى ذلك الحدّ؟ ولكنني كنت
واثقاً من أنها هي، سرّاب. صوتها، نبرتها، كل ما يشعّ عنها، يؤكّد
أنها هي. لم تكن الفترة التي مرّت على آخر مرّة رأيتها فيها تُحسب من
الزمن في شيء إزاء الصورة التي بقيت وثابة في ذهني، كأن كل يوم
يحيي يجلو عنها غبار اليوم السابق. صحيح أنني لم أراها يوماً تلبس
نظارة طبّيّة. ولكن ليس بالمستغرب أنها احتاجت إليها بسبب
دراستها. بل إن النظارة أضافت إلى روعتها، إذ خيل إليّ في الثواني
القليلة التي رفعت فيها عينيها إليّ، أن النظارة زادتتها، حوراً، وألقاً،
وفتنة.

وقفت مكاني، وقد أسقط في يدي. ولكنني بقيت أتأمل فيها،
راجياً أن تعود فتنظر إليّ مرةً أخرى. وإذا هي ترفع وجهها وتنظر إليّ
مستغربةً جودي أمامها، ثم تأتي بحركة من يديا وشفتيها وحاجبيها
كأنها تقول: ماذا أفعل؟ أنا لست من تطلب.

إنها كولومبين البارحة، كولومبين بدون أريكان. وما كان لي عندها
إلا أن أتحرّك.

سرت إلى ممرٍ آخر بين المناضد، مبتعداً عنها، ومتّجهاً نحو رفوف
الكتب. وقبل أن أبلغ الرفوف التي في الطرف الأقصى، شعرت
بدافع قوي يستدير بي. فوجدت أن الفتاة قد نهضت، وهي تسير
نحوي، حاملةً أوراقها وحقيبتها ومعطفها القصير. إنها قادمة إليّ، ما
من شكّ... ما أجمل انسيابها حين تمشي! أيقنت الآن، وجزمت،
وأقسمت، أنها هي، سراب عفّان. لأن ليس في الدنيا غيرها من
يسير بمثل هذه الخطوات التي هي وسط بين الرقص والطيران، بين
تهادي الظبية وتساقط الشلال. وكان طولها الفسارع يزيد من هذا
الانطباع، وشعرها الفوضوي المسترسل يؤكد عليه. وقلت لنفسي:
لقد جاءت لتخبرني بأنها فعلاً سراب، ولكنها لسبب ما غيرت
اسمها، وألقت بماضيها عنها، وما عادت تلك الفتاة التي عرفتني
وعرفتها. وتذكّرت «لعبة الخيال والواقع» التي حدّثتني كيف أنها
ابتكرتها ولعبتها مع نفسها في كتابة مذكراتها أياماً متوالية، وغدت
بارعة في الخلط بين الحقيقة والوهم، وإحلال الواحد مكان الآخر،
إلى أن تحمي في الوعي تخوم الواحد في تخوم الآخر.

وقفت مكاني أبتم لها، وهي قادمة نحوي تنظر إليّ، ولكن دون أن

يبدو على قسماتها أيّ ابتسام، أو أي تعبير عن معرفتها لي، كأنها نسيّتي في الحال. وتذكّرت نظراتها تلك التي كان من دأبها أن تنظرها إلى العالم، إذ كنت أنتظر مجيئها الموعود في منعطف جيّن، وأنا جالس خلف مقود سيارتي، فتنزل من سيارة الأجرة التي أقلتّها، وتعبر الشارع نحوي وفي عينيها فراغ عجيب إزاء العابرين والأناس الذين حولها، إلى أن تدنو من السيارة، وتنحرف نحو الباب الأخر الذي أكون من الداخل قد فتحتّه لها، وتدخل لتستقرّ على المقعد بجاني، وتحوّل مباشرةً إلى لعب ضاحكة تحييني، وتعطيني شفيتها، وتعبث بشعري، ريشاً أشغل المحرّك، ونطلق بصخب لذيذ.

غير أنها هذه المرّة، عندما كادت تدركني، انعطفت متباعدة بين المناضد المكتظة بالدارسين باتجاه الباب، دون أن تلقي عليّ نظرة أخرى. فأسرعت في إثرها. إنها هي، سراب، مهما تجاهلّتي. والتقينا عند طاولة أمين المكتبة، حيث فتحت له حقيبتها المصنوعة من الجيّنز، وأغلقتها، وانتبهت إلى أنها تحمل في زاوية طرفها الأعلى حرفاً كبيراً بالأسود، هو S. فزاد يقيني. ولما خرجت، خرجتُ معها. وقلت، مرّة أخرى: «سراب!»

ضحكت هذه المرّة، وبدأ لي أنها توقّعت أن ألحق بها، لأنها أجابت دونما غيظ أو تأفّف، وبالعربية: «يظهر أنك مصرّ على أنني سراب. لا بأس. أذكرك اسمي الحقيقي؟»
- لا، أرجوك. أنت سراب عفّان، مهما يكن الاسم الذي تحمليه. وهذه الـ S على حقيقتك تصرّح بذلك.
- طيّب. أنا سراب. وأنت، من تكون؟

وقفنا بين جمعٍ من الطلبة في البهو الموصل إلى الدرج، يتبادلون الأحاديث، ويدخنون. وأخرجت سراب - وهل لي أن أسميها بغير اسمها هذا، مهما غالت في إنكاره؟ - علبة السكاير من حقيبتها فأخذت منها سيكارة بادرت أنا إلى إشعالها بمقدحتي، دون أن أجيب عن سؤالها.

نفثت الدخان، وقالت: «لم تذكر لي اسمك بعد.»
- أنت تعرفينه. تعرفينه جيداً.

ضحكت مرةً أخرى، وقالت: «كما تشاء. افرض أنني سراب. ماذا كنت تريد أن تقول لي، لو كنت أنا هي؟»

- أشياء كثيرة، كثيرة جداً. اسمعي، لنخرج من هنا، هه؟

ولمستُ ذراعها، دافعاً إياها برفق نحو الدرج، فلم تمنع، بل ناولتني حقيبتها وأوراقها، لكي تتمكن من ارتداء معطفها، وأخرجت من جيبي منديلاً كبيراً نشرته على شعرها وعقدته تحت ذقنها. ثم استعادت مني أغراضها، ونزلنا الدرج. وخرجنا إلى ساحة «البانتيون»، وقد زادت ثقتي من أنها هي الفتاة التي أعرف. فحتى طريقتها في الالتصاق بخفّة بجاني - إذ أمسك بذراعها بحيث يكاد يلامس وجهي شعرها - طريقتها هي، دون غيرها. وخيل إليّ أنني تبينت حتى عطرها الخافت الناعم - إنه هو هو، حتى في باريس، ربّة العطور.

وملكني شعور جارف بأنني فعلاً أريد أن أقول لها أشياء كثيرة جداً، أشياء شغلّنتني أشهراً، بل أعواماً، قبل أن أعرفها وفي اثناء

معرفتي لها، وبعد سفرها. وقد أحسست في تلك اللحظات أنها عادت إليّ - أو، الأصحّ، أنني عدت إليها، بل اكتشفتها - لكي يتاح لي أن أفرغ بعضاً من تلك التراكمات التي لم أجد، طوال تلك الأشهر العقيمة، من أحدثه عنها على النحو الذي أريد.

بدأت الحديث معها في ربيع علقته به بقايا الشتاء والمطر، ثم تصاعد بنا في أيام تموزية لاهية - وهل أنسى الأوراق التي كانت تكتبها في اليوم السابق وتأتي إليّ بها لتقرأها لي في مشرب «الهوليداي»، حيث تلجأ إلى ركن فيه بعيداً عن أعين الناس الذين يعرفوننا، إلى أن جاءني يوماً بتلك الورقات الأربع التي أخذت تقرأها بصوت يعلو همس قليلاً، بصوت فيه بحة الحزن وبحة الشهوة، بحة اليأس وبحة نشوة يتهددها نوع غريب من موت متربص مجهول. «جشك فرساً بربرية موشومة...» قرأت. وكان شعرها الفاحم الطويل يسقط من الناحية الأخرى على أسطرها، كستارة مسدلة بين وجهينا وبين العالم، لا نرى الآخرين ولا يروننا، ولا يعلمون أيّ حبّ، أيّ عشق، أيّ عذاب، نحن كلانا في قبضته، حتى لكان كل ما حولنا ليس إلّا وهماً، وكأننا إذا رأينا أحداً فإنما نحن نهلوس، لأن الحقيقة لم تكن إلّا وجهها وشعرها وشفتيها، وصوتها يجسّد أسطرها المتسارعة كفرس جمحت نحو هاوية لن تجد معنى أو لذة لحياتها إلّا في سقوطها فيها وتحطّمها على صخورها. وتحذّث، من خلال أسطرها، عن أسوار اقتحمتها، عن ظلمات تعثّرت وكبت فيها، عن جمرات مشت عليها، عن صرخات ملأت أذنيها ورجّعت الوديان أصداها... .

يومئذ انطلقت، وعيناها السوداءوان طافحتان بالدمع، في حديث معها لم أتحدث بمثله قط من قبل، ولم يُتَح لي إلا أقلّ الوقت، أقلّ الأيام بعد ذلك، للاستمرار به، وبقي معظمه حبيساً في صدري لا أستطيع أن أطلقه إلا بحضورها، باتجاهها. فالدنيا على اتساعها لم يبق فيها من يستحق أن أسمعه ما أريد قوله إلاها هي. لا لأنه متمحور فيها وحولها - والكثير منه كان كذلك - بل لأنه لغير أذنيها كلام مهذور، غير مفهوم، وأتمن من أن تحمله الريح على متنها هباءً في الفضاء.

وفي تلك الليلة، جاءني ذلك كله، كحمم استكانت في البركان دهرًا، وأدركتها الآن لحظة الانفجار. ولم يهمني نكرانها أنها سراب عَفَان، لأنني لم أشك ثانية واحدة في أنها هي فرسي الموشومة، فرسي التي كادت الهاوية أن تمزّق أوصالها، ولكنها خرجت كاملة الجسد، رائعة الوجه والأعضاء، ولو في بلد آخر، في مدينة لم تكن في الحسبان.

وإذا هي، والثلج يتساقط علينا، تقول: «أنا سلوى. سلوى علي عبد الرحمن، كما لاحظت من هذه الS التي على حقيتي. أنت تزعم أنني سراب التي عرفتها منذ زمان، في مدينة أخرى. وأنا التي تراها أنت لأول مرة، وهنا في هذه المدينة الغريبة. سلوى التي ولدت في مخيم للاجئين الفلسطينيين في أريحا. في مخيم عقبة جبر. وحتى ذلك المخيم البائس استكثروه علينا فيها بعد. وأجبرونا في عام ٦٧ على النزوح منه، وأنا طفلة، إلى أماكن مختلفة من الجحيم. وكان نصيبنا أولاً مخيماً في الزرقا. ومنه هاجرنا إلى عين الحلوة في لبنان. أنا كبرت

في المخيم. وتعلّمت في المخيم. واختارني منظمة التحرير للدراسة في بيروت ثم في أمريكا. وعدت أحمل شهادة الـ بي. آ. من جامعة سيراكيوز، ورفضت الزواج هناك، لأنني أردت العودة إلى عمان، إلى أقرب مكان ممكن من فلسطين. ولم أشاهد مدينتك حتى اليوم. وها أنا في باريس، للمزيد من الدراسة. أتريد أن تعرف كيف جئت إلى باريس؟»

كانت لهجتها حقاً فلسطينية، وقد لاحظت منذ البداية أنها لا تتحدّث إلا بها، فحسبت أن الأمر دعاية، أو دلع، منها بعد غيابها الطويل واختلاطها بالفلسطينيين. ومع ذلك فإنني اشتبهت في أن لهجتها لم تكن فلسطينية خالصة، لأنني لم أشأ التزحزح عن ثقتي بأنها المرأة التي أعرف. ولم أدع المسألة تقلقني. إذا كانت تريد أن تلعب لعبة هي مصرة عليها، لسبب ما، لقضية ما، أو حتى لشذوذ ما، فلتلعبها. وأنا أريد أن أقول لها أشياء كثيرة، ولا بدّ من قضاء الليل بطوله معاً، إن أنا استطعت إقناعها بذلك.

وعندما ساورني الشك، للحظة متناهية في القصر، في أنها قد تكون فعلاً سلوى التي تدّعي، قلت لنفسي: إذا اقتنعتُ بالبقاء معي، فهي سراب. بل هي سراب، اقتنعت أم لم تفتنع. ولا بدّ أنها ستفتنع. في أشهرنا القليلة التي كانت لقاءاتنا فيها هي الشيء الوحيد الذي نحيا من أجله، كانت أمينتنا أن نقضي ليلة واحدة معاً حتى الصبح ونحن نتكلّم، ولم تتحقّق الأمنية. وها هي باريس، باريس الغرباء، لتجعل ذلك المستحيل ممكناً، ولو مرّة واحدة.

كان ندف الثلج ما يزال في همّي رخي، ومن خلاله انجھنا أولاً،

دون وعي مني على الأقل، نحو «البانتيون»، ودرنا حوله، والأنوار المتباعدة مع فجوات الظلام تضيف إلى إحساسي بأنني سائر مع سراب في حلم. ولكن كان لي من حضور الذهن ما يكفي لاقتيادها عودة إلى الشارع المنحدر الذي جثت منه، وأنا أقول لها: «عندما نجلس في مكان قريب، سأثبت لك أنني لست واهماً فيك. أرجوك، لا ترفضني.»

- طيب، أين نذهب؟ ولو أنني أعشق هذا الثلج الناعم الذي لا يشبه الحقيقة في شيء. لأنه يذوب بسرعة، وكأنه لم يكن.
- سنمشي حتى تَبْيَضَ منه أكتافنا. وعندها سنقترب من فندقتي، ويجواره مطعم إيطالي بات صاحبه يعرفني، ونتعشى فيه. ما رأيك؟
- على ألا أتأخر كثيراً. فصديقتي، شريكتي في الشقة، بانتظاري.

- لا، سراب، انسيها. سأذكرك بقصائدك، وعندها ستنسِين كل شيء، حتى صديقتك.
- قصائدي؟ هاها! جعلتني شاعرة أيضاً! فلنرَ الآن: أنا لست الفلسطينية سلوى علي عبد الرحمن، بل أنا سراب، سراب ماذا؟ سراب حسان؟

فصَحَّحتها بكل جدٍ: «سراب عفان.»
- نعم. أنا إذن سراب عفان، وأنا شاعرة كذلك. وأنت لست غريباً. واسمك لن تذكره لي، لأنني طبعاً أعرفه جيداً. قل لي، هل كنت تحب سرابك هذه؟
- امزحي على هواك، يا هاربة، يا فرساً جامحة...

عندها توقفت عن السير، وأوقفتني. وواجهتني في الظلمة المتهافئة مع الثلج، وتأملت في وجهي، لأول مرة بإمعان. أف! إنها هي! وهذه طريقتها في التأكد من أي شيء. ولكنها قالت ببطء: «لماذا أنك مصاب بلوثة، ولماذا أنك تفتعل هذا الموضوع كله لتبقيني معك ولست أدري لماذا طاوعتك حتى الآن.»

أسكتت بكلتا ذراعيها، نافضاً عن رديها قطينات ثلج ناعمة، وقلت: «لأنك تعرفين، مهما أنكرت، أنك سراب، والبقية فصل تمثيلي تعابشتني به.»

فانفجرت ضاحكة، وهي تهز رأسها المشدود بالمنديل الحريري، وتدفع يدي عن ذراعيها: «طيب، طيب. أين مطعمك الإيطالي؟»
- قريب جداً. شمرة عصا.
- ولكنني أريد مكاناً أبعد.
- سنمشي إلى أن تتعبني... سراب -
- بل سلوى، أرجوك.

أوقفتها أنا هذه المرة، وواجهتها، وقلت محذراً في عينيها: «رجاء، انزعي عنك نظارتك.»

وبحركة رشيقة أسكتت نظارتها بين أصبعها، وأنزلتها، قائلة: «ولكن لن ترى مني كثيراً في هذا الضوء الخافت.»

وانفجر جنوني في تلك اللحظة، جنون أشهر طويلة من الانتظار والحيرة واللوثة، وأخذتها بين ذراعي بقوة عاصفة قبل أن تستطيع أية

مقاومة، وقبّلتها على شفتيها. سراب! هل أستطيع أن أنسى هاتين الشفتين؟

لم تقاوم، غير أنها أبعدتني بشيء من غضب لم يقنعني، وقالت: «بأي حق، بأي حق تفعل ذلك؟» وأعادت نظارتها على عينيها.
- بدون أي حق، سوى...
- طيب، طيب.

وجرّتني من ذراعي، مستعجلة خطواتنا في الشارع النازل إلى «روديزيكول».

وخشيت من أنها ستتركني هناك. غير أنها رغم صمتها النسبي إزاء كلامي، إزاء هذيان المستمر، بقيت تصغي إليّ، ملتصقة بي، والثلج يتساقط مداعباً وجهينا، إلى أن بلغنا المطعم الصغير، حيث استقبلنا صاحبه، وأجلسنا إلى مائدة قريبة من لبّ الفرن المفتوح الذي تُطهى فيه أطباق البيترزا.

وبعد أن نزعت سراب معطفها، ووضعت على كرسي مقابل مع أغراضها الأخرى، نزعت نظارتها، وقالت وهي تقدّم لي وجهها مازحة: «والآن، انظر ملياً. هل أنا سراب؟»

فهتفت بصوت عالٍ (خفضته بسرعة حين انتبهت إلى نفسي):
«الله! لا يمكن أن تكوني إلّا سراب!»

وهزّت رأسها، بعد أن حلّت عنه المنديل المبلّل، لتطلق شعرها وترسله على طوله حول وجهها وكتفيها، وقالت: «ولكن كلامي، لهجتي، فلسطينيتي...»

- فلتكوني فلسطينية، فلتكوني صخرةً من القدس، ولتكوني زيتونة من نابلس، ولكنك تبقيين أنت سراب عَفَان. أفهمت؟»

وجاء النادل، وطلبنا بيتزا وزجاجة نبيذ أحمر. ولم يضيّع وقتاً في إحضار النبيذ.

وعندها قالت: «لماذا لا نغيّر الموضوع، أرجوك؟ هل أحدثك عن دراستي؟ ولكن، أولاً، حدّثني عن عملك. قل ما شئت. وستجد سلوى علي عبدالرحمن كلها آذاناً صاغية.»

صبت النبيذ في الكأسين، وعادت إلى كلمات تلك القصيدة التي زعزعتني بها ذات يوم قبل قرابة ثلاث سنوات، فلم يكن مني إلا أن نظرتُ في عينيها الواسعتين، وردّدتُ كلماتها: «جئتُك فرساً بربرية موشومة بالطبيعة / وخطاي نحوك قدّر رسمته عرّافة بابلية... / أيّ زمنٍ طرقتُ معك؟ أيّ بحرٍ دخلتُ؟...»

ورأيت عينيها تمتلئان بالدمع، وإذا هي ترفع كفيها أمام وجهها ووجهي، وتهمس بآلم: «أرجوك، كفى، كفى...» واختنقت بنשיجها.

وسكتُ.

وتناولت كأسِي وقلت: «لنشرب نخب... نخب ثلج باريس.»
وتحدّثنا عن كل شيء، إلا ما نحن فيه.

عندما فرغنا من العشاء، سألتني: «إلى متى أنت باقي هنا؟»

قلت: «ثلاثة أيام أو أربعة. أنعطيني رقم تلفونك؟»
قالت: «خذ. سجّله عندك.»

أعطيتها بطاقة فندقتي، وهي تحمل عنوانه ورقم هاتفه، وسجّلت في دفترتي الصغير الرقم الذي أملكته عليّ، وقالت إنها تشترك فيه مع رفيقة لها في الشقة، وهو أيضاً رقم عائلة مغربية أجرتها تلك الشقة في شارع قريب من «غار دي نورد» (محطة الشمال).

وتحيرات وسألتها: «ألا تبقين معي هذه الليلة؟»

لم تُدهش للسؤال، غير أنها أجابت، وكان إشكالية سراب/
سلوى قد حُلّت لصالحها: «لا، لا. مستحيل. كيف؟ ولكن اتصل
بي غداً صباحاً. هلاً رافقتني إلى المترو؟»
- أرافق سلوى، أم سراب؟
- أيهما شئت!

كنت بائساً. تصوّرتني أتعامل مع امرأة فقدت ذاكرتها، أو
انقصت شخصيتها. إنها تعذّبني على نحو لا أفهمه. ولم تُبق لي ما
أقوله.

توجّهنا نحو محطة المترو القريبة، في بولفار سان جرمان. ونزلت
معها في نفق المترو حتى بوابات الدخول إلى الرصيف، وهناك عانقتها
وقبّلتها بجنوني القديم، وكلّي إحساس الآن بأنني إنما أعانق وهماً
استبدّ بي، ليزيد من عذابي حتى عند استسلامه لبرهتين.

وانسلت من بين ذراعيّ، وتراجعت عني، ومسرقت من خلال
الباب الآلي، وبقيت أتابعها وهي تبتعد في تلك المشية التي هي مزيج

من تهادي الظبية وتساقط الشلال. واستدارت أخيراً لتلوح لي
بذراعتها مع ابتسامة تقطع لها قلبي ألف قطعة، من الفرح لأنني
وجدتها ومن البؤس لأنني لم أجدها.

وترامى لي، من ذلك البعد، أنها تبكي.

عدت إلى غرفتي في الفندق، ولست أدري كيف عدت. حاولت
أن أتابع برنامجاً تلفزيونياً، عبثاً. حاولت القراءة، فلم أستطع.
وقررت، بعد انقضاء مدة حسبتها كافية لوصولها إلى شقتها، أن
أخبرها هاتفياً، والساعة تقارب منتصف الليل.

عندما أدت الهاتف بالرقم الذي أعطتني، أجبني صوت رجل
بالفرنسية، فقلت بالعربية، وأنا مطمئن إلى أن أصحاب الدر عرب
مغاربة: «من فضلك، أعطني الأنسة سر... سلوى علي
عبدالرحمن.»

وإذا هو يقول: «سلوى؟ سلوى تركتنا منذ شهرين، أو أكثر.»

قلت لنفسي، فلأجرب الآن المستحيل، وسألته: «الأنسة سراب،
هل هي موجودة؟»

ودونما أي دهشة، أجاب: «سراب أيضاً تركتنا معها.»

فأكدت عليه: «سراب عفان؟»

قال: «نعم، سراب عفان.»

قلت: «ألم تترك لديكم رقم تلفونها الجديد؟»

قال: «لا والله. آسف جداً. والحقيقة، نحن نأسفنا كثيراً لفراق
السيدات. نعتقد أنها الآن تسكنان في الحيّ السلاتيني، في مكان

قريب من السوربون، لأن سراب تدرس هناك للدكتوراه.»
أفهم أنها تدرس في السوربون. ولكن لماذا، لماذا بحق السماء
تتحل شخصية صديقتها؟ وسألته بلجاجة: «هل أنت متأكد من أن
سراب هي التي تدرس -»

قاطعني بحزم: «طبعاً متأكد. لأن السيدة الفلسطينية سلوى
انتهت من دراستها في العام الماضي، وأقمنا على شرفها حفلة عندنا.
ولكن بعد أن تزوجت سراب -»

- تقصد سلوى؟
- لا، يا سيدي. سراب هي التي تزوجت. فبعد أن تزوجت من
أخي سلوى...

صُغت، ولم أفهم الكلام الذي استمر يثرثر به. ولم أقوَ على حمل
سماعة التلفون لارتجاف يدي، بل لارتجاف جسمي كله، وقاطعت
معدني بشيء من الحشونة: «شكراً، شكراً... آسف لإزعاجكم في
هذه الساعة المتأخرة...»

وقبل أن تسقط السماعة من يدي، أضفت، وأنا أحاول ضبط
الاضطراب في حنجرتي: «إذا اتصلت بكم مدام سراب، في يوم ما،
فأخبرها أنني تلفت لأسأل عنها...»

- واسمك، من فضلك؟

- هي تعرفه جيداً.

وأقفلت الخط.

وبدت جدران الغرفة كأنها تطبق عليّ وتريد الانهيار على رأسي.

فلبست معطفي ولغافي من جديد، وانطلقت خارجاً، ونزلت إلى دهة الفندق، وسلمت مفتاحي للخفير المسؤول الذي قال، على سبيل المجاملة: «الليلة باردة، باردة جداً، سيدي.»

وخرجت أسير، والثلج الخفيف ما يزال يتساقط، ووجدتني أسير نحو نهر السين. وعبرت الجسر إلى الضفة الأخرى، إلى شاطئيه ولي هال، لعل ضجيجهما المستمر حتى الفجر يفرق الأصوات المزوية في رأسي، والليل والرجال والنساء تتناثر كلها مِرْقاً حولي، مِرْقاً إلى ما لا نهاية.

عدت إلى الفندق مرهقاً في حوالي الخامسة صباحاً، وسلمني مسؤول الاستقبال مفتاح غرفتي مع رسالتين، قائلاً: «سيّدة خابرتك مرتين، ولم تذكر اسمها.»

وقرأت في الرسالة الأولى: «مكالمة تلفونية في الساعة الثانية والرّبع صباحاً»، وفي الرسالة الأخرى: «مكالمة تلفونية في الساعة الثالثة وخمس دقائق صباحاً.»

لم أعر الأمر اهتماماً، رغم غرابية الوقت الذي اختارته السيّدة المجهولة لمكالمتيها، لشدة تعبّي. وأنا أصلاً لم أكن في حالة نفسية لأية مكالمة، سيّدة كانت صاحبها أم غير سيّدة. وعندما نزع ثيابي، واندسست في فراشي، تمنّيت لو أغرق في نوم عميق لا أفيق منه إلا بعد خمسين سنة.

وتأفّفت جداً عندما دقّ جرس التلفون قرب رأسي بإلحاح مقيت،

وكأنني لم أنم إلا خمس دقائق. غير أن ضوء النهار كان يدفع من جانبي الستارة التي لم أحكم إغلاقها، ولححت من ساعتني أنها حوالي الساعة العاشرة. تناولت الساعة بيد واهنة، وقلت بصوت بدا لي غليظاً لا يشبه صوتي: «هلو، نعم؟»

- أوه، أنت في غرفتك، أخيراً!

لدغني الصوت لدغة أفعى، وفززت من فراشي، غير مصدق أن صاحبة الصوت هي من حسبت. وسألت بحذر: «من يتكلم؟»

- ومن هي التي تريد سماع صوتها في أول النهار؟

- الله!

- سأغضب، يا نائل! هل كانت ستتان ونصف السنة كافية لتسيك صوتي؟ كنت أتصور أن ثلاثين سنة لن تكون كافية.

- بل ثلاثين مرة ثلاثين سنة! ما الذي فعلت بي البارحة؟

- خابرتك مرتين بعد منتصف الليل، ولم أجذك. هل رحت

تطلب المتعة في ملاهي باريس؟

- وأيّ متعة، لو تدرين!

- أنا لم يغمض لي جفن طوال الليل.

- تستأهلين! اسمعي، يجب أن أراك اليوم. ولو لساعة. يجب.

لماذا ضللتني، وأعطيتني رقم التلفون الذي لا يفيدني في شيء؟

- لم يفدك في شيء؟

- طيب. فهمنا. أنت الآن متزوجة. ولكن، متزوجة أو غير

متزوجة، يجب أن أراك اليوم. لم تبق لي أيام كثيرة هنا. هل آتي

لزيارتك؟

- بعد ساعة، سأكون معك... عندي عنوان الفندق في البطاقة التي أخذتها منك.

- لكي نشرب قهوتنا الأخيرة معاً؟

- نائل، أرجوك، لا تظلمني...

وخيل إليّ في الصمت القصير اللاحق أنني سمعت ما يشبه النشيج على الخط، قبل أن ينغلق.

أسرعت في النهوض، والحلاقة، وأخذت دوشاً حاراً أيقظني تماماً وأزال بعض كآبتي. وما كدت أفرغ من تناول القهوة و«الكرواسانت» في قاعة الطعام حتى كانت سراب قد وصلت.

كان النهار بارداً، ولكن مشرقاً، عندما خرجنا إلى درجات مدخل الفندق، وابتعدت قليلاً، كالرّسام يتأمل لوحته، لأحتوي في ضوء النهار، وبمنظرة واحدة، سراب بأجمعها، بكامل قوامها وحضورها، بوجهها المورّد بالبرد كشفتيها الورديتين (نادراً ما كانت تضع الروج على شفتيها، لعلها بأنني أحب احمرارهما الطبيعي الشبيه باحمرار ورقتي وردة اقتطفت للتوّ في صباح نديّ)، وفرعها المرسل بشيء من الفوضى المصطنعة، ومعطفها الأزرق المفتوح بلا أزرار على كنزتها الصوفية السوداء المرفوعة الياقة حول عنقها، والمبرزة استدارة نهديها، وتوّرتها البنفسجية الداكنة فضفاضة حول ركبتها، و«بوتنيها» الأسود الذي يتخطى أعلاه الكاحلين قليلاً، ويكشف عن الصوف الأبيض في داخله، ويوحى بالمزيد من ارتفاع قوامها وتوازنه القلق، الجميل. وقد علّقت على كتفها حقيبة محكمة من جبال صوفية سوداء.

قالت مستضحكة قولتها التي كثيراً ما رددتها فيها مضى : «ماذا؟ ألم
ترني من قبل؟»

وكالعادة أجبت : «كل مرة أراك فيها، هي المرة الأولى.» وأخذت
ذراعها، واندفعنا إلى الشارع، وأنا أقول : «كل من يرانا سيظن أنني
اصطحب نجمة سينمائية مشهورة لا فداثية مهيأة لمعانقة الموت
من أجل أمتها.»

قالت : «يجب أن تراني في الأيام العادية، لتغير رأيك. كما أن
التنكر ضروري في كل ساعة، وفي كل شكل ممكن.»
- لقد أقنعتني وأنا راضٍ، ما دمت أنت أنت، جميلة و...
- ومجنونة؟

- ومجننة، وهو الأهم!

وعدت مرة أخرى إلى سؤالني : «ما الذي فعلت بي البارحة؟»
- حاولت ما كنت أشك في أنني سأنجح فيه. ولم أنجح. وكيف
لي أن أنجح، وأنت أمامي؟
- أردت التخلص مني؟

- كجزء من خطة قديمة... في المكتبة كنت قد جمعت أوراقني
وتحرّكت للخروج، عندما رأيتك بغتة تتحدّث إلى أمين المكتبة.
وكنت طوال هذه الأشهر، بعد أن عانيت ما عانيت، أقول إنني إذا
رأيتك دون سابق إنذار فسأصعق وأنهار، وأفقد إرادتي، ولذا عليّ أن
أتماسك وأهرب، بشكل ما. وكان لي من حضور الذهن في تلك
اللحظة ما يكفي لأن أبحث عن كرسي يتيح لي أن أدبر ظهري
إليك، والمكان مزدحم بمن فيه، فتنتهي المسألة. ووجدت بقربي

الكرسي المطلوب، وجلست عليه فوراً، ونشرت أوراقى أمامي،
مؤملة أن تجلس في مكان آخر، مكان بعيد، دون أن تراني.
وكيف ستعرفني بمجرد أن تراني من الخلف، امرأة بين أكثر من مئة
امرأة.

- وفي مكان أتوقع أن أرى العالم كله فيه، إلا سراب. ولكنك
أسأت التقدير. ألا تعرفين أنك لو كنت في الطابق العاشر من ذلك
المبنى لاجتذبتني صعوداً إليه دون إرادة مني؟ ما الذي دفعني إلى
دخول المكتبة أصلاً، وأنا ما كنت أتصور أنك في باريس؟ وتمثيلك
أيضاً لم ينجح - ولو أنه كاد ينجح، لأنك جعلتني لأكثر من برهتين
أشك في أنني فعلاً أتعرض لامرأة غريبة، وبإصرار معيب.

- لم أنجح، لأنني خشيت فجأة أن تعتذرو وتركني. ضعفت
أمامك، وفاجأتني الرغبة في أن ألقى بنفسي على صدرك. وفي تلك
اللحظة، رضيت بالفشل، لأنه معك الآن، وأصدق.

- على طريقتك، بالطبع. وماذا ستقول الآن صديقتك رنده
الجوزي عن تخليك عن العقل والأصول مرة أخرى؟

- رنده؟ سأروي لها كل شيء. متى تحدثت إليها آخر مرة؟

- قبل رحيلك بثلاثة أيام أو أربعة. لم تخبرني بعد رحيلك، ولو
مرة واحدة، الحاتنة.

ضحكت سراب: «لأنها هي أيضاً جاءت إلى باريس، ودفعته إلى
ما أنا فيه.»

- دفعته؟

- أعني إلى الزواج. أو، لكي أكون أكثر دقة، إلى عدم الزواج.

- عدنا إلى الالغاز؟

- ألا تعلم، أيها الكاتب الكبير، يا صاحب المرايا، أن الحياة كلها سلسلة من الأناز؟

كنا قد بائنا قدام صغيراً فيه طاولتان قرب النافذة، فدخلنا لثلاثين بلحظة. وكان دائماً جليداً، بحيث، عندما جلست سراب، راحت تخلع من البرق الأزرق عن كتفها وتني جالسة، كما كانت تفعل غيادني، وأنا أرتب حركاتها: شربها وهو ينسدل مرة أخرى على ظهرها وحول وبيضاء كشفاها وتسا ينحدران إلى ذراعين أشتبي احترامهما، وفيلسوا وهما بحركاتها يترنجان قليلاً وراء الكنزة الضيقة، ثم يستتران على ما يشبه تحدياً لي أنا المتأمل الآن على امرأة متزوجة، رياء ثم يديها وهما تسترخيان على المائدة الصغيرة في انتظار السيكرة التي سأقدمها لهما. وما كادت تنفث الدخان من شفتين حافظتين، وأنا ما أزال أتابع كل إيماء وكل نأمة منها، حتى ضحكك، (وقلت لنفسني في لحظة من الدهشة: حسبت أنها ستبكي، ولكنها تنضحك!)، وتغننت في بريق أسنانها، وهي تقول بمكرها الذي يفرضني بالمبالغة: «ماذا قال شكسبير عن الحياة؟ قال: ما الدنيا إلا مسرح كبير، وما الرجال والنساء إلا ممثلون... أو شيئاً من هذا القبيل. ألم يقل كذلك في مكان ما إن الحياة لغز كبير؟»

قلت: «والله، أنت أدري. أنت التي درست الفنون المسرحية..»

- ثم من قال إن مفارقة المواقف هي أن الكشف عن الحقيقة يعتمد على إخفاؤها؟

جاء النادل وطالبنا قهوة اسبريسو. وقالت سراب: «أندري ما

موضوع دراستي للدكتوراه؟ «الدراما الفرنسية وأثرها في المسرح العربي في القرن العشرين».

- رائع. ولكن، لنعد إلى لغتك الصغير، إزاء لغز الحياة الكبير.
متزوجة أم غير متزوجة؟
- أسأل رندة الجوزي!

- جاءني الخبر من ربّ العائلة المغربية التي كنت تسكنين عندها.
ألم تعطيني رقم تلفون تلك العائلة لكي توفّري على نفسك الألم في إعلامي بلسانك؟
- ولكنني غير متزوجة.

- سراب! أتزوجت، وأسرعت إلى الطلاق؟
- لا هذا ولا ذاك. كان الأمر يتعلّق ببحي أبو السعد أكثر مني.
- لا أفهم.
- يحيى أبو السعد الذي زعمنا أنه أخو سلوى رفيقتي في التنظيم وفي الإقامة عند العائلة المغربية.

- كنتم تضلّلون حتى العائلة الطيّبة التي تعيشون معها؟
- كنّا نسهّل على يحيى التحرك المطلوب، ثم تمكّينه من الحرب. أمّا الآن، فقد عاد إلى القدس، وغيرنا مكان إقامتنا أنا وسلوى، ولا حاجة إلى الاستمرار بحجة زواجي المزعوم.

- هذه تعقيدات لا أفهمها. لعلّها من ضرورات النضال في بلد غريب. المهمّ: أكّدي لي، هل أنت فعلاً -
- نائل! ألا تصدّقي؟

- ألسنت مستمرة في لعبتك الغامضة حتى معي؟ ألسنت مستمرة في تضليلي؟

زمت شفتيها، وقطبت حاجبيها، وهي تنظر في عيني، مازحة، جادة، مستمرة معي إلى ما لانهية بمكرها اللذيذ، المغيظ، وأنا في انتظار جوابها. ثم قالت: «أنا أضللك؟ قد أضللك قليلاً، لأن لا بد لي من ذلك، ربما لكي أبقى على حبك لي. ربما لأنني أريدك دائماً أن تبحث عني، أو أن تبحث عن أمر له صلة بي، مهما كنت في شك، فأبقى ماثلة دوماً في بالك. هل أنا أنانية؟ لو قلت لك مثلاً إن رندة الجوزي هي اختلاق محض، هل ستغضب علي؟ لا تغضب هه؟ أنا رندة الجوزي، بقدر ما أنا سراب عَفَان. أترى كيف كنت أضللك، فأحبك بذلك مرتين، مرة كسراب، ومرة كرندة. مرة كعاشقة، ومرة كمتطفلة. ألم تُشك في لحظة ما أياماً أن رندة، كلماً اتصلت بك تلفونياً، قد تكون أنا؟»

وعندها أمسكت بكلتا يديها، وجعلت، على مرأى من الجالسين في المقهى والسابلة في الشارع، أقبلهما كالمعتوه، أقبل أصابعها، أقبل راحتيها، وظاهر يديها. وانفجرت بي شهوة لعناقها وهصرها على صدري، وهي تضحك، وتضحك، وتقول: «ناثل، كفى، كفى، نحن في مكان عام...»

وأحسست أن سراب عادت أخيراً إليّ، عادت بجسدها، بروحها، بتناقضاتها، عادت إلى الرجل الوحيد الذي يفهمها حتى النخاع، وفي الوقت نفسه لا يفهمها، ويعشقها للسبين الاتنين معاً وما تلا ذلك من حديث، وجدل، وسؤال، وجواب، وحركة، كان

بعضاً من دوران الدرويش السذي كنت أنطلق فيه راقصاً مع سراب، مع ملمسها، وصوتها، وعطرها. وأتجهنا نحو مطعم يوناني صغير في أحد الأزقة المتفرعة عن بولفار سان ميشيل، وفي ركن معتم منه كان اللحم المشويّ والبيذ الأحمر ونحن متقابلان على المائدة غداءنا في الجنة. وذكرت لها الطيب الهادي، وتأملاتنا في الجنة الأولى والجنة الآخرة (أعطيتها رقم هاتفه للاتصال به إذا اقتضى الأمر يوماً، واتصلت به هاتفياً لأعلمه أنني «وجدتها»، وأن مشروع أحاديثنا «المشائية» مؤجل إلى موعد آخر). وفاجأتها بالسؤال عن أحوالها المادية، وباريس على ذلك الغلاء الذي أدهشني بالنسبة لما خبرته فيها قبل سنوات، في أواسط الثمانينات، وطمأنتني أن والدها يعرف الآن كل شيء، وأنه رتب إرسال مبالغ منتظمة من حساب له في لندن تغطي نفقات دراستها ومعيشتها، وعلقت على ذلك: «لم أكن أدرك أن دخل أبي بهذا الحجم! لماذا لم تحاول أنت أيضاً أن تكون جراحاً كبيراً، وتتمتع بدخل كبير كدخله؟» فقلت: «أسرعي بالعودة إليّ في الوطن، لتدركي أن لا حاجة لسؤالك هذا.» فأجابت بمكرها المباطل نفسه: «بعدين، بعدين...»

ولما كررت الدعوة، قالت: «أتريدني أن أعود إلى القصر، والعمى، والأحادية اللعينة في كل شيء، بلية كل العرب؟ أنا هنا في القلب من كل شيء، وعلى طريقي. وما التزمته من نشاط هو الآن حياتي كلها، أقدسه، ولن أستطيع الحديث عنه، حماية له وحماية لنفسي، مهما يدفعني إلى التخلي حتى عن الذين أعشقهم. فإمّا أن تكون «تحت الأرض»، وإلا فأنت مكشوف ومفضوح في يومين...»

وكل ما أفعله إنما يصبّ في النهاية في الانتفاضة نفسها، في ثورة الحجارة، هذه الثورة التي أذهلت العالم. حتى ثورة سبارتاكوس لا تدانيها شجاعةً ونبلًا وتضحية. ومنذ اليوم، أينما قامت ثورة على الطغيان، ستكون ثورة الحجارة هي النموذج الذي يُحتذى في مقارعة الطغاة... أتذكر كلامنا في تلك الأيام عن الحصار اللعين، والبحث عن الخلاص؟ أتذكر الأوراق التي كنت أطلعك عليها؟ أتذكر مغامراتنا في المرايا التي أدخلتني فيها؟ إنني أكرس الحصار وأنطلق، كل يوم. وأكتب. أكتب كثيراً، ولا أضطرّ إلى إعمال التنقّص اليوم في ما كتبت البارحة، كما كنت أفعل هناك كل مرة، خوفاً من قارئ غيبي مجهول. لو تعلم كم صفحة وصفحة مرّقت من يومياتي، خوفاً من وقوعها في أيدي الآخرين، في أيدي الغيلان المترسّنين في كل زاوية وكل مدخل دار...»

«عاشقة، عاشقة هائلة أنت يا حبيبتي،» قلت بمزيج من الفخر والإعجاب، والحزن والحياة، كلها معاً. «طبعاً، أنا الخاسر الوحيد في هذا كله، لأنني مجبر على البقاء بعيداً عنك. وسأبقى أخدم عليك، كل يوم، كل لحظة. وأخشى أن تقعي في هذا البلد، عاجلة أو آجلة، ضحية حصار من نوع آخر، تكون أبعاداً مدمرة على نهمي قد لا تتوقّعينه الآن.»

- عندما أكتشف ذلك، هل سأجده في انتظاري؟

أمسكت بيدها على المائدة، وعصرت أناملها، وأجبت على طريقتها: «من يدري، من يدري؟ كل ما أرجوه هو ألا أضطرّ يوماً إلى إنفاق أموالي، وأموال الدكتور علي عفّان، على إنقاذك من مخالب

الشرطة الفرنسية، ومحاكمها. ولو أنني لن أتردد في ذلك ثانية واحدة.»

ثم قالت، دون سياق منطقي: «يومياتي، كتاباتي، نائل، لم تقرأها كلها بعد. سأطلعك عليها في يوم ما. ربما عندما أنتهي من دراستي هنا، وأنتهي من تنفيذ مهمتين أو ثلاث... ولكنها ليست للنشر، تذكر!»

سألتها: «يوميات الحب، أم اليوميات الأخرى؟»

ضحكت وأجابت: «أنظني أقل شأناً من مني عيساوي، كاهنتك الوثنية؟ وإذا وجدت أي شبه بين لغتي ولغتك بين حين وآخر، فلن يكون ذلك إلا من قبيل الصدفة!»

وفي تلك الليلة، إذ رحلت أحدثها عن هلوسات ما كان لي أن أحدث عنها لأحد سواها، لأنها بغيابها أو بحضورها هي مشيرتها وعمركتها كيفما شاءت، كان حبها يدفق عليّ بفيض من أفكارها وأحاسيسها، وهي تستدرك كل مرة بأنها إنما تحاول أن تفرغ بعضاً مما يتراكم في ذهنها عشقاً، فرحاً، موتاً - يتراكم في ذهنها، في أعماقها، عصياً على الكلمات، عصياً على الشرح: «ألا ترى ما معنى أن أحبك هكذا، وأن أكون ما أنا ومن أنا، دون أي تناقض؟»

«بين أحزاننا وخاوفنا، بين مأسينا اليومية وتوقعاتنا الفاجعة، أنا كمن يبحث عن خيط من لحن، من عزف مجهول يصالحني مع هذه الأحزان والفواجع. ولكن كيف للإنسان أن يتصالح مع الألم إلا بقهره عن طريق فعل ما؟ إنني أبحث عما يشبه تلك الموسيقى

الصاخبة بأنغامها الهائلة التي تحقّق الانقذاف إلى حيث يعلم المرء أنه يحمل عبء العالم على ظهره، ولكنه في الوقت نفسه، كما بمعجزة، يخلّو في الفضاء خفيفاً دوغماً خطة أو غاية - ولتذهب الخطط والغايات كلها إلى الجحيم . . .

«ألا ترى، نائل، أنني ما قرّرت أن أجابه الموت إلّا بماء إرادتي، وأنا في القمة من صحوي الفكري، وصحوي الجسدي؟ . . .

«آه لو أن الجسد يوجد كطاقة ذهنية صرف، كشيء لا حدود له، لا وزن له، كفكرة تتصاعد كالفقاقيع، وتتلأشى، وتعود لتتكوّن، وتتلأشى من جديد . . . لو أن الوجود يتحوّل إلى حركة كحركة غيمة تتدافعها رياح عالية، إلى أن تتكاثف مطراً ثم تنحلّ، ثم تعود لتتكاثف وتنفى مطراً مرة أخرى . . . ويظلّ البقاء والفناء متلازمين، متداخلين، على نحو ما . . .»

تتوقف، ولسانها برطب شفيتها ويتحسّس الطراوة فيهما، ثم تتساءل وعيناها تائهتان: «والبقاء، ما الذي يعنيه؟ نائل، البقاء حسّاً ولذةً، كما في هذه الساعة، والبقاء وجعاً ومواجهةً للموت، للقتل، كما في كل ساعة . . . البقاء في إعصار من أوهم مدوّم في قلب اللحظة الأنيّة، هذه اللحظة الراضة بحقائقها، الجارحة بإلحاحاتها . . . والبقاء في زوينة من الأصوات العاصفة من كل صوب، المتصاعدة إلى ذروة من العنف، ثم الصمت فجأةً، كصمت الإغواء وانقطاع تيّار الحياة . . . أوه، نائل، البقاء والفناء يتلازمان ويتداخلان أبداً، كما المستحيلات . . .»

واستمرت بنا الزويدة ثلاثة أيام بلياليها، تمنيت لو أن الحياة تكفّت
عن الاستمرار وتتجمّد عندها، لأنها لا يمكن أن تكون في يوم قادم
أحرّ لوعة أو أزخم لذّة . . . ورافقتني أخيراً في سيارة الأجرة إلى مطار
أورلي، وهناك أيضاً قلنا كلاماً كثيراً، نعنيه أو لا نعنيه: تفاسير،
وعود، رجاءات، وسراب تتوقّد مرّة كنجمة نائية لا تُطال، ومرّة
كجمرة لاهية، وتنزلق كل مرّة من بين أصابعي كزئبق بثّ معناداً
عليه، مستمتعاً بانزلاقه واستعادته .

عند الوداع، كانت دموعها تجري، وذقت ملحها على خديها
الموردين، وبقي ملحها على شفتيّ. وفي الطائرة، وأنا أشدّ حزام
الآمان، وأمتنع عن التدخين الذي تحرّقت إليه، تساءلت: ترى هل
سألقاها مرّة أخرى إن أنا عدت إلى باريس؟ هل رقم الهاتف الذي
أعطيتني دون العنوان، صادق هذه المرّة؟ بل هل هي طالبة في
السوربون أصلاً؟ هل هي حقاً غير متزوجة؟ وما الذي هي فعلاً
تقوم به في التنظيم الذي ترفض الحديث عنه إلّا بالإشارة والتلميح؟
سأنتظر اليوميات التي وعدتني بها - هذا إن كانت ستفي بوعدها .

غير أنني شعرت أن هذا كلّ، في حقيقة الأمر، ما عاد يهمني
كثيراً. ما عاد يهمني من سراب إلّا وجودها، كيفما كانت، أينما
كانت: أمدّ ذراعيّ إليها وكلّي توق، فإذا احتضنتها كنت أسعد
العشاق جميعاً، وإذا أفلتت من يديّ عشت في توقّع احتضان قادم
أعرف أنه سيكون طرياً كشلال دافق في صباح بارد، وحارقاً كشمس
الظهيرة في يوم تموزي كبعض أيام لغائنا الأوّل .

وتبقى سهام في تمثالها المرمري ترنو إليّ في الصباح حين أستيقظ،
وفي الليل عندما آوي إلى فراشي، تبسم، وتتساءل، وتأسى، وتريد
شيئاً من جواب مفهوم. وليس لي إلا أن أتجاهلها، معتذراً، لأن
الجواب، أيّ جواب، سيكون طويلاً، وصعباً، وتبريراً، وعلى
الأرجح في خاتمة المطاف، غير ضروري.

أواخر ١٩٩٠

مهما تعدّد المواضيع في هذه الرواية، فإنها أساساً قصة حب. ولكن
الحب هنا من نوع غير عادي: عيف، وقاسٍ، وكثير التأمل في الذات.

وسراب عفان ستثبت أنها امرأة غير عادية، فتجد أن حباً كهذا لا بدّ
أن يكون مغامرة خطيرة في أكثر من اتجاه، إذا كانت تبغي خلاصاً لنفسها،
ولغيرها.

ونائل عمران، الرجل الذي يفاجأ بهذا العشق، سيذهل حتى الألم لما
حرّك في سراب من طاقة هائلة، وحيوية أخضعت العقل والجسد
لإرادتها، تحقيقاً لإنسانيتها وحرية قرارها.

وهي قد تصرّ على أن تمازج بين واقعها وخيالها، أشبه بممثلة تقمّصت
دوراً على المسرح، وخرجت الى الطريق وهي مستمرة في دورها، ألى أن
تحول وهما إلى حقيقة.

لقد أضاف جبرا ابراهيم جبرا، بروايته الجديدة هذه، امرأة متفردة
أخرى إلى الشخصيات النسائية المتميزة التي صورها في رواياته السابقة.

دار الآداب

هاتف ٨٠٣٧٧٨ - ٨٦١٦٣٣
ص ب ٤١٢٣ - بيروت